سنين الحبّ والسجن

قصّة حياة عبد الله الطوخى





سلسلة شهرية تصدر عن دار الهلال

رئيس مجلس الإدارة : مكرم محمد أحمد

نائب رئيس مجلس الإدارة : عبد الحميد حمروش

رئيس التحرير : مصطفى نبيل

سكرتير التحرير : عادل عبد الصمد

مركز الإدارة :

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب . تليفون ٣٦٢٥٤٥٠ سبعة خطوط

KITAB AL-HILAL

No - 529 - JA - 1995

العدد ٥٢٩ ـ شعبان ـ يناير ١٩٩٥

FAX 3625469 فاكس

أسعار بيع العدد فئة ٣٥٠ قرشا

سوريا ١٠٠ ليرة ـ لبنان ٦٩٠٠ ليرة ـ الاردن ٢٧٠٠ فلس ـ الكويت ١٧٥٠ فلسا ـ السعودية ١٥ ريالا ـ تونس ٥٠٠ر٢ دينار ـ المغرب ٣٠ درهما ـ البحرين ٢٠٠ر١ دينار ـ قطر ١٢ ريالا ـ دبى / ابوظبى ١٢ درهما ـ سلطنة عمان ٢٠٠ر١ ريال ـ غزة / الضفة / القدس ٢ دولار ـ المملكة المتحدة ٢ جك .

رفع و تنسيق : القرصان الطيب

عينان على الطريق

سنين الحب والسجن

(قصة حياة)

عبدالله الطوخى

دار الهلال

رفع و تنسيق : القرصان الطيب

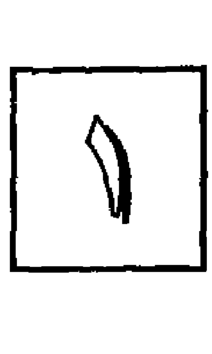


رفع و تنسيق : القرصان الطيب

"كان زمن الحب .. وكان زمن الطوفان
كان زمن المواجهات المؤجلة عبر العصور ..
كان زمن فتح الباب المحظور"

ميحة حسنين

رفع و تنسيق : القرصان الطيب



وكان السجن في انتظارنا

أغسطس ١٩٥٣ .. والدنيا غروب ..

غروب يوم ، وغروب عصر .. لكنه أيضاً ميلادٌ جديد لإنسان .. وميلادٌ جديدٌ لعصر !!

ها أنذا فى زنزانتى ، ممدداً بظهرى ، معقود الكفين وراسى مسندٌ عليهما .. أجذب أنفاسى بارتياح ورضا .. فقد تم امتصاص كل الصدمات : صدمة القبض علىّ فى الفجر وانتزاعى من بين زوجتى وطفلى . صدمة وضع كلبش الحديد حول معصمى والسير بى فى دهاليز وزارة الداخلية ، قسم مباحث أمن الدولة ، يعرضوننى على مخبريهم السريين لكى ينقشوا ملامحى فى ذاكرتهم !.. صدمة تلك الرائحة البشعة التى ملأت أنفى وقلبت معدتى وهم يدفعون بى إلى داخل تخشيبة قسم السيدة زينب .. ذلك القسم الذى كثيراً ما دخلته من قبل محامياً مع متهمين أو أصحاب شكاو . لأجدنى وسط نوعية غريبة من البشر ذكرتنى بعنوان قصةٍ لمكسيم جوركى : "مخلوقات كانت رجالا" .. وحيث لا فاصل بين الجالسين أو النائمين ، وبين من يقضى حاجته !!.. ثم .. منظر جحافل البقّ الزاحفة ببطء على الحوائط .. صغيرة دقيقة

أول الليل ، وفى الصباح متضخمة بدماء البشر !

ثم .. أخيراً .. قرار نيابة أمن الدولة ، بعد تحقيق شكلى سريع ، بحبسنا وترحيلنا إلى سجن مصر كمتهمين بالانضمام إلى تنظيم سرى يعمل على قلب نظام الحكم بالقوة !.. أى حكم ؟! تلك كانت الدراما الكبرى !.. هو حكم الثورة التى طالما بشّرنا بها وشاركنا رجالها النضال أيام الكفاح تحت الأرض !.. ها قد تطورت الأحداث وتلاحقت على نحو لم يكن أحدٌ منا يتنبأ به !.. لم يمر أكثر من عام وشهر على قيام الثورة ، وإذا بنا وقد أصبحنا الإخوة الأعداء . هم السجانون ، ونحن المساجين . متى سيعقدون لنا المحاكمة ؟! لا أحد يدرى !

وحين هبطنا من صناديق العربات الصاج المغلقة ، طالعنا بابٌ ضخم مصفح فى قلب سور أصفر تعلوه أسلاك شائكة ، وأبراج حراسة مسلحة ! وخيّل لى للحظة أنى فى أحد الأفلام أتفرج ، أو فى حلم يقظة ، إلا أننى انتبهت على يد العسكرى تدفع بى أنا والزميل المربوطة يده إلى يدى بفردتى كلبش واحد تستعجلنا الدخول من الباب الذى فتحت منه ضلفة واحدة بحذر شديد ..

وتوالى بعدنا الباقون .. ثم فجأة دوى صوت هائل رج أركان قلبى . كانت ضلفة الباب تغلق . وصك سمعى صوت متراس حديدى بالغ الطول والسمك ، راحوا يدفعونه بقوة ليحكموا الإغلاق !

لحظتها بدا لى أن سداً هائلا غير مرئى ارتفع فجأة ليحول بينى وبين العالم الخارجى . وأن ما كان فى متناول يدى بالأمس ، لم يكن الآن فى إمكانى أن ألمسه أو أراه ولو حتى من بعيد : زوجتى ، طفلى ، بيتى ، مكتبى ، أمى ، قريتى ، قطار الوادى . جسر النيل والحقول وشمس البكور وأشجار الجميز والتوت ..

لا .. ليس فيلماً أو حلم يقظة ، بل حقيقة تتطلب الانتباه واليقظة لمعرفة خبايا وحنايا ذلك العالم الغريب الذى فُرض علىّ فرضاً أن أعيش فيه لزمن غير معلوم . وإننى لا ألوم أحداً .. حتى الذين قبضوا علىّ .. فقد اخترت طريقى . وكنت متوقعاً حدوث هذه الضربة بين يوم وآخر وفى أية لحظة بعد أن حدث ذلك التحول الهائل وبمائة وثمانين درجة فى علاقتنا بالثورة . فمن فرحة وصلت إلى حد الرقص فى الشوارع وإعلاننا التأييد الحار لها على مستوى العالم كله ، غير عابئين بموقف الاتحاد السوفييتى الرافض حتى الآن الاعتراف بها والمتشكك لا يزال فى طبيعتها ، إلى نقد أنفسنا نقداً ذاتياً على هذا التأييد واعتبارها انقلاباً عسكرياً مدعماً من الأمريكان بقصد تصفية الحركة الوطنية والشعبية .. وهل هناك دليل على ذلك أكثر من إرسالهم الدبابات إلى مصانع النسيج بكفر الدوار لاخماد ذلك الاضراب الذى قام به العمال مطالبين ببعض مطالب اقتصادية ، ثم إعدام اثنين منهم : خميس والبقرى ؟!.. وهل هناك أيضاً دليل أكثر من لجوئهم إلى أسلوب المفاوضات مع الانجليز أملا فى تحقيق الجلاء ..

ضاربين عرض الحائط بشعار : "الكفاح المسلح طريق الخلاص" .. وفيم اذن كان كفاح الاربعينيات والتضحيات والشهداء ؟!..

"فلتسقط معاهدة جمال ـ هيد" .. كان ذلك عنوان آخر منشور سرى طبعناه ووزعناه والصقناه فى الليل على الجدران .. وكان جمال هذا هو جمال عبدالناصر الذى يرأس وفد المفاوضين المصريين ، والذى كنت قد سمعت باسمه لأول مرة من عاكف الرافعى ونحن نسير فى شوارع القاهرة فرحين بطرد الملك وانتصار الثورة : "خل بالك من هذا الاسم .. جمال عبدالناصر .. إنه الآن مدير مكتب محمد نجيب رئيس الجمهورية .. هى فى رأيى فترة تدريب قبل أن يصبح هو رئيس الجمهورية" .. وصح رأيه . فلم تمض عدة شهور حتى صعد وأصبح نائباً لرئيس الوزراء ووزيراً للداخلية . الوزارة التى لابد من الإمساك بها لمن ينوى الامساك بالحكم .. وكان هو المشرف على إنزال الضربة القاصمة بنا ! هاهم ذا عساكر السجن الذين استقبلونا ، ينادون علينا بالأسماء ليتأكدوا من اكتمال العهدة البشرية ، وبتعبير أهل السجن : الإيراد الجديد .. تمهيداً لتوزيعنا على الزنازين !!

وراعتنى ضخامة عدد الرفاق الذين قبض عليهم .. كنت أظن أن خليتنا الصغيرة وحدها التى انكشفت ، وإذا بالذين وقعوا فى نفس الضربة تسعة وستون .. لمونا كالدجاج ،

بمنتهى السرعة والبساطة وأدخلونا القفص أو الحظيرة !..
ومن قبل كانت قد بلغتنا أنباء ضربة أخرى أصابت تنظيمنا ..
ليس فقط فى القاهرة بل وفى الإسكندرية والأقاليم مدناً وقرى .. وليست القواعد وحدها التى وقعت ، بل القيادات أيضاً على مختلف المستويات : أقسام ومناطق ومكتب سياسى ولجنة مركزية . ولم يبق فى الخارج غير نفر قليل هارب كامن أو باحث عن مخبأ آمن .. وتبدت لى حقيقة ساطعة وجارحة .. أننا كنا نتحرك ونحن عراة ، بينما نظن أننا مغطون جيدا ومستورون بملابسنا .. كنا مكشوفين ومخترقين بينما نعتقد أننا فى حماية تنظيم بالغ السرية والحديدية وعلى مستوى الصراع .. يضمن لأعضائه كل عناصر السرية والأمان !.. هناك إذن لابد خيانة ، أو تسيب يصل إلى حد التآمر والخيانة .. وإذن لابد من وقفة حساب . لا .. ليس حساباً ، بل محاكمة نعقدها لهذه القيادات التى بسبب انحراف فكرها أو تسيبها جلبت علينا كل هذه الخسائر ! وهاهو ذا "محمد الزبير" زميلى فى الزنزانة ، يروح ويجىء ، بشعره الأكرت النحاسى الطويل ، كأسد حبيس غاضب ومقهور ، مطالباً بضرورة عقد هذه المحاكمة وبأسرع ما يمكن !..

هو ذاك .. أنا معك يامحمد فى هذا .. لابد من محاكمة هذه القيادة التى أدت سياستها ومنهجها المتسيب فى الكفاح إلى تسليم التنظيم .. يكاد أن يكون بأكمله - لأعدائه ! وإن المأساة تصل إلى ذروتها حين نرى هذه القيادة المطلوب محاكمتها ، معظم أعضائها مقبوض عليهم ، ومعزولون

ومرميون فى السجن .. وليس اى سجن .. انما هو السجن الحربى .. وما أدراك ما السجن الحربى !

مهلا ياعزيزى الزبير مهلا .. فالجميع وبلا استثناء فى محنة .. القيادة والقاعدة .. والكارثة أبعادها متعددة ومتشابكة ومعقدة . والعجلة فى الحكم فى مثل هذه اللحظات ضيق أفق وحماقة !.. لقد فُرض علينا الموقف فلنعشه .. ولنخفف من مأساويته بأن نتفرج عليه !!.. انت لا تعرف ـ رغم زمالتنا القديمة فى الكفاح السرى ـ أنى فى البدء لم أدخل عالم السياسة والتنظيمات السرية هذا إلا من باب الفن والحلم بأن أكون كاتباً ثوريا على شاكلة العظيم جوركى ـ ولهذا فكل منظر وكل حدث وكل شخصية تمر بى هنا ، أتلقاها كخيط أو عنصر أو فصل فى قصة !! ونحن لا نزال فى أول التجربة .. أول يوم لنا فى السجن .. وأول مرة تضمنا زنزانة بعد أن وزعونا على الزنازين وأغلقوها علينا نحن الأربعة .. أنا وأنت .. والزميلان الآخران .. (لا أذكرهما الآن على وجه التحديد والدقة) ممددون بظهورنا على الأرض ، وعيوننا على النافذة الوحيدة .. بأعمدة قضبانها الحديدية السوداء المتقاطعة .. شاخصين إلى تلك المربعات الصغيرة الزرقاء .. زرقة مختلطة بأضواء الغروب وأضواء الوداع .. أنت يازبير لا تعرف معنى تلك اللحظة بالنسبة لى .. من زمن طويل .. منذ ما قبل السجن ، بل وما قبل حياتى فى القاهرة .. منذ أيامى فى القرية حين كان الغروب يأتينا حاملاً أحزان وأكفان الليل

الذى يبتلع بظلمته جميع الكائنات .. الأرض والشجر والبشر ..

الآن .. وأنا راقد فى عمق زنزانتى ، طائراً بخيالى .. أرانى أيضا لحظة الغروب ، واقفاً بشرفة شقتى الصغيرة المحندقة فى "شارع درب البهلوان" .. بحى السيدة زينب .. حاملا ابنى ايهاب على صدرى ، وفتحية أمه بجوارى ، نجيل ابصارنا مع الوان الشفق ، ونتابع أسراب الحمام المحوّمة حول أبراجها .. ونشير لك ياايهاب عليها وهى تتماوج فى الفضاء .. مصفقة بأجنحتها .. أين أنت الآن ؟! وأنت يافتحية .. ماذا تفعلين فى هذه اللحظة ؟! ومع من ؟! وهل أغلقت البيت وذهبت لتعيشى أنت وايهاب مع أمك ؟! وكم من السنوات سأقضيها بعيداً عنكما فى السجن ؟!.. ترانى خدعتها وخدعت نفسى حين طمعت فى الجنة وتزوجتها .. حين اندفعت معها فى قصة الحب وأنا أعلم أن الفراق والسجن هو مصيرى المنتظر فى يوم من الأيام ؟!.. ألم يكن من العدل وأكثر راحة للنفس لو أننى لم أتزوج ولم أنجب ؟!.

والمضحك المبكى أنها حامل فى شهرين تقريباً !.. الآن تعاودنى جملة لجوركى أجراها على لسان إحدى شخصيات رواية الأم : "الزواج يثقل كاهل الثورى" .. وكذلك مثلٌ عربى قديم بنفس المعنى : الأولاد مَجْبَنَةٌ مَبْخَلة !! أى أنهم دعوة للأب إلى البخل والجبن والابتعاد عن المغامرة حرصا عليهم !! يبدو ذلك الآن صحيحاً تماماً .. ليس أسعد من الثائر

السجين الأعزب . يكون واحداً .. فرداً .. خلى البال .. خفيفاً بنفسه .. بألمه .. باندفاعه .. وحتى بانتحاره لو ثقل عليه الاحساس باليأس وعبثية تجربة الكفاح السياسى السرى !!

غير أنها تراءت لى بوجهها الضاحك الفياض دوماً بحب الحياة وبالأمل .. بل هى نعمة حياتى التى ستشد أزرى وتخفف جهامة السجن عنى . وسأكتب لها خطابات تحول أحزان الفراق إلى ملحمة بطولة واستبسال . ومثلما أصبح "باڤل" هو نموذجى فى البطولة ، تصبحين أنت مثل "وساشا" الحبيبة والرفيقة فى النضال !.. ومثلما كان يقال "باڤل وساشا" يقال "عبدالله وفتحية" ونخلق من حياتنا ، نموذجاً حياً ومبهجاً للحب وللنضال !

كل ذلك سأكتبه لك ياصديقتى .. ياصدفتى السعيدة فى الحياة .. وحين تبدأ الزيارات الأسبوعية وبيننا حاجز الأسلاك ، ستكون هديتى لك فى كل مرة رسالة أهرّبها إليك من خلال الثقوب .. أغمرك فيها بفيض مشاعرى .. كما أصف لك حياتى فى السجن .. سأجعلك تعيشين ما أعيشه .. وسأحكيك وأسليك بأخبار وقصص تلك الشخصيات التى يموج بها عالم السجن ، من سياسيين إلى نشالين وسفاحين وأبرياء ومظاليم .. وضباط وعساكر جبابرة ومساكين !

وسأحكى لك أيضا ضمن ما أحكى عن مأساة ومهزلة انقسام تنظيمنا "حدتو" إلى قسمين .. أحدهما بقيادة الرفيق "بدر" والثانى بقيادة الرفيق "خليل" ، وكلاهما يتهم الآخر

بالعمالة والخيانة أو على الأقل بالضحالة وبالانتهازية .. وهاهو ذا الزبير يدق الحائط بقبضته ويقول : ليست صدفة يازملاء .. أبداً ليست صدفة .. ألا تحدث لنا الضربة إلا بعد حدوث الانقسام . إذن فالانقسام مدبر . وكل من اشترك فيه بالفعل أو بالسكوت خائن .. والصراع الدائر بين الاثنين ليس صراع مبادىء بل صراع زعامات .. لابد من الإسراع إلى مؤتمر تتكشف فيه كل الحقائق .

هل أحكي لها عن كل هذا لكي تكون واعية ومتيقظة للجو المحيط بها ، أم أعفيها من مثل تلك الموضوعات المعقدة الكئيبة ؟! موضوعات وصراعات أنا نفسى لا أعرف الحقيقة فيها .. وما كان يمكننى أبداً أن أعرفها لطبيعة الظلمة التى كنت أتحرك فيها .. والتى كانت قواعد التنظيم السرية تفرضها .. ثم فجأة ، إذا بالظلمة تتبدد بعد الضربة . وصوبت كشافات النور من جميع الاتجاهات !.. ورغم هذا ، فلا ندم ياصديقتى ، ومهما كانت الأخطاء أو حتى الجرائم التى حدثت فى التنظيم ، فالمهم عندى هى الفكرة التى باتت تملأ كل نفسي بأجمل الأحاسيس .. أجل .. نحن نحيا فى نفق طويل مظلم .. ولكن هناك ، على مدد الشوف ياحبيبتى يلوح لنا الضوء من بعيد .. صغيراً دقيقاً مثل شعاع وحيد ثاقب .. يتسع مع الأيام شيئا فشيئاً حتى يصبح مثل قرص الشمس .. ليس لنا وحدنا .. بل للإنسانية كلها !..

ولسوف أكتب لك أيضا عن قانون التطور وحتمية الثورات

الناجمة عن التغيرات والتحولات .. من الكم إلى الكيف .. والصاعدة دوماً إلى الأعلى والأرقى فى اتجاه الإنسان السوبرمان .. الإنسان الأسمى والأعلى ..

فى تلك اللحظة ، إذا بى أسمع صوتها ينادى باسمى ، فلم أصدق .. ولولا أننى رأيت عيون الرفاق كلها تتوجه لى ، لظننت أني أحلم .. هى ثانية وتكرر النداء :
ـ عبدالله .. عبدالله .

انتفضت قافزاً من رقدتى . هى فتحية .. وهو صوتها .. كرنين أجراس الحياة .. وفى أقل من لمح البصر كنت قد صعدت قفزاً على الحائط وأمسكت بقضبان الحديد .. ناظراً بلهفة وخفقات القلب تتوالى !.. وإذ لمحتها من الوهلة الأولى واقفة على التل صحت صارخاً منادياً عليها ، كأنى أوصل صوتى إلى أبعد البرارى الشاسعة :
ـ فتحية .. فتحية ..

ومن الدهشة الأولى سمعتنى .. وأدركت حركة ذراعى وكفى التى كانت تلوح وتهلل بفرح وقوة خارج النافذة ، فمضت تلوح هى الأخرى بكلتا ذراعيها ..

كانت واقفة بأستداراتها التى جذبتنى وأسعدتنى والهمتنى .. وكان الوقت غروبا .. والعتمة بدأت تحط على المدينة .. ومع هذا رأيت ورد خديها ، وحلمتى أذنيها ، والحسنة الصغيرة أعلى صدرها .. وخصلات من شعرها

الناعم الفاحم ، كانت ثمة ريح خفيفة تطيرها .. وما أروع حيويتها وذكائها وشجاعتها وهى تحاور وتداور العسكرى الذى كان يطاردها وينهرها .. بقدرتها العبقرية الفطرية على التواصل الإنسانى وقتل روح العدوان فى خصومها .. وأدركت من نظراتها ، وتلويحة يديها أن عدداً من الرفاق فى الزنازين الأخرى قد تسلقوا النوافذ وراحوا يلوحون لها ، فمضت ترد عليهم ، مكورة كفيها .. علامة القوة .. ثم بكل وجهها لى .. وهى تطمئننى على أحوالها ، وعلى ولدنا إيهاب .. ثم الأعظم من كل هذا ، ذلك الخبر الرائع الذى أوصلته لى بذكاء دون أن يفهمه أحد ، وحينذاك تنفست الصعداء وانزاح عنى ذلك الهم الكبير : لقد تخلصت من ذلك المخبأ السرى الذى فلت بمعجزة ليلة القبض والتفتيش ، بكل ما يحتوى عليه من مطبوعات وتقارير ومنشورات سرية .. حدث هذا بفضل مخبر إنسان لمح المخبأ ومع هذا ـ وياللغرابة ـ لم يرشد عنه ! وكنت أخشى أن يعودوا إلى البيت لأى سبب من الأسباب ويكتشفوه .. هاقد تخلصت منه تماماً !!.. ما أعظمك يافتحية المصرية .. أجل .. يجب أن يكون لدينا "ساشا" مصرية .. خمرية اللون .. فاحمة الشعر .. وآه لو تطول يداى هذه الخصلات التى تروح وتجىء مع تحركاتها .. وقفزاتها .. بينما العسكرى بنفاد صبر يطاردها .. مرة غاضباً .. ومرة راجياً ومناشداً..

وأخيراً .. لوحت لى ، ولكل النوافذ ، تلويحة الوداع .. وهى تصيح : شدوا حيلكم .. كلكم .. احنا جدعان ..

ماتخافوش علينا .. خلوا بالكم انتم من نفسكم ..

وهبطت من على التلة .. غابت بجسمها .. لكن طيفها بقى . فاحتويته وهبطت من النافذة ؟!

من قال أن الزواج يثقل كاهل الثورى ؟!.. ليس دائما أيها العزيز جوركى .. لو قام الزواج على حب صادق وعميق فهو نعمة على الثورى وخير معين له فى الشدائد والأزمات .. فماذا لو لم تكن هى الآن في حياتي .. كانت الدنيا ستصبح وتمسي خشنة جهمة جرداء . إننى ـ على الأقل ـ أمتلك الحلم بيوم سأخرج فيه وتكون فى انتظارى .. متأججة بالشوق واللهفة مثلى . ويالها من ليلة ستكون .. ليلة مثل تلك الليالى التى وهبتنا إياها الحياة ، لو نحن اللذان وهبناها وعزفناها للحياة . عزفناها بامتزاج اللحم والدم والأنفاس وفرحة الاكتشاف . اكتشاف المعنى للطيران نشوة .. وللمعنى الجليل لكلمة الجنس وكونه سر الخلود البشرى بل والعضوى كله !!.. أجل .. كانت أيامنا ولياليناا عزفاً وعبادة وتراتيل .. وكان الفرح يفيض بنا فنتبادل الاعتراف بالسعادة وبالشكر للحياة أنى لقيتها .. وأنها لقيتنى .. وكنت أفكر بأنها دعوات أمى (رغم انها كانت فى البدء ضد زواجنا) .. وأن الحياة استجابت لها ، فجازتنى بحبها خير الجزاء ! ـ

ـ عبدالله .. احك لنا كيف عرفتها .

قالها فجأة ، محمد الزبير .

اهتز قلبى فرحا وطربا ..

أجل .. أنا نفسى أريد أن أعرف كيف عرفتها .. إن الدهشة السعيدة مازالت تأخذني حين استرجع تلك اللحظة التى أرسلت بها إلىّ الأقدار !



كيف عرفتها ؟!

أجل .. أنا نفسى أريد أن أعرف كيف عرفتها !!

لقد خفق قلبى للسؤال . وهزنى بشدة أنه جاء على لسان رفيقى الذى كان منذ قليل يدق بغضب حائط الزنزانة ويصيح مطالبا بمحاكمة قيادة التنظيم !

لقد أيقظت زيارتها الشجاعة وغير المتوقعة ونداءاتها من فوق التل لحظة الغروب كل المشاعر الإنسانية الدقيقة فينا جميعا ، وكانت قطع السماء الزرقاء التى تبدو من مربعات الحديد أمست جهمة حالكة السواد ، وعدت إلى رقدتى مثل بقية الزملاء فوق البرش !

نحن يارفاق نقول بأن "الإنسان يصنع نفسه" .. تلك الجملة التى جعلها "جوردون تشايلد" عنواناً لأحد كتبه . وسحرت بها لفترة !!.. قد تصدق هذه المقولة على أى شىء إلا قصتى معها .. وبالتحديد البداية .. فهل أنا الذى دبرت لحظة تلاقينا ؟! على الاطلاق .. ولا هى أيضاً !! لقد كانت العناصر الكونية الطبيعية والقدرية هى صانعتها ومصممتها ! ولقد خطرت لى من قبل فكرة سجلتها ، وهى أن بدء الحياة

كان مع الشتاء .. كذلك كان مولد حبنا ! ومازلت أذكر جلستى على رصيف أحد المقاهى بميدان السيدة زينب التمس الدفء من شمس الضحى ، وأجذب أنفاساً من شيشة زجاجية تكشف عن حركة كركرة الماء فيها .. أنفاساً عميقة قوية كأنما أود أن أحرق بدخانها صدرى ، وأتبدد طائراً مع الدخان فى الفضاء .. فضاء الضياع .. فلا شىء يعطينى الاحساس بأن لوجودى ضرورة فى الحياة .. فلا هدف ولا أمل أتطلع إليه .. وأى شىء مثل أى شىء .. و .. فجأة : إذا بها .. تهل .. قادمة تخطر على نفس الرصيف فى اتجاه مقهاي وشمس الضحى منعكسة على وجهها .. وعليها كلها .. خطواتها تكاد تكون قفزات ، والشعر فاحم لكنه مضىء خصلاته هفهافة ناعمة كالحرير .. بعضه مستلق على الكتفين ، والبعض الآخر رائح ، غادٍ على ايقاع الخطوات .. وكانت ملابسها على قدر كبير من الرقى والأناقة وحسن الذوق : تايير بنقشة كاروهات تميل إلى التركواز .. والجاكت مقفول بفتحة أعلى الصدر على شكل ٧ .. مبرزاً تكسيمة جسمها .. تكسيمة إلهية لا أثر لأى صنعة فيها .. صدر ناهد وخصر نحيل وساقان ملفوفتان يكشف عنهما ذلك الجورب القصير وذلك الحذاء ذو النعل الكريب !.. لم تكن تزيد عن السادسة أو السابعة عشرة .. لكأنها زهرة خارجة لتوها من أكمامها وتطل على الحياة وخيِّل لى أنها مغسولة بالندى ، وأنها تحس بهذا .. وسعيدة به !

وإذ كانت تقترب من المقهى ، بدا خداها المتكوران

متوردين ذلك التورد الذى يذكر ببكارة الحياة وتفتحها .. وأوج صحتها وعافيتها !.. أما العينان فهوداوان ، لامعتان .. ترسلان بريقا .. وهى تجيل بصرها فيما حوله بشغف وفرح !

أجل .. كانت تبتسم لنفسها وهى سائرة . ولقد أدركت بعد ذلك سر هذه الابتسامة : أنها كانت المرة الأولى فى حياتها تخرج وحدها فى مشوار !! كانت تمارس فرحة الاحساس بالذات وبالحرية . ذلك ما يفسر خطواتها القريبة آنذاك من الطيران !!.. وإذ مرت أمامى ، التقت عيناها بعينى .. وإذا بنفس الابتسامة لا تزال ابتسامتها للحياة .. وغمرنى إحساس بأن فيها شىء أليف وقريب منى .. وأن هذا الوجه وهذه الابتسامة يحلو للمرء لو يتملاهما مرة أخرى !.. ولو لم يكن هناك موعد بينى وبين صديقى عاصم النبراوى .. وكنت أنا المحرض له على التزويغ من الكلية وقضاء يوم حر طليق .. لولا ذلك لنهضت ولحقت بها . كان يملؤنى شعور بأنها لن تخيّب أملى .. أو على الأقل لن تنهرنى !

وغابت عن عينى فى الميدان !

تولانى إحساس بالخسارة .. كأن أملا لاح وأضاء ثم اختفى فى الحال . انكببت مرة أخرى على الشيشة وقد ازداد شعورى بالضياع .. وإذا بى أرى عاصم النبراوى ، بوجهه المستدير السمح اللطيف واقفاً أمامى . نهضت على الفور من جلستى :

– براڤو . وصلت فى اللحظة المناسبة .

وأمسكته من ذراعه برفق وعشم واندفعت به فى اتجاه محطة الترام المقابلة لمسجد السيدة زينب .

- يارب نلحقها .
- من هى ؟!
- الكلام حيعطلنا .

كنا نكاد نجرى .. واستطعت بقوة اللهفة أن أراها واقفة ساطعة فى نور الضحى تنتظر الترام . أى رقم ياترى تريد ؟.. وداخلنى احساس سعيد بأن هذا الترام بالذات ربما تأخر بترتيب من القدر كى ألحق بها !! تبدأ القصص السعيدة هكذا بالصدفة وعلى غير ميعاد .. إنما على المرء أن يتشبث بالصدفة جيدا ولا يدعها تفر من بين يديه !

وضغطت على ذراع عاصم أنبهه اليها . فمال علىّ هامساً متحمسا : عندك حق تقوم لها !

فرحت برأيه ..

الآن .. كيف أتصرف ؟! لم يكن يعنينى فى تلك اللحظة إلا أن تنتبه لى ، وتدرك أنى تركت جلستى على المقهى من اجلها !.. كنت حريصاً على ألا يبدر منى أى تصرف مغامر أو أحمق قد يخيفها أو ينفرها منى !.. دعوت الله فى سرى أن يتأخر الترام . كيف أجذب بصرها بسرعة نحوى دون أن أسبب لها أى احراج ؟!

وانتبهت على بائعة ورق يانصيب ، تستند فى سيرها على

عكاز خشبي ، تعرض عليّ شراء ورقة . ولما كنت لحسن الحظ أعرفها من جلستى المستديمة على المقهى وأعرف أيضا اسمها (رسمية) واشتريت منها قبلا .. فقد دبرت معها همساً لعبة خفيفة سريعة أجذب بها بصرها إلىّ .. واستجابت بائعة اليانصيب المرحة فذهبت إليها وهى تدق بعكازها ، وأبلغتها بلطف كلماتى وهى تشير لها علىّ : الأستاذ اللى واقف هناك ده بيقول لك لو اشتريت منى الورقة دى حتكسبى !

وكرد فعل تلقائى ، خطفت نظرة فضولية منى . كنت أبتسم لها برجاء .. مواصلا لعبة الأمل الغامض . غير أنها أشاحت بوجهها عن البائعة وابتعدت خطوات . أعجبنى أسلوبها الإنسانى الراقى فى الرفض والاعتراض . كان تعبير وجهها يوحى بالسماحة واللطف .. الأمر الذى تمنيت أن يتحقق معى لو اقتربت منها وحاولت معها الكلام . إننى فقط أتحين الفرصة !.. ترى أى ترام تنتظر ؟ وإلى أين هى ذاهبة ؟! وجاء ترام ١٧ فصعدت بسرعة إلى عربة السيدات .. أسرعنا بالركوب وجلسنا فى موقع يرصد جيدا حركة الهابطين والهابطات !

مازلت أذكر رحلة الترام هذه .. لقد بدت وكأنها سفر طويل طويل . وفى إحدى اللحظات خشيت أن تكون قد غادرت الترام دون أن نلحظ ذلك ، غير أن عاصم قال ان ذلك مستحيل .. فهو يراقب معى جيدا الطريق والمحطات . كنت عازماً على

أنها لو استمرت حتى إلى المريخ فسأواصل خلفها !! أخيراً لمحتها تهبط فى احدى المحطات .. فأسرعنا بالهبوط .. تبعناها .. دخلت شارعا جانبيا على ناصيته مقهى صغير . لولا المقهى بما فيه من ناس وحركة لغامرت وأسرعت بالكشف لها عن نفسى ونيتى ! كانت ماضية فى السير بحيوية وثبات .. فرحانة بنفسها وبالحياة . وتصورت أنها فى أية لحظة ستنسرب إلى أى باب من أبواب هذه البيوت المطلة على الجانبين ، وتختفى إلى الأبد ! لم يكن يبدو عليها أبسط إحساس بأن أحداً يتبعها ! عاودنى الشعور بالضياع ، وأننى لست سوى صعلوك متبطل ومتنطع لا قيمة للوقت والزمن عنده ، وعلىّ أن أخجل من نفسى ومن تشردى ومن عشمى الزائد فى كرم صديقى عاصم وسأعتذر له مبتلعاً خجلى وفشلى .. ثم نعود من حيث أتينْا !!.. وهاهى ذى خطواتها تهدأ وتميل يساراً لتدخل أحد البيوت ، غير أنها ، وقبل أن تدخل ، التفتت فجأة إلى الخلف لفتة سريعة تتأكد إن كان احد يتبعها .. ثم انسربت من الباب واختفيت تماماً !!

ارتفع عنى الإحباط وانتعشت روحى .. لقد كانت اللفتة رغم أنها لم تستغرق غير برهة ، تعنى ماكنت أصبو اليه .. لقد أحسست بها تقول ، وثمة ابتسامة خفية ذكية فى عينيها . أيها الشقيان . انى أحس بكما . لست بغافلة !

هذه النظرة ، استطيع الآن القول ، بأنها هى التى غيرت مجرى حياتى وحياتها .. فبدلا من اليأس ، عاد الأمل .. وبعد

ان كنت ضائقا بوجود المقهى فى الشارع ، فكرت بأن موقعها رائع ومناسب وكأنه من ترتيب القدر .. فقد قررت الجلوس عليها لأرقب خروجها ، دون كلل أو ملل .. حتي رأيتها ـ والغروب يقترب ـ تخرج من البيت .. وتمر من أمامنا . وياللحظ السعيد .. كانت هذه المرة أيضا وحدها .. وإذن لن أدع هذه الفرصة تفلت مني . ونهضت خلفها .. أتحسس خطواتى ، وأقيسها بالنسبة لخطواتها بهدوء وحذر .. حتى حاذيتها ..

ـ مساء الخير ..

قلتها .. ناظراً إلى بروفيل وجهها . راجياً من الأعماق أن يستمر عليه هذا التعبير الجميل بالالفة والرضا .. ومع أنها لم ترد بكلمة أو حتى بلفتة ، إلا أن طمأنينة ممزوجة بفرحة داخلتنى حين ألفيتها متقبلة لسيرى الهادىء بجوارها .. كان صمتها ينطق بالرضا . وبدا لى أن ايقاعاً موحداً يجمع خطواتنا .. ارتفعت درجة حرارة الأمل وقلت لها : أنا مش عايز أسبب لك أى إحراج فى الشارع .. هما كلمتين عايز أقولهم لك وامشى على طول .

بقيت على صمتها المغلف بالرضا .. واصلت بحرارة أكثر ، وأنا أتملى جانب وجهها ، وأحاول سبر أغوار روحها : ممكن تعطينى عنوان بيتك ؟! مش عايز منك أكتر من كده !

ولاحظت ازدياد التورد فى خديها . وأن التورد ليس فقط فى الخدين بل أيضا فى حلمتى أذنيها اللتين يزينهما قرط

ذهبى صغير على شكل نجمة تلمع بالمقابل مع خصلات شعرها الحرير الاسود .. ياإلهى .. لو أستطيع أن آخذ هذا الوجه بالخصلات بين كفى !! وتنبهت إلى أن خطواتها بدأت تسرع بعض الشىء فخفت أن تفزع فجأة منى وتطير مبتعدة .. قلت راجياً ومناشداً : أنا عارف انه شىء مش طبيعى ان الإنسان يعطى عنوانه لإنسان ما يعرفوش .. بس أؤكد لك إننى مش من الشباب اياهم .. أنا أصلا فلاح .. من الريف .. من قرية جنب المنصورة .. وطالب فى كلية الحقوق .. يعنى ابن ناس ومتربى (وابتسمت مناشداً) بالله بقى اعطنى العنوان .. أرجوك !

بقيت على صمتها . إلا اننى لمحت بوادر توتر ترتسم على وجهها .. قلت وأنا أهم بإيقافها عن السير : على فكرة لو ماردتيش علىّ حتخسرينى !

هنا التفتت لى لأول مرة وقد علا وجهها الدهشة والفضول وقالت : انت عايز منى ايه ؟!

وإذ التقت عيناى بعينيها وهى توجه لى الكلام ، غمرنى إحساس بالفرح .. وأننى نلت ما أريد .. لقد حققت نقطة انتصار عظيمة . وعلىّ الا أضيعها بكلام قد يخرج منى سخيفاً بلا معنى ..

قلت مبتسماً لها برجاء : دلوقتى خلاص .. بعد ما سمعت صوتك . مش عايز أى حاجة .. غير انى أعرف عنوان بيتك .

قالت بنفس الجدية ولكن بلا غضب : وعايز تعرفه ليه ؟

قلت : الكلام مش حينفع فى الشارع . بعدين حتعرفى ..

ولاحظت أنها تتوجه بنظراتها وخطواتها إلى أحد محلات البقالة وقالت وقد بدا على وجهها القلق والتوتر : أنا حادخل المحل ده .. أوع تدخل معاى .. حاشترى لاختى حاجة وبعدين حارجع على بيتنا فى السيدة زينب .

- فين بالظبط فى السيدة زينب ؟! ارجوكى قوليهولى .. (وأخرجت من جيبى قلما وورقة .. وعاودت الرجاء) .

أصل لازم أشوفك تانى .. ولو ماعرفتش العنوان منك ، حاعرفه بطريقتى .. حافضل وراك لغاية ما أوصلك لباب البيت ! أرجوك تثقى فىّ . وتأكدى انك مش حتندمى على هذه الثقة .

ولابد أن الصدق كان يشع من كل ذرات وجهى وصوتى وابتسامة رجائى .. ولابد أيضا أن عالمها الداخلى الذى لم أكن أعرف عنه حينذاك شيئا ، كان فى تلك اللحظة متجاوباً مع حنينى ومتقبلاً بل وسعيداً بإصرارى .. لقد فوجئت بها تقول ، ناظرة إلى الورقة والقلم فى يدى ، وبصوت يشى بأنها تغالب صراعات داخلية : عنوانى .. شارع الوافدية .. حارة أبو مندور .. نمرة ٣ .

ولم تنتظر لترى الفرحة التى شملت كل كيانى ، وانسربت بسرعة إلى داخل المحل . وقفلت أنا راجعاً طائراً إلى صديقى

الوفى الجالس على المقهى فى انتظارى .

وبهذا ياسادة ـ أقصد يارفاق ـ بدأت القصة التى ما كان أحد يتصور أنها ستتطور بينى وبينها إلى ما نحن عليه الآن : أنا سجين فى زنزانة . وهى زوجة السجين .. تنادى عليه من فوق التل . وتعطينا جميعا شعوراً بالأمل !

★ ★ ★

كنت وأنا أحكى ، سعيداً بأننى أحكى .. وبدا لى – بينى وبين نفسى ، أنى أتيقن من أن هذا الذى أحكيه كان واقعاً وحقيقة . وبمثل ما أنقذ حياتى يومها من الضياع الذى كنت سادراً فيه ، فهو اليوم ينقذنى وينقذ من معى من ليل جهم كئيب طويل . ولم تكن المتعة فقط فى لذة الحكى ، بل كانت أيضا فى مراقبة تعبير وجوه الرفاق وهم يتابعون بشغف تفاصيل الحكاية .. ممتصين تماماً ولا أدنى حركة تند عنهم غير امتداد يد واحد منا بنصف أو ربع سيجارة لتتلقاها شاكرة يد أخرى . مستندين جميعا بظهورنا على حوائط الزنزانة ، أو ممددين نصف تمديدة فوق تلك المراتب الهزلية النحيلة المحشوة بقدر ضئيل من الليف الجاف .. سعداء بأننا نطير خارج المكان والزمان .. ذلك سحر الحكاية والذكريات .. إنها نوع من العلاج أو السلاح للدفاع عن النفس ضد ضغط القهر . وأنه كلما كان السجين يمتلك "زاداً" وفيراً ومثيراً منها ، كان أكثر حظاً مع فرص النجاة واستمرار البقاء !!

فهل ياترى ـ بهذه المناسبة ـ هل يُمكن أن تكون "شهرزاد" قد اكتسبت اسمها الخالد من ذلك "الزاد" العظيم الوفير الذى كانت تملكه من الحكايا والذكريات .. والذى بفضله استطاعت أن تتجاوز المحنة وتنقذ نفسها من شهوة السلطان للقتل والدم كلما جن المساء وأقبل غول الليل ؟!

★ ★ ★

ـ وبعد ؟!.. وبعد ؟!

قالوها جميعا ، بلهفة محبة وودودة ..

ـ أحك لنا ، بعد أن أخذت منها العنوان ماذا حدث بعد هذا ؟!

★ ★ ★

كان أول شىء فعلته صباح اليوم التالى ، مبكراً جدا ، أن خرجت أبحث عن العنوان ، وثمة قلق يراودنى ، أن تكون قد أعطتني عنوانا مزيفاً كي تتخلص مني . غير أننى ما كدت أسأل : أين شارع الوافدية ، حتى وجدت الأيدي تشير عليه بسرعة وسهولة .. والأروع أنى فوجئت به قريبا جدا من الشارع الذى أسكن فيه .. "يبدو ان القدر فعلا ينسج لى ولها خيوط قصة تجمعنا" .. أين إذن المنزل رقم ٣ الذى تسكن فيه ؟! آه .. هو ذا ..

كان بيتاً قديما ذكرني ببيتنا في القرية مع الفارق : هناك الخلاء يحيط ببيتنا .. أما هذا ، فواحد من ضمن . وبدا متراجعاً شبه مختفى ، لولا ذلك البروز الصغير المطل من واجهة الدور الثانى على الحارة بنافذة جانبية رفيعة مغلقة !

الهمني احساسي بأن هذه النافذة هي نافذتها . وربما تكون الآن صاحية لتوها من النوم وتقودها قدماها إلى النافذة وتفتحها .. وتفاجأ بي واقفاً على الناصية !

وغمرني السرور إذ رأيت على الناصية المقابلة لهذه النافذة محل مكوجي . وعلى الفور قررت أن يكون هذا المحل هو مرصدى ! ساعة أو ساعتان حتى كنت أذهب إلى المكوجي ، وإذا به مثلى من المنصورة . أضاء وجهه بالسرور وأمر صبيه بوضع كرسى لى على الناصية .. وبفنجانين من القهوة نشربهما معاً بينما نحكى ونتبادل الذكريات !!

كنت قد ضبطت جلستي في أعظم موقع استراتيجي .. على رأس الحارة .. وبالضبط فى مواجهة النافذة المغلقة .. "آه لو تكون بالفعل نافذتها .. ثم تفتحها وترانى .. أو .. تكون الآن واقفة وراء الشيش وتنتظر فتجدنى" ..

نصف ساعة أو ساعة لا أذكر ورأيتها خارجة من باب البيت تخطر .. بنفس خطوات الأمس المتقافزة ، وإن كانت قد غيرت التايير بفستان بسيط ، ولبست حذاء بكعب عال . وعقدت خصلات شعرها من الخلف على هيئة ذيل الحصان .. ما

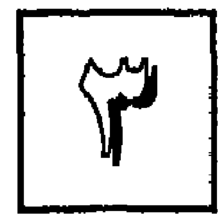
اجملها هكذا .. وإذ بلغت الناصية حانت من عينيها نظرة خاطفة باسمة لا ذرة شك فى انها لى .. "أنت جئت لى .. وها أنا قد خرجت لك" !..

غمرنى الإحساس بالامتنان الشديد .. لصدقها .. وشجاعتها ..

نهضت واقفا .. انتحلت عذراً للرجل الطيب .. شكرته على فنجان القهوة الممتع .

لقد صح ظنى ورسمى . كانت بالفعل نافذتها ، ورآتنى من وراء الشيش فخرجت من آجلى ..

ياربى .. ماذا اقول لها ؟!



أغانى الحب المطارد !

وهل في الصباح يقال أجمل من يا صباح الخير؟!
وإذا بالرد الذى جاء منها أجمل وأشهي .. وقد رنت نحوى بنظرة تفيض ألفة وحميمية : يسعد صباحك .

انبسط العالم أمامى .. بدا لى لحظتها أنى عرفت معنى لانهائية العالم .. وأن الوجود يمتد ويمتد الى مالا نهاية .. وانى لا اسير معها فى حوارى ، بل فى بساتين . واكتملت حلاوة الوجه بحلاوة اللسان .. لكأنما بهاتين الكلمتين قالت شعرا .. أو ترنّمت لبكور الصباح بأغنية !

لقد ألقيت بهذه التحية الصباحية آلاف المرات ، لكنى ابدا لم أتلق الرد عليها بمثل هذه الحلاوة والطلاوة ، وهذه الانتقاء المرهف والتلقائى للفظ ، وبمثل هذا الايقاع النغمى فى الصوت .. الآسر للروح والصادر ببساطة من أعماق القلب :
- يسعد صباحك .
حلت بالقلب طمأنينة كاملة شاملة . ورأيت بشكل يقينى ، انى لم اعد فى حاجة الى التفكير في ثمة حيل لأواصل السير معها .. فها هى ذى خطواتنا .. يتوحد ايقاعها .. باختيار ورضا !!

قلت بحماس وفرح : عارفه أول حاجة عملتها إيه النهاردة

بعد ما صحيت مباشرة من النوم ؟! خرجت أدور على العنوان اللى أنت اعطيتوهولى .. وبصراحة .. كنت خايف جدا ليكون مش صحيح .

اسرعت قائلة : واكدب عليك ليه ؟! أنا أكثر حاجة أكرهها فى الحياة .. الكدب !

قلت متأثرا بحماسها . ده من حظى ـ ونبقى كده متفقين .

وواصلت بود .. مؤكدة خلّة الصراحة التى تتحلى بها : على فكرة أنا شفتك من أول ما جيت وسلمت على عم أحمد المكوجى .

ـ شفتينى منين ؟!

ـ من وراء الشباك .. واتهيأ لى أنك شايفنى وحاسس بى وأنا واقفة اتفرج عليك وأنت بتشرب القهوة والسيجارة ..

ـ تصورى إن ده كان احساسى أنا كمان .

ـ ولما لقيتك بتبص كتير عن الشباك ، قلت أكيد انك قاعد فى انتظارى .. طلبت من ماما انزل اشترى شوية حاجات للبيت .. ووعدتها ما تأخرش عن نص ساعة ..

ـ اشكرك جدا على مشاعرك الجميلة دى .. لكن ليه نص ساعة بس ؟! أنت إمبارح قضيت اليوم بطوله بره البيت !

ـ اللى حصل إمبارح دى كان اول مرة يحصل فى حياتى .. إنى أخرج أزور أختى الكبيرة .. واركب الترماى رايحة جاية لوحدى .. أول مرة ماما تسمح لى بكده !

قلت وقد استثارتنى هذه المعلومة : يبقى إذن هو القدر ..

لان أنا كمان كان ممكن رحت الجامعة إمبارح وما قعدتش على القهوة وما شفتكيش ولا شفتينى ! يعنى من حظى انى زوغت امبارح من الجامعة .. وانت كمان اكيد كنت مزوغة من المدرسة !

هزّت رأسها نفيا وقد ندّت عنها تنهدة خفيفة : أنا خلاص ما عدتش باروح مدارس . بابا قعدنى فى البيت .. وممنوع اخرج إلا مع حد من اخواتى الصبيان .. وهم دلوقت فى المدرسة احيانا اصعب على ماما فتسمح لى بالخروج شوية صغيرين اشم الهوا واشوف الدنيا وارجع على طول .

لمستنى بقوة بحّة الحزن الدفين الكامن فى صوتها ، وتذكرت اجنحة الامس التى كانت طائرة ومنطلقة بها .. اذن لم يكن هذا غير رد فعل تعويضى لكتمة الجدران على انفاسها . وفكرت بأن وضعها هذا ربما يكون أيضا من ترتيب القدر كى يسهّل لى ـ لو أردت ـ الارتباط بها .. وارتسمت لى صورة تحمست لها : أن أكون أنا محررها وفارسها .. آخذها على جواد من صنع الخيال وأطير بها وننطلق معا فى كل الارجاء .. الا أننى أمسكت لسانى وخيالى : لا تتعجل ياعبد الله . فأنت طالب بالجامعة وهى لم تكمل حتى مرحلة الابتدائية .. وقد علمتنى الجدلية ضرورة توافر التقارب الثقافى والفكرى . تمهل .. وإياك أن تلمح بأى اشارة للزواج أو الارتباط .. انما انت تنشد قصة حب .. مغامرة عاطفية تبدد عنك السأم والملل .

وفوجئت بها تسألني : لكن إيه اللى دفعك تعمل ده كله ؟ إمبارح والنهاردة ؟

ـ قلبى !

قلتها بصدق وتلقائية ، وإن بدا لى إنه رد غير موفق وتقليدى .. وكان المفروض ، وانا الذى اعتبر نفسى كاتبا ومؤلفا ، أن أعطيها جوابا يدير رأسها أكثر .

قالت : ما قلتليش اسمك .

ولانى كنت معقدا من اسمى .. ذلك الاسم الذى اسمتنى به أمى أملا فى أن أظل عائشا بعد ان مات أبى وأنا لا أزال فى بطنها ستة شهور .. والذى أيضا اسمت به «خالتى جوهرة» بائعة الحجور ابنها فى بلدنا ميت خميس . وخشيت لو قلت لها اسم «عبدالله» لجفلت واصابتها خيبة أمل .. قلت مداعبا متهربا لبعض الوقت : تفتكرى ممكن اسمى يبقى ايه ؟! حذرى .

قالت باسمة بعد تردد خفيف : اسمك يمكن يبقى رءوف .

سقط قلبى ـ إذن فهذا هو ذوقها فى الاسماء .. وبدا لى اسم «عبدالله» بجوار اسم «رءوف» ثقيلا ، فادحا ، لا يغرى احدا على النطق به الا الامهات !

قلت محاولا الا اخسر المعركة : ذوقك جميل فى الاسماء . كان ياريت امى عندها ذوقك .. لكن للاسف .. المسألة لها بعد تانى .. وحكيت لها عن موت ابى وأنا فى بطن امى جنين عمره ستة شهور ثم دعائها حين ولدت ان ابقى عائشا لاعوض الاب

الذى مات .. ومن هذا المنظور اختارت لى هذا الاسم عندنا فى الفلاحين .. فى البلد .. بنفكر كده .. إنت بقى .. اسمك إيه ؟!

- اسمى فتحية .. لكن الاسم الرسمى اللى كتبنى به بابا فى شهادة الميلاد : فاطمة .

قلت وقد وجدت منفذا .. خلاص ممكن نعتبر «عبد الله» الاسم الرسمى .. ورعوف هو اسم الشهرة بتاعى .
بدا عليها الانزعاج .. وقالت : بالعكس .. عبد الله اسم حلو .. وبعدين يا سيدى ياما اسماء .. الاسم بياخد طعمه من صاحبه .

أحسست نحوها بالامتنان لقد رفعت عنى عبئا نفسيا اثقلنى لسنوات .. وتقت لأن اسمع اسمى على لسانها مرة اخرى .. غير إنها قالت وهى تتجه بخطواتها الى محل خردوات صغير : حادخل اشترى شوية حاجات .. وبعدين ارجع البيت على طول .
- بالسرعة دى .. مش معقول .
- معلهش .. أنا وعدت ماما .. وبعدين أنت ما تعرفش اخويا الكبير ممكن يعمل إيه لو عرف انى خرجت لوحدى .. من غير اذنه .. أقل ما فيها - يمنعنى - من الخروج شهر .. ده غير الاهانة والضرب (وبدا عليها التوتر فجأة واطل من عينيها شعور أقرب إلى الرعب وقالت :

ـ شفت واحد من اصحاب اخواتي . يا رب ما يكون شافنا .

كفاية كده المرة دى أرجوك .

وانفلتت الى داخل المحل .

وفكرت أن امتثل لرجائها وامضى مبتعدا ، ولكن كيف ونحن لم نتفق على موعد نلتقى فيه ! ظللت واقفا ارقب خروجها ، غير أنها حين خرجت ، لاحظت أنها لمحتنى ومع هذا فقد تصرفت وكأنها لا تعرفنى . حولت نظرتها بسرعة عنى ومضت بخطوات مستقيمة وكأنما ألف عين ترقبها !! التمست لها العذر .. قلت لنفسى : يجب أن اتحلى معها بالصبر .. وبالنفس الطويل .. ثم لماذا القلق وبيتها معروف .. والمرصد موجود .. جلستى على الرصيف أمام محل عم أحمد المكوجى !

وجدت نفسى وحيدا . خليطا من الاسف والسعادة ، الا أننى فكرت : يجب الا أكون طماعا .. ان ماحدث اليوم لهو انجاز عظيم .. يكفى نزولها من أجلى .. والأعظم تصريحها بذلك .. انها غامرت لكى ترانى رغم كل المحاذير ! أين أنت الآن يا عاصم النبراوى لاحكى لك ما حدث لابد انه الآن فى الجامعة .. فلأنطلق إليه .

وانطلقت ..

غير أن الاحداث كانت تضمر لى شيئا آخر تماما .. فقبل أن أصل باب الجامعة إذا باحدى المظاهرات تقابلنى .. وإذا بالذى يقودها .. محمولا على الاكتاف ، هو زكى مراد الأسمر

النوبى .. فانتقل لى الحماس على الفور ودخلت المظاهرة .. ولم يمض بعض من الوقت حتى كنت مقبوضا على مع زكى مراد وآخرين .. وملقى بنا فى القسم وتمنيت لو أنها تعلم بهذا الذى حدث لى .. نعم يا عزيزتى ، فأنا لست صعلوكا متبطلا لا يجيد غير التهرب من الجامعة والجلوس على المقاهى والنواصى .. بل أنا إنسان مناضل من أجل حرية الوطن واستقلاله .. كما أننى ايضا اكتب القصص القصيرة .. وقد كتبت قصة اسمها «الذئب» حكايتها غريبة سأحكيها لك يوما . لكم أتمنى الآن لو يكون معى ورقة وقلم وأسجل خواطرى مناجيا طيفك .. انهم يطاردون الحب يا حبيبتى ، فقد كان المفروض أن نكون الآن معا .. نمضى هونا فى الشوارع ، نتنفس نفس الهواء ، ونرى نفس الأشياء ، ويعبر كل منا للآخر عن فرحته .. لكن الوحوش يأبون هذا علينا .. ولماذا ؟! لأنهم لا يريدون للعالم أن يسوده الحق والعدل والجمال والحرية انهم لا يعبأون الا بالاحتفاظ بمصالحهم ومكاسبهم الكبيرة فيبقى الفقير فقيرا ويزداد فقره .. والغنى غنيا ويزداد غناه !! فهل ترضين بهذا يا حبيبتى ؟! لا أظن .. فأنت مقهورة مثل وطنك المقهور وتتمنين لو تتحررين .. فماذا لو تحررنا معا ؟!

كنت اجندها بالخيال ، بمثل ما جندت أنا من قبل .. وفكرت أنى أعيش فصلا حيا رائعا من قصة أو رواية على شاكلة «الأم» لجوركى .. وهمست لزكى مراد برغبتى الجارفة فى الكتابة .. فتهلل وجهه فرحا لكنه حذرنى من ان يجدوا معى دليلا أو قرينة على هويتى النضالية . وأردف : فلنكتب على

صفحات القلب وما يكتب بنبض القلب يصبح أبديا فى الذاكرة !

* * *

ولأنه لم يكن فى تلك الفترة بالذات أحكام عرفية ، فقد حظينا نحن المقبوض علينا بأعظم ثمار الحكم الدستورى الذى يفرض الالتزام بتطبيق القانون العادى !! لقد نقلونا فى اليوم التالى الى محكمة مصر لعرضنا على النيابة ولم يأت المساء الا وكنا طلقاء أحرارا فى شوارع المدينة .. واذا بى أجد طيفها يرافقنى .. ونسير معا بايقاع واحد وفكرت بأنه لو لم يكن الليل قد هبط والظلام حل ، لمررت ببيتها ، ولوقفت قليلا على الناصية أمام النافذة . وطار بى الخيال .. ورأيتها تهبط متسللة إلى فى الظلام لايرانا أحد فى العالم .. وأخذها من يدها ونمضى ـ بلا كلام ـ إلى شقتى .. أنا وهى وحدنا .. ومع هذا لا مساس أشكرك على ثقتك فىّ أيتها العزيزة وانك لفى الحفظ والصون» .. وأحكى لها عما حدث لى منذ تركتها بلا ميعاد !! وانتبهت فجأة إلى أنى أحلم .. فابتسمت ساخرا من نفسى : إنها تعمل ألف حساب للسير معى فى وضح النهار .. فكيف تخرج لى .. لو رأتنى .. فى جوف الظلام ؟!

● ● ●

جاء صباح اليوم التالى واذا بالعالم يبدو وكأنه وجه وليد بكر جاء الى الدنيا بعد عصور طويلة من البرودة والعقم ! وتأكد لى وأنا جالس بمرصدى العجيب على الناصية أشرب

فنجان القهوة واتحدث مع الرجل الاشيب الطيب ، بينما عيناى على خصاص النافذة المغلقة ، تأكد لى أن نظرية ارسال الذبذبات والتقائها بين الاجساد رغم بعد المسافات صحيحة .. إذ لم البث أن رأيتها تخرج من البيت وهالة من الفرح والاشواق تسبقها .. لابد أنها كانت واقفة خلف النافذة على أمل مجيئى .. ثوانى ولحقت بها بعد أن عرجت الى حارة صغيرة لنتستر بها .. ولاحظت ان فرحتها وحماستها يشوبهما الاضطراب .. وكانت هى البادئة بالكلام .

ـ يومين وأنا مستنياك .. ولما مِا جتش خفت لتكون زعلت منى عشان سبتك بطريقة مش لطيفة .. لا اتفقنا على ميعاد ، ولا حتى قلت لك سلام .. ومن ساعتها وأنا زعلانة من نفسى !

يالسماحة الوجه والروح .. قلت بإحساس من الشكر والامتنان : بالعكس أنا مقدر ظروفك جدا . ولولاّ أنى مريت اليومين اللى فاتوا بظروف صعبة شوية كنت جيت لِك تانى يوم فى نفس الميعاد .

ـ ظروف إيه ياترى .. خير أن شاء الله ؟

ـ خير طبعا .. وكان أجمل ما فيها انى افتكرتك وأنا بامرّبها .

ـ إزاى .. إحكيلى .

لكأنها تعرفنى واعرفها منذ فتحنا عيوننا على الدنيا .. وكنت فرحانا أن لدى موضوعا عظيما ومثيرا سأحكيه لها . عيناها اللامعتان الشهيتان يطل منهما الشوق لتلقى المعرفة .

ـ بعد ما كنا مع بعض آخر مرة ، طلعت على الجامعة ،

قابلتنى مظاهرة وفيها اصدقاء .. دخلت فيها .. بعد شوية حاوطونا العساكر والمخبرين وقبضوا على عدد كبير منا .

يا للتفتح الذى أضاء به وجهها ، وثمة توق وشوق هائلان أحسست بهما يضجان فى صدرها ، وقالت بانفعال : دى حاجة جميلة جدا . حاجة تفرحنى . أنا مرة شفت فيلم فيه مظاهرة وأعلام وناس شايلة ناس بتهتف . قعدت أعيط م الفرح .

بدت بالفعل إنها على وشك البكاء .. تملكتنى رغبة جارفة أن احتويها وأقبلها وأطير بها فرحا .. وخطر لى أن أخبرها ..بمزيد من الأسرار عن تجربتى الجديدة فى عالم التنظيمات السرية التى ارتبطت بها حديثا .. لكننى امسكت .. لا يصح أن تجرفنى العاطفة وابوح بما لا يصح البوح به . ذلك لو حدث خروج على العهد .

لم يأت بعد أوان البوح !

قلت لها : عندى كلام كتير عايز اقولهولك .

قالت بلهفة : قول . أنا سامعاك كويس .

قلت بحماس : إيه رأيك . نقعد فى كازينو على النيل ونتكلم .

- كازينو ؟! .. مستحيل !

- ليه مستحيل ؟!

- أنا مش قلت لك ظروفى ؟!

- أخوك يعنى ؟!

ـ إنت مستهون بيه . إنت ما تعرفش ممكن يعمل فى إيه مرة جز لى شعرى عشان خرجت من غير إذنه .

توقفت وقد اصابتنى دهشة ممتزجة برغبة فى الهجوم والعدوان لو رأيته أمامى .

ـ للدرجة دي ؟! ده يبقى تخلف . رجوع للعصر البدائى .. ما يصحش تسكتى له .. مهما كانت النتيجة !

ابتسمت بمرارة : النتيجة إنى أهرب من البيت . وادور لى على ناس تانيين اعيش معاهم . ماما كانت تقع من طولها ميته !

كلبشت يدى على يدها ، وقد خفت أن تنفذ نصيحتي وتتمرد بهذه الصورة فتضيع هاربة ولا أجدها بعد ذلك .. هدأت من لهجتى .. معلهش .. كل شىء بيتغير لو حطينا فى دماغنا اننا نغيره . ومش بس على المستوى الشخصى . على المستوى العام كمان .. مستوى الوطن كله . احنا حياتنا كلها لازم تتغير .. الأوضاع فى مصر كلها لازم تتغير !

مازلت أذكر نظرتها .. فرحتها .. كأنما عثرت على شىء نادر لا يصح أن يضيع منها .. كانت نظرتها أو طلعتها .. تقولان: قول كمان .. قول .

وجرى على لسانى القول : فيه قصيدة جميلة لشاعر اسمه ناظم حكمت .. بيقول فيها :

أجمل الايام هى التى لم نعشها بعد ..
وأجمل البحار هى التى لم نرها بعد ..
وأجمل الأزهار هى التى لم تنبت بعد ..

وأجمل الأطفال هم الذين لم يولدوا بعد ..

صاحت وقد بدا عليها الوجد : الله . الله . اكتبها لى . القصيدة دى أرجوك قصيدة زى دى ممكن تغير مصير الانسان .. قلها لى من تانى !

كنا نحن الاثنين قصيدة لا تقل جمالا عن القصيدة التى رحت اعيدها عليها مرة ثانية ، وقد فقدنا الاحساس بالمكان وبالزمان .. نحلم بالمكان وبالزمان اللذين لم يأتيا بعد !! وكنا - دون أن نعى - قد خرجنا من حوارى وأزقة السيدة زينب .. كما اخترقنا سوق الخضراوات وتجاوزناه إلى ساحة واسعة تشبه الميدان .. وكنا كلما ابتعدنا ، ملنا الى الالتصاق اكثر ببعضنا .. كنوع من الاحتماء .. كانت تلتمس من قربى الأمان .. كنا نسير كالمنومين .. وأننا مادمنا معا فلاشىء يهم .. ظللنا نسير ونسير حتى وجدنا انفسنا امام قطعة ارض فضاء فسيحة .. استرحنا لقلة المارة وندرة الحياة الانسانية فيها .. تمنيت من اعماقى لو يخلو العالم من جميع البشر .. إلا منا .. أنا وهى .

وإذا بالأمنية تتحقق على نحو عجيب غير مألوف ، فقد طالعتنا فجأة منطقة مقابر يحيطها سور حجرى متهدم فى بعض النواحى . ما أروعه مكانا للتوحد والاستخفاء !! وبلا اية كلمة دخلنا .. مضينا نسير .. أو قل نخطو .. خطوة خطوة .. اليد فى اليد .. بين شواهد القبور . صمت عميق عميق .. وبحر من ضياء .. والشمس كاشفة لكل شىء حتى ذرات

التراب والحصى ، ومع هذا فنحن مستوران وفى مأمن !! إنها للحظة نحن لم نصنعها .. بل القدر هو صانعها .. أو هو حنين القلب وتوقه الطاغى للتوحد والامتزاج وانها لحظة بطبيعتها لن تدوم طويلا .. واذن .

اذن ماذا ؟! هاهى ذى الشواهد تحيط بنا .. وتشهد علينا .. امسكت بذراعيها .. أعطيها الثقة والشجاعة .. واحسست بها تترك لى ذراعيها باستسلام ورضا .. وتسارعت دقات القلب . نظرت فى عينيها : الموتى سيحفظون سرنا ! وفى اللحظة التى امتزجت فيها نظراتنا ، كنت احيطها بذراعى واضمها إلى صدرى .. كيف يمكن وصف لغة العيون التائقة الظامئة .

أيها الرضا .. أنت الذى تمنح للحب صدقه وروعته . والتقت الشفاه ..

تعلن مولد حبنا .. على أرض الموتى .. بين شواهد القبور .

٤

مغامرة مع سارق البنك الأهلى

استيقظت فى الصباح ، وقبل أن أفتح عينى ، وأنا بين الصحو والمنام ، مددت ذراعى متلمسا كالعادة دفء جسدها المخامر وهى تحتضن طفلنا الحبيب داخل صدرها ، إلا أن الخاطر لم يدم غير برهة ، فقد أحسست بثمة أوجاع تسرى فى عظامى ، فتحت عينى واذا بى فوق منامتى الأرضية ، وجدران الزنزانة وسقفها تحاوطنى وتطلّ علىّ من كل الجهات . انقبض قلبى لدرجة التهافت والتآكل !! وتذكرت وأنا أرى زملائى الأربعة ممددين أو متكورين فوق مناماتهم الأرضية مستغرقين فى نوم عميق ، تذكرت ليلة الأمس وكيف انتصرنا على أول ليلة لنا فى السجن بالحكايات وبالذكريات . وكنت فى قمة سعادتى وأنا أحكى لهم الفصل الأول من قصة حبى .. وقد حكينا وسهرنا ونمنا فى وقت واحد ، فلماذا استيقظت هكذا مبكرا جدا ؟! إنه لشىء رهيب أن تلازمنى عادة الاستيقاظ مبكرا وأنا فى السجن ، إذ بسببها يصبح طول اليوم يومين !! هذه العادة لو بقيت معى يمكن أن تورثنى الجنون أو الانهيار . أبدا .. ففى هذه اللحظات بالذات ، لحظات البكور ، كنت طوال عمرى أعيش اجمل وامتع لحظات يومى .. منذ الطفولة ، وأنا انطلق كل صباح على جسر النيل ،

وعيناى فى اتجاه الشرق ملهوفا على رؤية قرص الشمس الوليد وهو يطل بلونه الأرجوانى على الوجود . ثم وأنا كبير .. طالب فى الثانوية بالمنصورة ، أو فى الجامعة بالقاهرة .. أجوب الشوارع وأملؤها أحلاما وصراخا وهتافا وأحزان صعلكة وضياع .. ثم بعد ان احببت وتزوجت الى ما قبل القبض علىّ ، كنا نحن الثلاثة ، أنا .. وهى ، وإيهاب طفلنا .. نخرج فى البدرية الى منطقة الجناين المطلة على نهر النيل .. منطقة الجزيرة التى اكتشفتها أيام الصعلكة والضياع ، ومعنا إفطارنا وعدة الشاى والقهوة .. نتمرغ بجلابيبنا على العشب ضاحكين ، ونلعب مع الصغير لعبة الاستخفاء خلف جذوع الاشجار . ونعلمه أسماء الاشياء .. وكذلك صداقة الطيور !! هذه اللحظات بالذات ، لحظات البكور ، والتى اعتقد إنها أصل ونبع حسى وعشقى للحياة ، وانها هى التى تقيم فى نفسى التوازن بين ما فيها من جمال وقبح . وخير وشر .. هذه اللحظات بالذات ، ترتبط فى حياتى بالطبيعة .. وبالذات بالماء والخضرة . وحين اصطحبتها أول مرة بعد أن تزوجنا .. الى قريتى لتتعرف على ارض مولدى ومنبتى ، كان اول صباح لنا ، أن انطلقت بها الى جسر النيل واستأجرنا قاربا صغيرا .. ومضينا ندور به حول تلك الجزر الصغيرة المتناثرة .. نجدف حينا ، ونجرى على الرمل أو نخوض باقدامنا الحافية فى المناطق الضحلة حينا آخر . وكان معنا طعام افطارنا الشهى الذى جهزته لنا أمى .. و ..

يا الهى .. يحسن ألا استغرق فى تذكر تفاصيل صور

سعادات تلك الايام واللحظات حتى لا أصاب بالهلع وبالتعاسة مما أنا فيه !

كيف سيمكنني احتمال هذا ، والله وحده يعلم كم من السنين سأقضي في هذا الجب أو المصيدة الاسمنتية الرهيبة ؟!

انتفضت واقفا ادفع عني موجة يأس سوداء أحسست بها تكاد تغرقني وتكتم انفاسي .. واتجهت عيناى الى النافذة بمربعاتها الحديدية ، والتى كان الصبح الوليد يطل منها .. فلأتسلق الحائط وأمسك بالمربعات وأنظر من خلالها .. اطمئن إلى بقاء العالم ، وكذلك أرى التلّ الذى كانت هى تقف عليه بالامس في الغروب وتنادى علىّ !! وخطر لى .. ماذا لو فعلتها وجاءت الآن .. فى هذه اللحظة ليس هذا بكثير عليها .. لولا ظروفها فى البيت ، ووجود الدكتاتور الأعظم .. اخيها .. لجاءت .. وصعدت على التل ونادت !! وتشبثت بالصورة .. لو إنها جاءت حقا وفعلتها ، لاستيقظ العنبر كله على ندائها ، ولقفز الجميع وتسلقوا الحوائط كالقرود الفرحة المتحمسة ومضينا جميعا نلوح لها بالأيدى من النوافذ !!

أيه يا قلب .. ما بال الروح تعود بتذكرها .. وانني لا استدعيها بالخيال إلا وتلوح لى بوجهها الباسم .. وسنتها الأمامية المكسورة التى ـ ويا للغرابة ـ تشع جاذبية وخفة دم وبساطة !! كيف ؟! كيف قررت ذات يوم أن اتخلص منها . واخرجها من حياتى ؟! يوم رحت احسب الموقف وفق المنطق

العقلانى الجدلى الذى خيل لى فى تلك الايام انى اكتسبته ، وبناء عليه كان قرارى بانها لا تناسبنى .. فهى لم تنل حتى شهادة الابتدائية .. فكيف يحدث بيننا التوافق ؟! .. ثم .. وقبل أن انهى اليها قرارى ؟! اذا بذلك الخطاب الذى وصلنى منها وأنا فى ميت خميس اقضى فترة من اجازة الصيف ، وما أن فتحته وقرأته حتى وجدتنى أمام شىء باهر كالمعجزة .. لكأنى أمام واحدة من تلك الانفجارات الضوئية أو البركانية الصادرة من أعماق خفية مجهولة فقد فوجئت بها وقد كتبت الرسالة على شكل قصة موضوعها : ما هو أجمل شىء فى الحياة ؟! .. كان يا ما كان .. فى احد البلاد ، رسام يعيش مع زوجته التي يحبها ، وطفله الذى انعمت به الحياة عليهما وفى أحد الايام وجد نفسه وقد اصابه الزهق والملل من كل شىء .. حتى عن الرسم .. فيترك خلفه البيت والزوجة والطفل ويهيم على وجهه باحثا عن شىء جديد يرسمه ويعيد إليه الروح . كان يبحث عن أجمل ما فى الحياة ليرسمه .. لكنه وقد كاد يصل إلى نهاية العالم ورأى كل الاشياء وجرب جميع اللوحات لم يجد للاسف ما يبحث عنه .. فقرر أن يعود وقد أحس فجأة بالشوق واللهفة لان يرى زوجته الحبيبة وطفله الذى خرج من صلبه .. وحديقته الصغيرة التى زرعها معهما واكلوا من ثمارها !! وما كاد البيت يلوح له على البعد ، حتى احس بقلبه يخفق بقوة وهتف من اعماقه فى سعادة : ليس أجمل من بيت الانسان .. لوحة يرسمها .. لقد كان يعيش السعادة ، ولكنه لم يكن يحس بها .. واخرج لوحته وريشته

والوانه .. ومضى يرسم بحماس وسعادة .. «بيت الحب أجمل ما في الحياة» .

لحظتها تولتني .. فرحة مختلطة بدهشة : كيف لفتاة تكاد تكون أمية ، يشهد على ذلك شكل حروف كلماتها الشبيهة بنبش الفراخ والمليئة باخطاء نحوية فادحة ومضحكة كيف ومن أين تأتى لها ذلك الخيال القصصى البديع ، وذلك التدفق الحار والمنهمر في التعبير ؟! لقد بدت لى حينذاك مثل ذلك الجان او العملاق الذى كان محبوسا في قمقم ثم واتته فرصة الانطلاق ! .. وفكرت لحظتها .. هذه الفتاة الصغيرة التى حرمها أبوها من التعليم ، ما أروعها لو تعلمت وقرأت ، يقينا سيمكنها فعل المعجزات .. وهل انسى إننى - قبل السجن - لم أكن أنام كل ليلة الا على حكاياتها ، وكانت هى سعيدة بذلك وكانت تجهز لى الحكايات قبل موعد نومى .. كانت اروع من شهرزاد ، وكنت أنا أعظم من شهريار !! حمدا لله انى لم أبلغها ذلك القرار الاحمق الجهول بانهاء علاقتنا .. ياللخسارة الفادحة التى كانت ستصيبنى ، لو كنت اخرجتها من حياتى ! .. واحتويتها .. بل هى التى احتوتنى .. كانت تجد فىَّ مخرجها إلى الحياة ، وكنت أنا أجد فيها مدخلى وسبيلى إلى حياة الراحة والاستقرار بعد طول التشرد والتيه والاغتراب ، وبهذا استطعنا أن نحقق نوعا انسانيا فريدا من التوافق ، أو قل التكامل .. وبنينا معا بيت الحب !! الشقة الصغيرة التى كنت اسكنها وأنا طالب مع اثنين من اقاربى ، اصبحت هى عشنا بعد أن تنازلا لى عن عقد ايجارها .. ويوما

بعد يوم ، وبلمساتها هى بالذات ، أصبحت عشا للحب يغرى أعظم رسام برسمه !

هاهم الفيلان قد اقتحموا العش وهدموه .. ولم تكن هذه اول مرة يفعلونها .. جاءوا قبل ذلك مرة ولسبب غريب جدا ما كان يمكن أن يخطر لى ولها على بال .. فهم لم يأتوا بحثا عن منشورات أو مطبوعات سرية تدعو لقلب نظام الحكم بالقوة .. وانما بحث عن لص خطير هارب من السجن لارتكابه جريمة سطو على البنك الأهلى ، وكان بالفعل مختبئا عندى ، بعد أن ذهبت ـ بموجب رسالة سرية وصلتنى من التنظيم ، وتسلمته من مكمنه الذى لجأ إليه مباشرة بعد هربه من السجن .. دون أن اعرف عنه اى شىء سوى إنه رفيق مناضل مطارد ويحتاج إيواء مؤقتا .. يا اهلا وسهلا .. وبروح المغامرة التى كنت سادرا فيها تلك الأيام تقبلت المهمة ، واصطحبته إلى بيتى فى جنح الظلام !!

غير إنه ما كاد يستقر فى شقتنا ويستعيد هدوء أنفاسه ونظراته بعد أن أتم مغامرة هروبه الخطيرة بنجاح ، حتى راح ، وهو يشرب كوب شاى صنعتْه له فتحية ، يحكى لنا بسعادة ، بعض تفاصيل قصته وهو يحسب اننا نعرف حقيقة شخصيته : لص البنك الاهلى الذى ظلت جرائد مصر كلها لعدة أيام تتحدث عن جسارة فعلته التى قام بها فى عز وضح النهار !! وابتلعت صدمة معرفتى لهذه الحقيقة الخطيرة التى رأيتها ـ بحسى القانونى ـ تهدد وضعى الاجتماعى وسمعتى كمحام ، لو انكشف الوضع وقبضوا عليه عندى . ولسوف

يقبضون عليَّ أنا ايضا متلبسا باخفاء مجرم هارب من حكم .. بالوضاعة التهمة !! إلا أننى استعدت سريعا هدوء نفسى وكذلك روح المغامرة .. وفكرت بأنهم لابد فى «التنظيم» قد حسبوا لكل شىء حسابه .. وأن أمانى وأمانه لابد متوافران مائة فى المائة . إن الذين يخططون لثورة شعب ، لن يخونهم ذكاؤهم فى التخطيط لتهريب وإخفاء رجل من هذا النوع . ونظرت إلى زوجتى بابتسامة فردت هى الأخرى بابتسامة أجمل خففت عنى القلق .. أحب فيها الثبات وجرأة القلب .. وتولانى الشعور بأنى أقوم بفعل أو مغامرة خارقة للمألوف لاتقل خطورة وأثارة عن أحداث الافلام الأجنبية وروايات الجيب وبهذه الروح اندفعت فى المهمة ، سعيدا بأن الرفاق الموجودين فى ليمان طره ، هؤلاء الكوادر الكبار العظام . اختارونى أنا بالذات لمثل هذه المهمة المحفوفة بالخطر ، اعتمادا على انى محام وعلى دراية بالقانون وأكثر من غيرى قدرة على التصرف فى مواجهة الاحداث ! .. كان التناقض بين موقفى وموقفه واضحا وداعيا للتامل والسخرية . فأنا محام وهو حرامى .. وانا رجل نظريات ومبادىء ومكافح سياسى ، وهو عضو محترف ومدرب فى عصابة سطو دولية !! ولم يلبث ان اتضح لنا الجزء الاكثر غرابة واثارة فى قصته : إن الرفاق فى السجن قاموا على مدى اكثر من عام بتجنيده وتربيته سياسيا لكى يصبح شيوعيا ، لم لا ، والنظرية تقول بأن الشعوب زاخرة بالمعادن الكريمة وان غطتها الاوحال والمستنقعات . وما على الغواص العظيم الا اكتشافها

والتقاطها وغسلها من الاقذار !! وهو من جانبه ـ بذكائه وخياله الحاد ـ تقبل المحاولة وغذاها .. أو . ربما هو الذى واتته الفكرة وصمم لها واغراهم بها فما اعظم أن يتحول من لص طريد ومدان اجتماعيا إلى مناضل من أجل تغيير الوطن بل والعالم كله الى الأجمل والأعظم !

كان وهو يحكي لنا تبدو عليه السعادة الغامرة .. انه يولد من جديد .. ولسوف يبدأ حياة جديدة يكفر بها عن ضلالته الأولى : وفهمت منه انه سيتولى مسئولية انشاء مطبعة جديدة للتنظيم بدلا من تلك التي وقعت فى يد البوليس فى الضربة الأخيرة .. وأن لديه خبرات في ذلك !! وازددت تقديرا له .. ما اعظم أن يتمرد الانسان على قدره ، ويصنع لنفسه قدرا جديدا . راقيا ونبيلا !!

كانت بشرته ميالة إلى السمرة .. لطيف الملامح .. طويلا عريضا متين البنيان .. متانة تغرى صاحبها بأن يوظفها في شيء مهم وخطير يرفع من شأنه ووضعه فى الحياة ! كما أن قدرا من الصلع كان يغزو رأسه وفكرت ان ذلك ربما قرين للذكاء وللعبقرية .. كما لاحظت عرجا خفيفا فى مشيته .. وسرعان ما عرفت سبب العرج وهو يجيب على سؤالى الفضولى .. كيف استطاع الهرب ؟! لقد انتهز فرصة ترحيله من سجن طره إلى سجن الاستئناف الكائن فى باب اللوق ليحضر إحدى الجلسات فى دعوى الاستئناف المرفوعة منه ورسم خطة للهرب لقد تمكن من نشر حديد نافذة الزنزانة

بمنشار دقيق دخل له فى قلب «شمّامة» مع وجبة طعام مع احد اصدقائه او اقاربه الذين يزورونه بين الحين والحين .. كانت زنزانته بالدور الثانى .. وبعد أن أتم نشر الحديد على مدى ليلة بأكملها ، أبقاه هيكلا قائما على شعرة .. ثم .. وقبل أن يتنفس الصبح والحرس الساهر قد سقط فى جب النوم العميق ، ازاح الحديد وتدلى من النافذة وانزلق بمهارة الى الأرض فالتوت قدمه .. كان ذلك اخف خسارة يمكن أن تصيبه ، وانطلق هاربا يعرج فى شوارع المدينة وحواريها ، حتى وصل الى ذلك البيت الذى اختفى فيه سحابة النهار ، ثم فى أول الليل ارسل لى ذلك الشاب المجهول برسالة شفهية ـ يطلبنى للقائه !!

أكان يمكن أن أهمل الرسالة ولا أذهب ؟! ليتنى فعلت هذا وكنت لحظتها عائدا من مكتبى الكائن فى ميدان السيدة زينب ، وعلى وشك أن أغير ملابسى واجلس بين زوجتى وطفلى ، الا ان ملامح الشاب وهو يبلغنى الرسالة . أوحت لى بأن ثمة انسانا فى محنة ويستنجد بى .. استيقظ بداخلى على الفور ذلك الحس المغامر النابع من ارتباطى بتنظيم كفاحى سرى يمر بفترة صعبة !! قد يكون زميلاً فى مأزق .. أو حاملاً لرسالة بها تبليغات أو توجيهات خطيرة ! وهرعت إليه .. واذا به يقدم لى رسالة صغيرة جدا .. بامضاء : «العائلة» .. وهو الاسم الرمزى للمجموعة الموجودة فى سجن طره .. يوصوننى به خيرا .. من أجل مصلحة النضال فى هذه الفترة الحرجة ! ولم أناقشه لحظتها فى أى شىء ـ لم يكن

امامى الا أن اكون شهما .. رجل نجدة .. بسطت له ذراعى مرحبا باستضافته المؤقتة .. واصطحبته الى بيتى متسترين بالظلام !

تراني خدعت ؟! ومن كان الخادع الحقيقى ؟! هو .. أم الرفاق الذين عاشوا معه ذلك الحلم الرومانسي النبيل : تحويل لص بنوك دولى ، الى رفيق وثائر أممى !!
هاقد انتهت القصة المثيرة والغريبة ، وكأنها لعبة كانت .. أو سهرة من سهرات المسرح أو خيال الظل !! فقد قبض عليه بعد فترة قصيرة وأعيد الى ليمان طره . وأنا .. قبض علىّ أيضا .. ولكن فى قضية أخرى ـ سياسية والحمد لله ـ متهما بالانضمام الى منظمة سرية تدعو الى قلب نظام الحكم بالقوة !

أغمض عينى واسترسل فى الذكريات .. ليس فقط لقتل الوقت ، وانما أيضا لاكتشف الحقيقة . حقيقة هذا العالم الخفى الغريب .. عالم التنظيمات السرية الذى بدأت تتكشف غوامضه واسراره داخل السجن : هل كانوا على حق حين شرعوا فى تجنيد رجل مثله .. أم انهم كانوا يلهون فى السجن ويلعبون لعبة الاحلام بخلق جديد للبشر ؟! ان التفكير بتحويل اللصوص والبغاة والبغايا الى ابطال وقديسين وقديسات لهو أمر مغر ومشروع .. وما مسرحية سارتر الشهيرة : المومس الفاضلة ببعيدة !! ومازلت اذكر فى تلك الليلة التى قضاها ببيتى ـ كيف راح بظرف يعرض علينا قدراته على التخفى ـ حين طلب بيضة مسلوقة وقشرها ثم التقط جزءا صغيرا من

غشائها المرن الرقيق وغطى به انسان عينه اليسرى .. فاذا بها منفلقة تماما .. وأصبح بعين واحدة :أعـور !!

ونظرنا اليه .. باعجاب وانبهار ! .. لقد بدا لنا شخصية خلاقة وشجاعة وذات خيال .. وفكرت : ما أعظم ان تضم الحركة الثورية فى بلادنا كل النوعيات .. والفئات .. كل بقدراته وامكانياته .. اذن فستصبح الثورة الحقيقية قريبة !

إلا اننى لم ألبث أن افقت من ذلك الحلم الرومانسى العبيط .. فقد استيقظت صباح اليوم التالى .. وقبل ان اذهب كالعادة الى المطبخ لأعد الشاى .. مررت عليه فى حجرة الصالون التى كان ينام بها ، واذا بى اجده صاحيا يدور حول نفسه بقلق وبيده جريدة «المصرى» التى تعود البائع أن يدسها لى كل صباح من تحت عقب الباب . وما ان رآنى حتى دفع الىَّ بالجريدة وقال وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة غريبة : الحكاية اتعرفت .. والجرايد نشرتها !!

اختطفت منه الجريدة .. واذا بحادثة هروبه هى العنوان الرئيسى للصفحة الأولى . كذلك فوجئت بصورته منشورة على مساحة كبيرة !! وبدا ان النشر بهذا الشكل الواضح والمثير انما هو مقصود من أصحاب الجريدة والمشرفين على تحريرها (آل ابو الفتح) والمعروفين بمعارضتهم للثورة . واعتبروها ـ قبلنا ـ انقلابا لا ثورة !! واذ أجريت مقابلة خاطفة سريعة بين وجهه على الطبيعة وصورته فى الجريدة ، استلفتتنى ابتسامته الغريبة البعيدة على شفتيه .. وفكرت انه

سعيد من اعاقة بنشر صورته على هذا النحو الذى يجعل منه البطل الذى سخر من سجون الثورة ، ومن وزير داخليتها فى ذلك الوقت : البكباشي جمال عبد الناصر :

ورأيت عينين نفاذتين برموش ثقيلة تنظر الىَّ نظرة متوعدة رهيبة ادركت على الفور ، بحس السياسى والقانونى والروائى ايضا ، انهم لابد واصلون اليه ، وفى أية لحظة من الآن يمكن ان افاجأ بهم يدقون على الباب .. واذن لابد من الاسراع باعداد خطة لتهريبه اذا جاءوا !!

وما اعظم ما ترتبه الاقدار احيانا .. هذه النافذة البحرية فى حجرة نومنا الصغيرة ، والتى كنت أضيق بانها تطل مباشرة على منور سطح المنزل الملاصق لمنزلنا من الخلف !! وأخذته اليها : اسمعنى جيدا .. هذه النافذة يمكن أن تكون مخرجك الوحيد لو جاءوا .. ولهذا سنتركها دائما مفتوحة .. وماعليك اذا سمعتهم يدقون على الباب إلا أن تسرع وتقفز منها قفزة لابد من ان تكون هائلة تعبر بها فتحة المنور وتصل الى السطح . إنها قفزة الحياة أو الموت .. ما رأيك ؟! ليس من مخرج لك غيرها !

ولمعت عيناه وابتسم : اطمئنا تماما .

ويالها من لحظة لا تنسى .. وكنا أول الليل .. حين طرقت اسماعنا المتحفزة دقات خفيفة على باب الشقة . ومن خفيف الأقدام أيقنا انهم .. هم !! التقت نظراتنا نحن الثلاثة .. لا يصح أية لحظة ان تضيع .. ونظرت اليه مشيرا باصبعى فى اتجاه النافذة فانبطح على الأرض ، زاحفا ببطنه حتى لا يروا

شبح هيكله الضخم من خلف زجاج شراعة الباب . وفى غمضة عين كان قد اندفع كثعبان مجنح من النافذة وقفز قفزة هائلة فوق المنور .. واذ لم نسمع صيحة الم أو صوت ارتطام جسد بأعماق أرض المنور .. قدرنا إنه نجح وعبر ! اسرعت فأغلقت النافذة خلفه مطمئنا لعدم وجود أى أثر لقفزته . ثم ذهبت الى الباب وفتحته بهدوء شديد .. مخفيا سعادتى ، ليس فقط لانى بنجاحى فى تهريبه حافظت على الامانة التى سلمها لى التنظيم ، وإنما ايضا لأنى نجوت من عقوبة جنائية مؤكدة .. ولكن .. يا فرحة ما تمت .. ففى نفس اللحظة التى اندفع فيها الضابط والمجندون الى داخل الشقة وانتشروا فيها بحثا عن اللص الهارب ، اذا بعينىّ تقعان على ما جعل قلبى يسقط وأنفاسى تسرع .. يا لها من كارثة لو ان احدا منهم رأى ما رأيت !! كانت مجموعة من أوراق الهارب والتى تكشف ببساطة عن شخصيته ملقاة فوق احدى المناضد الصغيرة القريبة . واختلست نظرة من فتحية فاذا بها هى الأخرى قد فطنت لاحتمال وقوع الكارثة . ما العمل ؟! وهبط الوحى : قلت للضابط لاجذب بصره نحوى وفى نفس الوقت كنت أخلع جلبابى والقيه فوق المنضدة فاحتجبت الأوراق : أنا طبعا حاخرج معاكم . (وبلا انتظار لرده) البس بدلتى .

وشرعت بالفعل فى ارتدائها . وكنت أكاد أسمع صرير أسنان الضابط وهو يقول مرددا نفس الجملة للمرة الثالثة أو الرابعة بغيظ وغضب . بس احنا متأكدين انه كان هنا .

ـ بلاغ كاذب يا حضرة الضابط .. كاذب .

ـ ده مش بلاغ يا أستاذ .. دى معلومات أكيدة .. أنا بانصحك تقول لنا هو فين دلوقت .. انت مش عارف خطورة الموضوع والمعلومات بتقول انه متهرب مخصوص عشان يقتل رئيس الجمهورية . محمد نجيب . ومجلس قيادة الثورة كله متابع الموضوع !!

ودار رأسى .. إنها لورطة كبيرة وقعت فيها .. فالموضوع جد خطير .. ولابد انهم واضعون ايديهم عليه سريعا ، ليس خوفا على حياة رئيس الجمهورية ، فهى فكرة خاطئة تماما ، وانما لاسترجاع هيبة الثورة الجديدة ، وكذلك هيبة وزير داخليتها الجديد . الطموح : البكباشى جمال عبد الناصر ! ووددت لو أقول له : فليطمئنوا .. لقد هرب اللص وفى ذهنه حلم بأن يحيا حياة ثائر سياسى ، وليس حياة قاتل !! اللهم الا اذا كان أحد منهم يحلم بقتل محمد نجيب أو التخلص منه كرئيس للجمهورية .. وما الصراعات الدائرة على السلطة بغائبة عن الاذهان !!

لم أعلق بحرف .. كنت مشغول البال بالأوراق المختبئة تحت الجلباب ، منتظرا بفارغ الصبر اللحظة التى سيخرجون فيها وأنا معهم ، لتتصرف فيها فتحية وتتخلص منها بطريقتها الى الابد وقد كان !! الا اننى فوجئت بالضابط يقول لى بابتسامة ساخرة : ما تفتكرش ان انكارك حيحميك .. لأن الشاهد على انه كان مستخبى عندك موجود والمواجهة حتكون بينكم الليلة فى النيابة !

● ● ●



مرثية للأتحاد السوفيتى !!
زلزال هنا .. وزلزال هناك !

وهكذا وجدتني في السجن ، يلاحقني اتهامان خطيران متناقضان : الاتهام باخفاء لص وتهريبه .. والاتهام بالانضمام إلى منظمة سياسية سرية تحض مبادؤها وتعاليمها على قلب نظام الحكم .. حكم الثورة .. بالعنف والقوة !

وبقدر غضبي وقرفي من الاتهام الأول مما يحمل من تشويه لوضعي الاجتماعي كمحام ، كانت سعادتي وترحيبي وبالاتهام الثاني ، واعتبرتني محظوظا به .. فقد كان نوعا من الدفاع الحاسم عن سمعتي .. وتضاعف شعوري بالفخر أني سجين سياسي صاحب مبدأ وعقيدة !

ولقد بلغت دناءة الاتهام الأول أقصاها ، حين فوجئت بضابط المباحث يقول لي وهو ينظر في عمق عيني ليسبر أغواري ، أن هناك من يقول بأني قبضت الثمن .. ثمن اخفاء اللص وتهريبه من النقود الضخمة التي سرقها قبلا وأخفاها في مكان مجهول آمن ! ورغم أني لحظتها ابتسمت ساخرا من ذلك الاتهام الجديد ، غير عابئ بالرد عليه ، فإني شعرت بموجدة تغلي في عروقي نحو هؤلاء الرفاق الذين ورطوني في مثل هذه العملية التي كشفت عن طفولية وسذاجة في

التفكير .. كما تبخرت من نفسى تلك الهالة من التقديس التى كنت اضفيها على عالم التنظيمات السرية ، وحلت مكانها ضبابة من الشك وعدم الثقة بأى شىء .. خاصة وانه فى نفس الوقت كان قد وقع ذلك الانقسام الخطير والشهيربـ (ت . ث) أى التيار الثورى . والذى ـ باسم الثورية ، فكك وحدة حدتو وشطرها الى شطرين ، ثم انتهى بنا الى اخطر تحول فى علاقتنا بالثورة .. فمن تأييد جارف الى معارضة عنيفة وإدانة وصلت الى حد سحب صفة الثورة عنها . واعتبارها دكتاتورية عسكرية قامت ـ بدعم من الأمريكان ، لتصفية الحركة الوطنية والشعبية !! ولم تنقض أسابيع على هذا التحليل الجديد ، حتى حلت بنا الضربة الساحقة !

الآن وأنا ملقى فى أعماق الزنزانة ، ممتصا بزخم المشاعر والذكريات .. وبعد ان كنت ضائقا مختنقا بكتمة الجدران على أنفاسى .. صاحيا وحيدا بين زملائى المستغرقين فى النوم لا يزالون .. الآن بدأت استشعر جمال الوحدة وتأمل الأحداث من بعيد .

أجل .. هى فرصة لاسترجاع ما كان .. استرجعه فى السر وعلى مهل .. تجربتى مع عالم التنظيمات السرية .. فلم يحدث لى أن توقفت لحظة لأسأل نفسى عن هذا الذى يحدث ،خاصة بعد ان انقلب الوضع على نحو مأساوى واصبحت المواجهة ، بعد ان كانت بيننا وبين الملك والرجعية والاقطاع والاستعمار ، اصبحت بيننا وبين الثورة الجديدة التى بشرنا

بها ، ولم تكن دوّامة العمل السرى وتوترات مخاطره وتحدياته وتوقعاته تعطى المرء فرصة ليتوقف ويتأمل . انما هو دائما مندفع ومدفوع مثل موجة لا قبل لها بالتوقف او حتى التمهل الا إذا هدأت الرياح أو سكنت العاصفة ونام البحر !

ها قد تمت الضربة وسكنت العاصفة وهدأ موج الاحداث ولم تعد من حركة الا ايقاع حركة الفكر والخيال واسترجاع ما كان .. فأين كنت أنا من كل ذلك وماذا كان بالضبط دورى وفاعليتى ؟!!

هاهى ذى الحقيقة الجارحة والمهينة تتبلور وتزداد تأكيدا ووضوحا .. اننى كنت أمضى فى عالم التنظيمات السرية هذا ، مندفعا ومحموما ، ومع هذا مساقا أو كالمعصوب العينين .. أو باحسن التشبيهات كالجواد الذى لا يرى - وهو يجرى ملسوعا إلا ما هو أمامه !

لقد تراءى لى من أول يوم ارتبطت فيه بهذا العالم السرّى ، يوم أن أعطونى اسماً غير اسمى الحقيقى ودون أن يأخذوا رأيى فيه .. تراءى لى أن الفضيلة الأولى التى يجب أن أتحلى بها هى فضيلة الطاعة والامتثال والثقة بالقرار الصادر من فوق .. من المستوى الأعلى .. المجهول بالطبع !.. ألا أسأل كثيراً .. أن أكون رجل فعل لا رجل كلام !.. أن أحافظ على سرية ووحدة التنظيم مثلما أحافظ على حبة عينى ! ألا اقبل أية اتصالات جانبية من نفس تنظيمى .. فما بالك بالاتصال بتنظيمات أخرى .. حتى لا تحدث بلبلة فكرية تؤثر بالسلب على آليات النضال وعلى ميقات الثورة الآتية لاشك فى يوم قريب !

فهل كنت مصيباً ياعبدالله حين اندفعت إلى داخل هذا العالم وقبلت بطقوسه وقيوده والتزاماته .. أنت الذى كانت الحرية هى قضيتك الأولى .. كانت شعارك وفخرك وعزاءك .. ولم يحدث مرة واحدة فى حياتك أن أقدمت على فعل دون أن تكون مقتنعاً تماماً به أو فى مسيس الحاجة اليه ؟!

فأيّة قناعة كانت .. وأية حاجة دفعتنى إلى الارتباط بهذا التنظيم .. وبهذا العالم العاصف إلى حد الفناء والتفانى فيه ؟!

يالها من أيام حافلة غريبة ومثيرة ، تلك التى ألهبت الدماء ، وأججت الأحلام !! كانت أيام التحول .. التحول الذى يتمناه كل إنسان .. التحول الميلاد .. أن يغير حياة بحياة .. يستبدل جلداً بجلد .. تتجدد مسامه وتتسع رئتاه !!

كنت كالواقع تحت تأثير منوم مغناطيسى .. مستسلماً ومنتشياً بلذة الاستسلام .. ليس استسلاماً للسكون والركود ، بل لجموح المغامرة وجنونها العظيم .. فهاهو ذا المثل الأعلى يلوح لى .. يعطينى جواده الأبلق لأمتطيه وانطلق مع بشائر المستقبل الآتى السعيد .. وأنا فارسه .. أحيا حلماً بات يملأ علىّ نفسى !!.. ومع أنى ـ بحكم قوانين وتعاليم عالم السرية ، كنت أنطلق بجوادى هذا فى عالم الظلام .. لكننى كنت منطلقاً على ضوء النجوم .. نجوم من صنع خيالى ومثالياتى التى صفتها من مجموع قراءاتى وسماعياتى فى تلك الفترة من حياتى وحياة بلادى ، بل وحياة العالم كله ..

النصف الثانى من الأربعينات .. من القرن العشرين .. وكل مافى العالم يتهيأ لميلاد جديد .. الصرخات والمواجهات والمظاهرات وقمصان الدم المرفرفة فوق جنازات الشهداء . ليس فى بلد بذاتها ، بل فى كل البلدان .. وما أروعْ تلك الكلمة التى بدت لى كواحدة من أعظم اكتشافاتى فى تلك الفترة : كلمة : "الأممية" .. ياله من سحر غريب هذا الذى أحسسته فيها . لكأنما هى وصية وتنبيه إلى الأمومة الكونية والعالمية التى تضمنا جميعا .. بما تتطلبه من وحدة النضال الإنسانى !! ألسنا فى النهاية أبناء عالم واحد ، وأرض واحدة هى أمنا جميعا .. وطننا الرؤوم العظيم المشترك ؟!

وما أروعها من لحظات روحية عميقة ومترعة بالنشوة ، تلك التى عشتها وأنا أقرأ عن تلك الجبهة التى تكونت من مختلف الجنسيات الإنسانية لتحارب ضد الفاشية والنازية ، مثلما فعلت من قبل مع الدكتاتورية الباغية فى اسبانيا وانتصرت عليها !.. وكذلك تلك الصورة الرائعة والأخاذة التى خفق لها قلبى وأنا أتخيل الشاعر الانجليزى لورد بايرون ، يوم غادر وطنه انجلترا وسافر إلى اليونان لينضم إلى صفوف المقاتلين والمدافعين عن الحرية والديموقراطية !

إن الإنسان ليستطيع أن يخلق من نفسه كائنا جميلا رائعا .. أجمل وأروع مما هو .. حين يندفع مغامراً .. نافضاً عن نفسه ذلك الإيقاع القديم الرتيب المألوف ، ويترك لخياله الحرية أن يطير به ويجمح ويركب متن الرياح والأمواج دون

خوف من عاصفة أو طوفان ! أن ينزع عن نفسه سطوة أشباح السلف الجاثمين على نافوخنا من مئات وآلاف السنين . نبتدع للحياة صيغة جديدة .. صيغة تجدد بها الحياة نفسها وتمضى على طريق التطور .. طريق الصعود العظيم !

ولقد كان اكتشاف هذا الوعي واكتسابه ـ في حد ذاته ـ ميلاداً جديداً لي .. ومن خلاله استشعرت تلك الطاقة الهائلة من الحيوية دبت في عروقي وشملت كل كياني المادي الفكرى .. ولم أجد مجالاً أعظم لتصريف تلك الطاقة وتفجيرها من الاندفاع إلى عالم المنظمات السرية هذا بما كان يثيره في النفس من روح التحدى والمغامرة .. وبما يحيط به من هالات وطقوس غامضة مهيبة !!.. وبدا لي أن الفرصة تواتيني لأعيش أحداث قصة صراع ساخنة حية مماثلة لأحداث رواية "الأم" .. أعيشها بكل لهبها وخطورتها لأكتبها بعد ذلك قصة مصرية طويلة .. ويكون الميلاد الجديد بحق !

تلك الأيام .. كانت منعطفاً تاريخياً لجيل بأكمله .. الجيل الذى تفتح وعيه وتشكلت طموحاته وبطولاته الأولى من خلال عالم روايات الجيب ومغامراتها !! الآن لم يعد طرزان وروكامبول وأرسين لوبين هم أبطال أحلامنا ومغامراتنا !!.. أخذ حب المغامرة وركوب الخطر شكلا وطعماً آخر أرقى !!

كان طرزان يزهو بقوته الجسدية ، أما أنا فقد أضحيت أزهو بقوتي الفكرية والروحية !.. لوبين كان يستعمل ذكاءه ودهاءه ومسدسه ليسرق الأغنياء ويعطى للفقراء .. أما

نحن .. فالقضية باتت لها عندنا منظور آخر ..!! نحن لسنا لصوص مغامرين .. نسرق قصوراً أو بنوكا .. أو محلات .. نحن ثوار وأصحاب رسالة .. نحن نبغى تغيير عالم بعالم .. ودنيا قديمة بأخرى جديدة نصنعها ونبدعها مع ثوار العالم ..

واندفعت .. وارتبطت .. فماذا كان الحصاد ؟!

★ ★ ★

هاأنذا أجدنى مندفعاً للخوض فى المناطق الخطرة .. حيث عوالم تلك التكوينات السرية التى ألفيتنى فجأة عضواً فيها . أعيش وأجوس فى حناياها ، تحت الأرض ، متلفعاً بقوانين التخفى والخفاء الصارمة ، وحيث أتيح لى أن أرى واكتشف الكثير مما لا يصح البوح به !! ذلك كان القسم والعهد . إننى من أحفاد الفراعنة وأعرف جيداً معنى حلول اللعنة على من يهتك الأسرار المقدسة !! فما بالي اليوم أدخل منطقة البوح ، دون أن يكون فى ذلك نكوص بالعهد أو خوف من حلول اللعنة ؟!

لقد تغيرت الأشياء ، فى الداخل والخارج ، على نحو عجيب مذهل ما كان أحدٌ من عباقرة البشر أن يتنبأ بحدوثه بكل هذه السرعة .. وكل هذه المأساوية !!

هانحن نرى التماثيل التى أقمناها ، والأضرحة التى بنيناها لتصبح مزارات مقدسة أيام احتفالاتنا وليالى أعراسنا ، تتحطم وتتناثر أو تغلق أبوابها .. ولا أحد يزود عنها أو يجرؤ على فتح أبوابها !!

إننى الآن أقصد بالذات "الرمز الأكبر" الذى دارت حوله الأسطورة عشرات السنين .. والذى قمت بزيارة ضريحه ذات مرة ورأيت صفوف المئات الواقفين تحت المطر كي تأخذ دورها وتحظى بفرصتها التاريخية فى الزيارة .. و .. القاء نظرة !!

ها قد سمعنا بأن الضريح أغلق ، ولم تعد جموع الطوابير وفى مقدمتهم العرائس والعرسان يتقدمون فى خشوع ليفتتحوا حياتهم الزوجية والعاطفية بنظرة من جثمان بطلهم المسجّى .. والمحنّط من عشرات السنين تنبعث من حوله تلك الهالة الاسطورية الساحرة الهادئة من الضياء ، يلتمسون البركة وروح التفاؤل والأمل فى المستقبل !!

من كان يتصور هذا الذى حدث ؟! وما المعنى لحدوثه ؟! لقد تبع سقوط الأسطورة فى العاصمة الأم سقوطها فى كل عواصم البلاد الأخرى التى كانت تسير على نهجها .. دولة بعد دولة .. وضرباً بعد ضرب ، وعلى نحو متتابع سريع جعلنا نتشكك فى حقيقة ما كنا نؤمن به كنظرية وكعقيدة فوق مستوى الجدل والمناقشة !

لقد كنا دوماً نتحدث ونتغنى بحتمية التاريخ التى جعلت من انتصار الاشتراكية وسقوط الرأسمالية قانونا طبيعيا جعل أكثر من نصف دول العالم يرفع رسميا علم الاشتراكية .. ولسوف يأتى الدور على بقية عواصم دول العالم .. إنه قانون التطور الجبار الذى لا يخطىء أو ينحرف !!

فهل كنا نحلم ثم فجأة استيقظنا فزعين من الحلم العظيم ؟!

بعد أن بدا لنا أن الجذور امتدت إلى الأعماق ، والسيقان والأعمدة استطالت وارتفعت حتى بلغت عنان السماء ؟!

لقد ظل الأمر يبدو لى ، ولفترة طويلة ، أنها فرية كبرى ، أو أشاعة مدبرة خبيثة ، أن يلحق باسم "الاتحاد السوفييتى" كلمة : "سابقا" !!.. ثم حين توالت الأحداث مؤكدة أنها حقيقة ، وأنه بالفعل مات .. قضى الأب الأكبر نحبه وصعدت روحه إلى بارئها ، فكرت أن نقيم له نحن الرفاق جنازة نسير فيها بخشوع ونتبادل كلمات العزاء ونتلقاها : البقية فى حياتكم .. هذا الذى كان الغلابة والمتعبون المستعبدون يجدون فيه ظهيراً لهم .. هذا الذى نفض التراب عن تعاليم الرسل والأنبياء وجدد الدعوة للنضال حتى الاستشهاد من أجل نشر العدل والمساواة بين البشر !.. هذا الذى كان - على غير ما يشاع - يضع المادة فى خدمة الروح ، وجعل من القرن العشرين قرن هزيمة للاستعمار .. وانتصار حركات التحرر والاستقلال فى كافة قارات الأرض !.. .

هذا الذى جدد ثقة الإنسان بنفسه وبقدراته على الانطلاق إلى الأمام ، وإلى الأعلى ، فأرسل أحد أبناء الأرض "يورى جاجارين" ليدور طائراً حول الكرة الأرضية ، كما جعل من كلبة رائعة الجمال اسمها "لايكا" أول رائدة للفضاء من بنى الحيوان !

هذا الوطن الصرح .. ينهار فجأة ويتفكك وأجزاؤه تتقاتل وتأكل بعضها بعضاً ؟! كيف ؟! وما الذى يمكن أن يقال ؟!

ارحمنا ياأرحم الراحمين !

الغريب وأنا أكتب هذه المرثية للاتحاد السوفييتى ، إذا بزلزال أرضى رهيب يحدث فجأة وأنا فى شقتى بالدور العاشر .. وإذا بى وأنا على كل هذا الارتفاع أرى وأحس بالعمارة وهى تروح وتجىء . ولاح مع الرعب شبح الخراب والدمار .. ليس عبر القاهرة وحدها ، بل وأيضا مدن مصر وقراها جميعاً !!.. إلا أن المعجزة حدثت .. هى ثوانٍ وتوقف الزلزال وثبتت العمارة ولم تعد الجدران تروح وتجىء . غير أن الرعب كان قد ساد المدينة .وخرج الناس هلعين يتخبطون قاصدين الأماكن الخلوية كى لا تسقط على رءوسهم المبانى لو أن الزلزال عاد فى أية لحظة !

وياله من تزامن غريب ، أن تنطلق فى نفس الوقت شائعة تقول بأن "القيامة ستقوم" القيامة التى انبأتنا بها الأديان والكتب المقدسة .. وأن يومها قد أصبح وشيكا !!.. ياللهول .. سيقع إذن الزلزال الكونى الأكبر الذى يسبق يوم البعث والحساب . فلا تعود شمس ولا أرض ولاسماء .. يوم ينفخ فى الصور فتتفجر البحار وتنتثر الجبال وتصبح كالعهن المنفوش .. وتحدد التاريخ .. وحدده وأعلنه عرّاف .. شيخ طريقة كورى له آلاف الأتباع !! فراح الناس فى كل البلاد يعدون الأيام الباقية على يوم الهول وقلوبهم واجفة .. إلا أن

الموعد حل .. والقيامة لم تقم . لم تنشق السماء ، ولم تتفجر الجبال .. بل بقى العالم كما هو .. وحينذاك خاب ظن الأتباع في قدرات شيخهم ونبيهم ، فأعلنوا الانتحار الجماعي .. ووداعاً لهذا العالم !!

وكنت أبتسم لكل هذا من أعماقي بمرارة . فقد كان يبدو لى أن حالتنا نحن الرفاق ، قريبة على نحو ما ، من هذه الحالة .. إذ بدا لنا انه بعد زلزال زوال الاتحاد السوفييتى ، لم يعد هناك شىء باق يستحق .. وأن الكل باطل وقبض الريح !!

ثم .. يوماً بعد يوم .. وشهراً بعد شهر .. انقشع كابوس الزلزال وكذلك توابعه . وصرت أتنبه إلى أن قوانين الطبيعة الأزلية مازالت سارية وماضية بعزم فى مدارها ودورتها الأبدية الخالدة .. وأنه إذا كان الاتحاد السوفييتى قد انتهى .. إذا كان ثمة نجم هائل ساطع قد انفجر وانتثر وتلاشى .. فإن كوكبنا الأرضى مازال فى فلكه يدور .. والمجموعة الشمسية والضوئية كلها مازالت ماضية فى سمتها الأزلى الخالد الجليل !

وتراجع الإحساس بالرغبة فى الزلزال أو الانتحار .. إن الحياة أقوى وأبقى من الأوطان والنظم والنظريات !!

ومع هذا ..

وفى ضوء أى تفسير أو تبرير .. فإن الإحساس بالفاجعة ، وبذهول الدهشة يبقى : إن ثمة وطناً .. ثمة رمزاً .. ثمة ملحمة

إنسانية مجيدة .. كانت .. ثم توارت ..

كـيـف ؟!

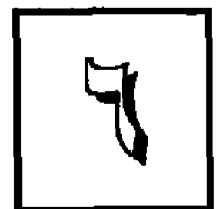
هذا هو السؤال الباقى .. السؤال الملهب الكاوى ..

من هذا الذى أطفأ الشعلة ؟!

من الذى أفرغ منها طاقاتها الإنسانية ؟!

نجلس نحن الرفاق القدامى .. نشرب فى الأركان ونتبادل نظرات وابتسامات الذهول .. وأحيانا الضحكات التى لا تخلو من علامات الجنون : أهى مؤامرة اختراق جهنمية من الخارج .. أم هى تكرار لخيانة يهوذا ..

أم من الأثنين معا : الداخل والخارج ؟!



كيف تحصل على أشبال النمر؟!

ترانى ـ إذا ـ أجد فى تجربتى التى عشتها فى قلب ذلك التنظيم الشيوعى المصرى المسمى "حدتو" ، ما يفسر تلك المأساة التاريخية التى حدثت للتنظيم الشيوعى الأكبر .. الحزب الشيوعى البلشفى السوفييتى وانتهت بوفاته ؟!

لم لا ؟! ألم يقم كلانا بحل نفسه واعلان هذا الحل على الملأ الأعلى تحت شعارات وقناعات استحدثناها واستبدلنا بها شعارات وقناعات مسيرتنا المقدسة الأولى ؟!

وقبل قرار الحل هذا ، ألم تكن هناك تصرفات وسلوكيات وآليات هى التى مهدت وقادت إليه وجعلت منه قضاءً محتوما ؟!!.. لكأنما هو تطبيق لذلك القانون الكونى الأزلى الذى يقضى بالهلاك على الكائنات اذا تسربت إليها جرثومة الفساد وتمكنت من جذورها ونخاعها ؟!

ويقفز السؤال الأخطر : هل جرثومة الفساد التى أصابتنا ، تولدت ذاتيا من داخلنا بحكم الطبيعة الخاصة لتكويننا وتركيبتنا ، وربما وفقاً لتلك المقولة الدرامية القديمة : إن البطل يحمل فى داخله بذرة فنائه ؟!

أم أنها أقحمت علينا إقحاماً ولم نستطع تفاديها أو

مقاومتها طويلا ؟!.. أم .. أنها كل هذه الأسباب .. اجتمعت وتحالفت على إحداث هذه النهاية التراجيدية ؟!

★ ★ ★

انني الآن أكتب على مستويين من الزمن : زمن لحظات التذكر وأنا فى السجن .. عقب الضربة مباشرة .. عام ١٩٥٣ .. والزمن الحالى الذى أجلس فيه الآن إلى مكتبى . عام ١٩٩٣ .. أربعون عاماً بالكمال وبالتمام .. وقد اكتملت أحداث .. وتمت دورات . أصبحت ذكريات فترة السجن ذكرى داخل الذكرى !.. لا بأس إذن إذا حدث شىء من الخلط . انني لا أكتب فقط تاريخ حياة .. وانما أيضا تاريخ عصر !!

★ ★ ★

يقول الفيلسوف الألمانى هيجل : إن تاريخ الإنسان الحقيقى ، هو تاريخ وعيه بحريته !!.. ولقد عثرت فى هذه الجملة على سر الاضاءة التى شع بها راسى ، وانا ممدد فى قاع الزنزانة ، إتأمل وضعى وأسترجع تجربتى داخل عالم المنظمات السرية !.. تراها كانت احتياجاً ضروريا ، مثلما كان الحب ضرورة ؟!.. أغمض عينى وأعود بالذاكرة إلى الوراء .. مثلما استرجعت ليلة الأمس مع الرفاق بعض أيام البداية من قصة حبى ، استرجع الآن والصبح يتنفس قصتى أو على الأقل بداية القصة مع هذا العالم السرى !!.. كيف حدث ودخلت وارتبطت وأصبحت ذرةً دائرةً فى فلك ، أنا الذى

ماكنت أقيس جمال الحياة وسعادتى فيها إلا بإحساسى بحريتى واستقلالى المطلق الذى لا تشوبه أبسط شائبة !

ياله من تاريخ .. هو الذى يفجر فى رأسى الآن قضية الوعى بالحرية !!

تبرق الذاكرة بذلك المثل الصينى الذى استولى على خيالى فى تلك الفترة : "من يريد الحصول على أشبال النمر ، عليه أن يقتحم عرينه" !!

ولم تكن أشبال النمر حينذاك غير تلك الأفكار والرؤى الحديثة والمثيرة التى راحت تتوارد على ذهنى وتفتح لى نوافذ جديدة أرى العالم منها وأفسر الأحداث والظواهر من خلالها ، رافعة عنى عبء أثقال الأفكار والرؤى القديمة المتوارثة !!.. إلا أن الأمر فى أوله لم يكن أكثر من جُمل وشعارات واصطلاحات تهيب بى أن أفض مغاليقها وأجتلى أسرارها : المادية الجدلية .. وحدة المتناقضات وصراعها فى نفس الوقت !! تاريخ المجتمعات الإنسانية وقوانين تطورها !! التغير الكمى الذى يتحول بالتراكم إلى تغير كيفى !! أصل العائلة التى نراها اليوم مستقرة بتقاليدها وطقوسها وقيمها !! تاريخ وعى الإنسان وارتباطه بتاريخ أدوات انتاجه ومخترعاته !.. ومع كل هذا ، أو تضم كل هذا ، ملحمة التطور الإنساني والمراحل التى مر بها الإنسان صعوداً حتى غدا إنسان اليوم !! بل إن هذا الإنسان نفسه لم يتكون ويصبح إنساناً سويا إلا بعد أن مر . بحقب ومراحل استغرقت ملايين

السنين شاركت فيها الأحياء المائية ، ثم البرمائية ، ثم مرحلة الزحف أو السير على أربع ، حتى ارتقى وأصبح قادراً على أن يتسلق الأشجار ويطعم نفسه من ثمارها . ثم بعدها يتوالى تطور القصة أو الملحمة ، وإذا به أصبح مرفوع الرأس ، مستقيم القامة .. ينظر إلى الكون من أعلى .. لم يعد يتحرك على أربع .. بل على اثنين .. أصبح أقدر فى الصراع على البقاء .. غدا صاحب فكر ، وليس فقط صاحب عضلات .. بدأ عصر السمو الإنسانى .. عصر الدين .. عصر الفن .. عصر العلم .. صدقت تلك الجملة الرائعة : أيها الإنسان ما أعظمك !!

ملحمة اذن هو .. وليس أبداً كما كنا نتصوره .. خلق هكذا وسيظل هكذا إلى الأبد !! انما هو فى حالة تخلق وتشكل دائمين !!.. أنا أيضا فى حالة تخلق وتشكل .. أتوق لأن اكتشف جوهر هذه الأفكار والرؤى ، وأمسك بها بين قبضتى بقوة .. إنها "أشبال النمر" التى أتوق لأن أحصل عليها وامتلكها .. وعلىَّ اذن لو أردت تحقيق ذلك أن أقتحم عرين النمر الأكبر !!

واقتحمت العرين بالفعل !.. وأصبحت عضواً بتلك المنظمة التى بدا لى أن منطقها ومنهجها القائم على السرية وتحدى الخطر ، هو السبيل إلى تحويل الفكرة إلى فعل ، والحلم بالثورة إلى واقع وحقيقة !

كان اسم هذه المنظمة غريبا : تحشم . قرأته أول مرة

كتوقيع فى نهاية أحد المنشورات المزمع توزيعها ، فأخذ فى نفسى طعم اللغز الغامض وتجاوب هذا الغموض مع روح المغامرة التى كنت اتطلع إليها .. وسرعان ما عرفت أن "نحشم" هى اختصار الاسم الكامل : نحو حزب شيوعى مصرى !!

تلك كانت البداية .. ترتسم دائما على الشفتين ابتسامة لهذه الذكرى .. تتجسد أمامي على الفور صورة ثابتة طريفة .. عاكف الرافعي ، الذى كان أول مسئول لى ، وهو يبلغنى فى أول اجتماع سرى لنا : اسمك من النهاردة .. عطية !!

مازلت أذكر تلك الرعدة الخفية التى انتابتنى لحظتها ، فقد بدا لى أن ثمة كائنا غريباً يقتحمنى ويلتصق بجلدى !!.. ذلك إن اسم "عطية" هذا ذكرنى على الفور بولد كان معى فى المدرسة الثانوية .. فظ السلوك .. سمج الهيئة .. وفكرت أن أقول لعاكف معترضاً ومعاتباً : ألم يكن من المفروض ، ذوقياً على الأقل ، أن تستشيرونى فى الاسم الجديد الذى سأحمله ؟!.. إلا أنه ألقى بالقرار أو بالبلاغ التنظيمى ثم انخرط مباشرة فى حديثه عن الواجبات والالتزامات التى تتطلبها المرحلة . فبدت لى حكاية الاسم هذه مسألة شكلية تافهة لا تستحق .. ولا يصح الوقوف عندها .. اذ المهم هى تلك القضايا والمعارك العاجلة الخطيرة التى تواجهنا .. ومع هذا فقد خرجت يومها من الاجتماع وأنا أحس بأنى ـ بهذا الاسم الجديد السخيف الذى يرافقنى ـ بت أحمل عبئا ثقيلا

وكريها !!.. وأصابنى نوع من التجهم .. هاهم قد فعلوا معى نفس ما فعلته معى أمى عقب ولادتى ، حين اختارت لى اسماً قضيت سنوات طويلة من عمرى معقداً منه ، هو اسم "عبدالله" .. فعلوها معى وأنا كبير .. لى ذوقى ومشاعرى وخيالى الخاص بى !! وفكرت أن أكتب لهم محتجاً وناصحاً : ليس أسوأ من سلب الإنسان حقه فى اختيار أقرب الأشياء اليه وألصقها بنفسه : اسمه !.. إن الاسم كالقرين لابد أن يكون مطابقاً للروح وللجسد !! لسوف أطلب تغيير هذا الاسم فى الاجتماع القادم !

غير أن الأمر كان قد حسم وأدرجت به فى القوائم السرية للمنظمة ، وعبثا إثارة موضوع كهذا وسط معمعة النضال التى نحن فيها ! وإذ وجدته مفروضاً علىّ ولا مفر منه ، رحت أردده فى سرى وأتأمله من جديد .. وإذا به يتكشّف عن معنى جميل : عطية .. عطية الحياة الطيبة الجميلة .. وفكرت متحمساً : ربما اختاروا لى هذا الإسم على هذا الأساس : انى خير عطية من الحياة لحركة النضال .. وانقلبت كراهيتى للاسم ، محبة وتمسكا به !!

ذلك كان أحد أبعاد تركيبتى النفسية ، حين أحب شيئا أو أقرر القيام بفعل ما ، انصب فيه بكلى .. بكل ما أوتيت من قوة ودون أبسط وازع للشك أو التردد !

هى فترة قصيرة قضيتها فى "نحشم" تأخذ فى ذهنى شكل الضباب ثم إذا بى أجد النشرات والمنشورات قد أخذت

توقيعاً آخر غير "نحشم" !! وتنبهت إلى أنى أصبحت فى تنظيم آخر جديد اسمه "حدتو" .. اختصار "الحركة الديموقراطية للتحرر الوطني" .. كيف انتقلت ، لا بل قل كيف نقلت .. ومتى .. ومن فعل ذلك دون اذن منى أيضا .. تماماً كما حدث معى فى موضوع الاسم ؟!.. وساورنى الشعور بالاستهانة والمهانة .. لكأننى قطعة ما .. ضمن أثاث شقة تقرر نقل كل ما فيها من مكان إلى آخر .. كله على بعضه .. هيلا بيلا .. وفى المكان الجديد سوف يتم ترتيب وضع قطع الأثاث من جديد !!.. إلا أن المنشورات التى رافقت حركة التغيير هذه وصفتها بأنها فاتحة عصر ذهبى جديد للحركة الشيوعية المصرية .. فلقد تمت الوحدة التاريخية بين أهم وأخطر منظمتين شيوعيتين : الحركة المصرية .. وأيسكرا (أى الشرارة) ، وانضمت إليهما "نحشم" .. فمن ذا الذى لا يسعد بهذه الوحدة التى مهما كانت مساوئها وسلبياتها ، فلقد أنهت أتعس مرحلة مرت بها الحركة الشيوعية .. وهى مرحلة الانقسامية !!

وفوجئت بأن الترتيب الجديد للبيت قد صعّدنى من مجرد عضو فى خلية ، إلى "مسئول الدعاية" فى منطقة من أخطر مناطق القاهرة وأكثرها حساسية وشعبية : هى منطقة حى السيدة زينب .. ذلك الحى الشهير بتراثه الدينى العتيد والزاخر بجماهيره وموالده ومواكب مشايخ طرقه ومجاذيبه وحواته ومتسوليه ومقاهيه .

ياللهول .. أن أصبح أنا المسئول الأول عن تغيير هذه الكتلة الهائلة من البشر واعادة تشكيلها الوجدانى والثقافى فى اتجاه الثورة ، دون أن أكون أنا نفسى مؤهلا ثقافيا لهذه المهمة الخطيرة !

ولقد خطر لى .. للوهلة الأولى من سماعى القرار بالتصعيد ، والذى بالطبع داعب غرورى للحظات ـ خطر لى أن أبسط كفى معترضاً .. ومعتذراً .. عن قبول المهمة .. لكننى لم أفعل .. بقى كفى بجانبى .. ناظراً إلى وجه المسئول الجاد .. المرهق .. والذى انخرط فى تمجيد الوحدة التى تمت .. وضرورة المحافظة عليها .. مهما كان فيها من أخطاء ونقاط ضعف .. محذراً من روح التشكك والانقسامية المتأصلة فى البعض !!

وكتمت فى نفسى فكرة الاعتذار .. آملا ومتوقّعاً منه أن يشاركنى على الأقل الإحساس بثقل المهمة التى أبلغنى بها .. يعبر لى عن ذلك شفاهة ، ثم يعدنى بأنه سوف يمدنى ببعض كتب ودراسات تفسر لى ـ من وجهة النظر الماركسية ـ جذور تلك الأفكار والأساطير التى تسيطر على أرواح وعقول الجماهير المتمحور وجودها حول ذلك المزار والرمز الدينى التاريخى العتيد .. هذه الشخصية الاسطورية العظيمة التى سمى المسجد والحى بأكمله باسمها .. مستمدة سياستها وبركتها وسرها الباتع من كونها بنت بنت النبى .. خاتم الانبياء وأشرف الخلق أجمعين !!

وسرعان ما أدركت أن مشكلتي هذه ، ماهي إلا ذرة في بحر من رمال .. وأن مشاكل الوحدة ومعارك ترتيب البيت الجديد ورسم خريطة تحدد مواقع الجميع شغلت المسئول عنى وعن مشكلتي .. واستغرق في هموم الوضع الكلى الكبير !!

ورغم أنى ظللت قابلا بالقرار ، ومضيت وأنا أنوء بحمله الثقيل ، فإن هذا الموقف كان واحداً من أهم المواقف المصيرية التي كشفت لى في النهاية عن تركيبة هذا العالم السرى ، والقائم بطبيعة تكوينه على فرض الرأى وتبرير ذلك بالخطر الماثل على الدوام والذى لا يحتمل كثرة النقاش فالأعداء دوماً متربصون بنا ، وعيونهم الذئبية تجوس ـ دون أن نعلم ـ داخلنا !!

لقد بدا لى ذات يوم ، أنهم فطنوا إلى الظلم الواقع علىّ ، منذ أن قالوا لى : اذهب .. أنت مسئول الدعاية في حى السيدة زينب !! وهاهم قد شرعوا في رفع الظلم والاعتذار عنه !..

لقد فوجئت بالمسئول ينتحى بى جانبا ويعطيني عنوانا لأحد البيوت في حى الروضة .. ثم قال هامساً وبلهجة جادة ودون أن يسمع بقية أعضاء الخلية : لقد تقرر ضمك إلى مدرسة الكادر .. وستحضر غداً محاضرة في غاية الأهمية !! وافهمنى بشكل سريع أن مدرسة الكادر هذه كانت قد توقفت فترة بسبب عملية الوحدة ومشاكلها .. والآن بدأت تعاود

نشاطها .. خذ حذرك جيدا فى الطريق !!

ياللنشاط الذى دبَّ فى عروقى وأنا متجه إلى هناك وقد تفتحت منافذ عقلى استعداداً لمعرفة أشياء أنا فى أشد الحاجة إليها حتى أرتفع بحق إلى مستوى المسئولية التى كرّمت وحمّلت بها !!.. وتمنيت وأنا أشق طريقى إلى مكان الاجتماع بحذر .. مفترضاً أن عيوناً غير مرئية تتبعنى فأعمد إلى تضليلها .. تمنيت لو أجد فى المحاضرة اجابات لتلك المشاكل الفكرية التى تحيرنى : الثورات وكيف تتعامل مع الأديان !! لماذا الدين وهو فى الأصل ثورة ، يقف اليوم ضد الثورة ؟! من قال هذا ؟! ليس الدين هو الذى يقف ضد الثورة .. بل هم رجال الدين وكهّانه .. بعقلياتهم المتحجرة .. ومصالحهم أيضا !! كيف .. نطوع الدين للثورة ، والثورة للدين .. صراع المعتقد الجديد مع المعتقد التاريخى القديم .. مساحات التلاقى ومساحات الخلاف !!

ليس حى السيدة زينب وحده يارفاق هو الذى أصبحت أحمل همه !! قريتى أيضا .. ميت خميس .. أمى .. وأخوتى ، وأهلى ، والفلاحين .. كل هؤلاء بت أبحث عن لغة جديدة ، وفكر بسيط وحميم .. أجذبهم به إلى عالمنا الجديد الذى ترنو إليه ..

ووصلت .. ودخلت الاجتماع ..

وكانت الصدمة !!



ـ محاضرتنا اليوم يارفاق .. عن : التيتوية !!

تيتا ماذا ؟!

تساءلت فى سرى وقد خطر لى للحظة أننى ربما أخطأت العنوان ! ومازلت أذكر حالة العماء والدوار التى أصابتنى .. إذ رغم أنه كان يتكلم بالعربية ، إلا أنه بدا وكأنه يرطن بلغة أخرى شتّتنى ووتّرتنى .. وحط علىّ شعور بالاحباط الممزوج بالغضب ، كما قاومت احساسا بالدونية ، وأنى دخلت منطقة أرفع مستوى .. وحينذاك انتبهت وركزت .. ولم اكتشف إلا بعد جهد هائل ، وبقدر كبير من تحدى النفس أنه يقصد بالتيتوية ، تلك الفعلة الشنعاء التى أقدم عليها الزعيم اليوغوسلافى تيتو ، حين شق عصا الطاعة على زعامة المعلم الأكبر وقائد الأممية الأول : جوزيف ستالين !! وبينما راح يعدّد أوجه خروج تيتو هذا على مقدسات قوانين الماركسية اللينينية ، كنت أنا قد انفصلت تماما عما يقول ، وانشغلت بتأمله وتأمل الاجتماع بأكمله !! كان أبيض الوجه ، أجرودى الذقن ، أشقر الشعر مع قليل من الصلع .. وذكرتنى طريقة نطقه بأصول أجنبية بعيدة .. والحركة الشيوعية المصرية مليئة بالخواجات وباليهود .. ربما كان هذا المحاضر هو أحد ثمارهم !

واختلست نظرة من الحاضرين .. كانت الغالبية مصرية .. الوجوه السمراء الخشنة بتجاعيدها العميقة
القريبة فى بعضها من الشقوق .. والشفاه المزمومة والنظرات

الشاخصة .. كأنهم تماثيل لبوذا فى حالة تأمل : "انتم يا هؤلاء .. هل أنتم حقا راضون عن هذا الذى يقال ؟! واضح أن معظمكم من أبناء الشعب الكادح المكافح في مدن وقرى وجه بحرى والصعيد ، فماذا يجدى الآن الكلام عن التيتوية بينما نحن نواجه مشاكل أخرى هى التى يجب أن تكون موضوع محاضراتنا .. و ..

ويالفرحتى الغامرة حين انتهت المحاضرة وانفض الاجتماع فانطلقت مسرعاً إلى الخارج وأنا فى أشد الحاجة لأن أتنفس بملء رئتي هواءً صافيا نقيا .. كما لو أنى كنت على وشك الاختناق !!

وكان كوبرى عباس لحسن الحظ قريباً فأسرعت اليه ومضيت أعبّ من الهواء فى صدرى واحتوى النهر فى عينى .. وساورتنى الرغبة فى أن أظل هكذا .. طليقاً .. مثل الهواء ومثل الموج .. استعيد حريتى التى افتقدتها منذ أن ارتبطت بهذا العالم السرى .. بقيوده وتوتراته وغرائبه والتزاماته .. ماهذا الذى فعلته بنفسى ؟! لقد كنت ملك زمانى فى هذه المدينة .. أسرح فيها واتجول كما أشاء .. أخرج ادخل أنام أصحو أجرى أصرخ أضحك أبكى .. أغنى .. أهتف .. أجل .. حتى النضال الوطنى كنت أشارك فيه .. وبمحض اختيارى .. يشهد هذا الكوبرى نفسه بذلك حين حاصرونا وانقضوا علينا .. وخرجت بجرح لا يزال أثرَه فى ركبتى .. فكيف سلمت فى حريتى ومصيرى لغيرى .. وأى غير هذا ؟!.. غير غامض .. قوة مجهولة لا أعرف بالضبط

أشخاصها وما مدى قبولي لهم وثقتى فيهم لو تعارفنا وتعاملنا وجها لوجه في العراء وعلى الطبيعة !! قانون متفرد جبار أخضعت نفسى له ولقيمه ولتقاليده التى لا ترحم .. إنه قانون التخفى والخفاء .. قانون عالم الظلام حتى ولو كنا فى عز النهار .. إذ عليك ألا ترى غير ماهو مطلوب منك أن تراه .. وألا تسأل إلا عما هو جائز لك أن تسأل عنه !!

لا .. لن أترك أيامي تتسرب منى أكثر من هذا .. أوحشتنى حريتى .. وصعلكتى .. أوحشنى السير فى الشوارع دون أن ألتفت يمينا ويسارا .. كى أتأكد أن شمامى الأثر لا يتتبعون خفية خطواتى ..

طليقاً مثل هذا الهواء وهذا الموج أريد أن أعود ! سأقول لهم وداعاً .. أجل يارفاق .. الفكرة أنا مؤمن بها .. ولم يعد لها بديل فى روحى ..ولكن .. تنظيم .. وارتباط .. وجبال مسئوليات والتزامات ، وخضوع مطلق لذلك القانون الرهيب الحاسم .. قانون التخفى والتستر بالعتمة والأركان .. وحديدية الانضباط .. لا .. لم أعد أحتمل ..

لم يبق سوى تحديد موعد الإعلان ..

ويعود الطائر إلى حريته !!



ماهذا ؟!

كعوب أحذية ضخمة تصك أرض الممر وتقترب من

زنزانتنا .. أنتبه من انطلاقة ذكرياتى ، وأعود مبتهجاً إلى الواقع .. حلّ موعد إدخال طعام الافطار والشاى .. وستفتح الأبواب لنخرج إلى دورة المياه نلتمس الراحة ونغسل وجوهنا .. وبعد قليل يحل موعد الطابور ونتمشى فى فناء السجن تحت الشمس ..

ابتسم إذ أرى الطائر .. طائر الحرية وقد تغيرت به الأحوال وأعادت الاحداث صياغة مشاعره ، وأصبح يرى فى وجوده بالسجن ، تأكيداً لحريته !!



جحيم .. أسمه عنبرج !

ماكدت أرى باب الزنزانة يفتح وبلا أى موانع للخروج ، حتى اندفعت برغبتى الشبقية الهائلة الى الحركة والحرية ، فرحانا بفترة السماح القصيرة الممنوحة لنا للذهاب الى دورة المياه .. إلا أننى وجدتنى أتوقف فجأة بعد خطوات ، مأخوذا بغرابة المنظر . لأول مرة أرى جوف العنبر من الداخل وفى نور الصباح الغامر ! .. لقد ساقونا إليه بالامس في الغروب وعتمة المساء تزحف والاشكال متداخلة ومضغومة .. الآن فى وضح الساعات الأولى من الصباح ، يبدو المبنى بالغ الغرابة والإثارة .. وأنا واقف فى جوفه بالدور الرابع .. الدور الأخير في منتصف الممر .. مشرفاً على الادوار الثلاثة الأخرى .. وهى تمتد أمامى ومن تحتى وعن يمينى وعن يسارى .. واضحة كلها .. بكامل طولها وعرضها وعمقها وأبواب زنازينها المتراصة والمتقابلة .. كل ذلك من خلال تشكيلة هندسية هائلة من قضبان الحديد الرأسية والمستعرضة .. والسلالم والدرابزين والممرات التى تبدو كشرفات تمكنك حيثما تكون من أن ترى كل المكان من كل جوانبه وزواياه .. تصميم بالغ الدقة والعبقرية والجمال أيضا وان كان جمالا وحشيا .. اذ لاتكاد حشرة تمر فى اى شبر من اى دور الا وتلتقطها العين

على الفور ، فما بالك بسجين يخطط للهروب .. واذا بى اهتف فى سرى : يا أولاد الكلب يا انجليز .

إنهم آخر المستعمرين الذين صمموا وبنوا هذه السجون ليحبسوا بداخلها الوطنيين .. ولم ألبث أن صحت فى نفس اللحظة : يا أولاد الكلب ياللى ساجننى !

أجل .. لا فرق بين أن يكون السجان انجليزيا أو مصرياً .. الاثنان يجمعهما العداء للمناضلين الوطنيين ! وهنا ارتسم أمامى وجه سجانى المصرى .. الرجل الذى رتب لضربتنا .. ضربة الـ ٦٩ .. بحكم كونه اصبح وزيرا للداخلية .. وأيضا نائب رئيس الوزراء .. وجه البكباشى المسمى جمال عبد الناصر !!

آه .. أين أنت الآن يا عاكف يا رافعى .. وأنت يا زكى مراد .. فى أى سجن أو ليمان انتما الآن .. هل تذكران حديثكما لى عن هذا الرجل .. وسعادتكما بأنه فى صدارة مجلس قيادة الثورة ؟! .. كم خُدعنا .. لقد اتخذنا من وجوده هذا دليلا على وطنية الثورة .. بل وتقدميتها أيضا .. هاهو نفسه الذى يضربنا .. ويحكم الضربة .. بحكم معرفته بنا .. فقد وضعنا أيدينا فى يديه .. وطبعنا له المنشورات وأطلعناه على امكانياتنا ، وعلى كثير من أسرارنا .. وهذه هى النتيجة حينما اصبح فى السلطة .. كلنا مرميون فى السجون وفى الليمانات نتعامل مع زبانية !!

وامتلأ صدرى بالغضب وبالكراهية .. واذا بأنفه يزداد

طولا .. وبشرة وجهه تزداد صفرة أو زرقة .. ونظراته الثاقبة اللامعة تفح تامرا ودهاءا !! .. كما طن فى أذنى ذلك الاسم الذى أطلقه عليه الكاتب الأشهر فى ذلك الحين : عبد الرحمن الخمسى وظل طوال فترة وجوده يعمل على نشره واذاعته !! ما سمعته ابدا يقول : جمال عبد الناصر بل : جنصر .. وعن عبد الحكيم عامر : حكمكم وصلاح سالم .. صاصا ..

كان نوعا من الانتقام الساخر من القبض عليه وسجنه !!

وارتسمت على شفتى ابتسامة خففت من غضبى .. ولكن لا .. يجب أن نترك الكراهية ترعى بحرية فى صدورنا .. ورائع هو التعبير الذى قرأته ذات مرة لقائد الشيوعية الاممية العظيم .. جوزيف ستالين : ان نغذى فى نفوسنا الحقد المقدس على أعدائنا .. ما أغرب ان يرتبط الحقد (ذلك المعنى البشع) .. بالقداسة (ذلك المعنى الجليل العظيم) . لكنه ستالين .. قائد الاممية العظيم هو قائلها .. فلنقذف بالزيت على النار لتزداد اشتعالا .. واستمتاعا بالحقد على اعدائنا .. ذلك أن الحقد المقدس يعطى المرء قوة .. يطرد عنه روح ، التخاذل والضعف المقترن بالحنين الى الحبيبة والى الطفل .. والى الحياة .. كل ما فى الحياة .. البيت .. المكتب .. العمل .. الشوارع .. السينمات .. المقاهى .. الدنيا .. أنا رجل عاشق للدنيا والانطلاق فيها .. أمى .. قريتى .. الجسر .. ونهر النيل .. ياله من ثمن كبير فادح ذلك الذى أدفعه .. ومع هذا فأنا اشعر بغاية الرضا .. والاقتناع .

لكم أتمنى ان أنقل الى حبيبتى كل هذه المشاعر .. كى نتوحد رغم البعاد .. ها قد دخلنا زمن التحدى .. وعلينا أن نظل دائما على المستوى !! ..

ولقد قلنا كلمتنا قبل السجن .. ألقينا بها فى وجوههم وهم يجلسون مع الانجليز ويتفاوضون على الجلاء والاستقلال .. ياللعار .. اى ثورة هذه التى تحنى برأسها وتتفاوض مع أعدائها وفيم اذن كان كفاح الاربعينيات .. وطوفان المظاهرات وقمصان الدم المرفرفة فوق جنازات الشهداء .. والشعار الذى كان : الكفاح المسلح طريق الخلاص ؛ اجل .. لم نتركهم يهنأون بخنوعهم ومؤامرتهم .. كشفناهم بمنشوراتنا : تسقط معاهدة جمال ـ هيد .. كان ذلك عنوان اخر منشور وزعته سرا فى الليل ، وكان معى ليلتها عبد الرحمن الخميسى .. بجسمه العملاق .. نخترق معا ظلمات الحوارى ونلصق المنشورات على الجدران أو ندسها من تحت أعقاب الابواب .. ويالها من لحظة رهيبة حين رأينا ـ ونحن ندس المنشور من تحت عقب احد الابواب ، اذا بنور يضاء فجأة فى الصالة وأقدام تقترب من الباب ، فأطلقنا سيقاننا للريح .. هو فى اتجاه وأنا فى اتجاه .. ولم نلتق بعد ذلك الا فى ممرات وزارة الداخلية ليلة الضربة الكبرى !!

أجل .. كان لابد ان يضربنا عبد الناصر .. ليس فقط لهجومنا على المفاوضات .. بل أيضا على الحكم باعدام عاملين ، هما خميس والبقرى .. واصدرنا أيضا منشورا بذلك .. ضربة بضربة يا عبد الناصر .. وأنت الآن الضارب ..

لكنك غدا ستكون المضروب .. النظرية تقول هذا ..إن البقاء للأصلح .. لا للأقوى .. فلقد اندثرت الديناصورات وبقى ذلك الكائن الصغير العظيم الذى اسمه الانسان !!

آه .. لكم أتمنى أن انقل الى حبيبتى كل هذه الخواطر والمشاعر ، كى نبقى متوحدين رغم البعاد .
ورغم أنف صاحب الانف الكئيب .

● ● ●

أرى الآن وجوها تتلمظ وعيونا تبرق وأسنانا بل انيابا تصطك متهيأة للانقضاض .. فكيف أجرؤ واكتب وانشر مثل هذا الآن عن الرمز الباقى : عبد الناصر العظيم ؟!

أنا نفسى لو لم اكن الكاتب .. لو كنت قارئا فحسب لهذه الكلمات المكتوبة لامتلأت بالاشمئزاز وبالقرف من كاتبها .. ومنذ فترة قصيرة وصلنى كتاب جديد لكاتب كبير وشهير .. نسخة مهداة رمز للمودة وما كدت ابدأ فى قراءته حتى وجدته يتناول عبد الناصر باستخفاف وسخرية ينمان عن كراهية عميقة ، واذا بى ألقى بالكتاب بعيدا ولم اعد اليه بل ولا ادرى الآن أين هو !! فكيف اذن سمحت لنفسى ان اكتب ما أصبحت اعتبره قرفا وبشاعة ؟! كيف .. وأنا الذى شاركت فى صنع أسطورة عبد الناصر .. اذ بقدر ما تطرفت فى كراهيته فى تلك الايام الأولى ، بقدر ما تطرفت ايضا فى حبه فى الايام الأخيرة .. حبا سيالا دفاقا ومن القلب غير من رؤيتى وتذوقى للحياة وطعمها ومعناها .. فقد بلغ بى هذا الحب أنى بت أرى

في ضخامة الانف نوعا من التميز والجلال .. وان هذه الضخامة ان هى الا منحة الهية تمكنه من القيام بأخطر وظيفة للقائد : استشعار رائحة الخطر القادم من بعيد .. ومن كل الاتجاهات الى يوم ان رايته على شكل أوزوريس العائد بعد ان عثرت عليه الصابرة والمكافحة العظيمة ايزيس ، وبالحب الغامر بعثته الى الحياة من جديد .. كان ذلك فى رحلتى الأولى فى نهر النيل .. مازلت اذكر السطور وكانت ختام احد الفصول .

«يقولون ان اوزوريس كان اسمر البشرة فى لون الطمى الخصيب .. كان يملك قلبا جبليا مغرما بالتفرد واحتمال العذاب واحتواء آلام الآخرين .. كان روحا نهرية صافية متدفقة بالعطاء على الدوام !!

أمن أجل هذا ذوت ايزيس حزنا على فقده وأضاعت عمرها لتستعيده ولو عظاما .

ايزيس .. يا ايزيس ..
اوزوريس عاد ..
من قلب الجبل والنهر عاد ..

بعينى رأيته : شاهدته ذات يوم يخرج الى الدنيا من قلب جبل المعابدة ، ويمشى بخطى عملاقة فوق جسر أبنوب ، لنعقد صلحا بين روح الجبل ومدينة اسيوط واحسست بشىء

★ رباعية النهر . الرحلة الأولى . فصل الدوامة .

اشبه بالدموع نديا يغص به حلقى .. كان وجها اليفا وضخما يتماوج امام عينى فى الفضاء ما بين الجبل والنهر وفوق جامعة اسيوط .. وجها اسمر فى لون الطمى الخصيب ، منحته الطبيعية انفا كبيرا .. كبيرا .. ليتشمم به رائحة الخطر القادم من كل الاتجاهات ، وكذلك رائحة العطر القادم علينا من كل مكان .. والوجه المتماوج بالانف يرتكز على جذع انسانى شاهق البنيان .. فى كل خلجة من خلجاته آلاف السنين الى الوراء والى الأمام .. والى صدره وبين ذراعيه الماردتين يود لو يحتضن كل القرى .. كل المدن .. وكل الملايين .

ابدا يا اصدقائى لم تكن صدفة .
محال ان تكون صدفة ..

منطق التاريخ .. منطق الاشياء جميعا . ان يخرج من هنا اول محرر لمصر فى تاريخها الحديث .. اسمر .. شاهق البنيان .. ومن قلب الصعيد بالذات ، حيث يتعانق تاريخ الاثنين معا .. النهر والجبل ويمتزجان* .

ولم اذكر الاسم .. فمن يكون غيره .. جمال عبد الناصر !!

● ● ●

كيف حدث اذن ذلك الانقلاب الهائل فى علاقتى الشعورية والفكرية بعبد الناصر .. من اعمق قيعان الكراهية والحقد ، المقدس ، الى ذروة الحب الفياض الذى تغيرت معه حتى ملامح وجهه واكتسبت جمالا اسطوريا لم يكن من قبل ؟! كيف

بعد ان كان عدوى وسجانى ، اصبحت ارى فيه ميلادا جديدا لحياتى وحياة مصر كلها .. حتى اننى تصورته ، وقد رأيته يتطور من مرحلة الى مرحلة مثل النهر .. يولد يوما بعد يوم .
كيف ؟!

تلك هى ملحمة الجحيم الذى كان لابد من اختراقة والاكتواء بنيرانه ، كى اصل الى المطهر بعد ذلك .

وأن الاعتراف الان لهو الجحيم وهو المطهر فى آن واحد ..

فلنعد اذن الى حيث توقفنا .. الى مرحلة الجحيم الاولى .. حين كان عبد الناصر سجانى ، ومفرقى عن احبابى !!

● ● ●

حبيبتى ..
قد تطول رحلتى .
بعيدا عنك يا حبيبتى .. وعنك يا طفلى الحبيب ..
لكننى لن اتوه عنكما فى المجاهل ..
فأنتم جميعا تعرفون طريقى .. وعلى أى أرض أكون ..
وأنا لم احجب عنكم ضياء حنانى .
فلم اصنع قضبان الحديد التى تحول بين يدى وايديكم .
انتم تعرفون من الذى وضع ركامات الحديد على القلوب ..
وعلق ستائر الدمع على العيون .

★ هذه اول رسالة بعثت بها من السجن وحافظت عليها فتحية حتى خرجت ثم توليت انا بعد ذلك امر المحافظة عليها حتى الآن وهى وبقية الرسائل .

حين عوى الصمت الموحش داخل بيتنا الصغير .
ومات النور .. من لياليه ..
تذكرت ملايين البيوت الأخرى ..
حيث وحشة الفناء تنشر الصمت .
والطفل الهزيل يحتضر .. والجوع يعبث بسحر العيون ..
وحيث لا زيت ليملأ المشعل ، ويبدد الظلام ..
تذكرت ملايين اللاجئين العرب ، دون خيام .
وملايين الثوار والعبيد فى كل الاصقاع ..
يأكلهم عصف الرياح .. ويمزقهم الجوع والرصاص .
ويميت فى قلوبهم الحنين .
وتذكرت مرة اخرى ..
ان النور لم ينطفىء فى منزلى وحدى ..
وان الاعاصير والطوفانات لم تغرق حنين قلبى وحدى ..
واننى لست متفردا فى غربتى .
وفى آلامى على الطريق ..
بل معى الملايين والملايين ..
والزمن الآتى ايضا !

● ● ●

حين اختطفنى شعاع عينيك ذات صباح ..
(هل تذكرين ؟!)
استسلمت على الفور وطاب لى ان اكون اسيرا لهذا الشعاع .
(هل تذكرين ؟!)

لقد احببتك يا فتحية ..
ومع ميلاد الحب ، ولد الخوف عليه ..
الخوف من كل الاشياء التي تخنق المحبة فى بلادنا .
وفكرت بأن حبنا لكى يدوم .
لابد له من فداء ..
وعلى الفور قدمته برضا ..
ومازلت اقدمه .. داخل قفص الحديد ..
وقد يطول الطريق ..
لكنه طريق الفداء .. فداء حب غال وعزيز .

● ● ●

وعلى أرض البشر يازوجتى ، نرى قوما يزحفون ..
فيهم ضعف الدود .. وليونته .. ودونية مقصدة .. ويفزعون من شعاع نور ..
لطول ما عاشوا فى الظلام .
ويرددون :
أما زوجتك وطفلك أيها الغافل ، واما افكارك التى توردك السجون .
فأقول لهم وما العمل اذا كانت زوجتى هى صورة لطموح شعبى .. وطفلنا هو حلم بقفزة جديدة على الطريق .
وحبنا فداء ..
وأنا اليوم افتدى حبى داخل قفص من حديد .

● ● ●

ومهما نزعوا الريش من اجنحة العصافير .

فسينبت لها الريش من جديد .
ومهما دابوا على قتل الطيور .
فستظل الغابة ملأى بالاغاريد ..
والاعشاش تحتضن الاف العصافير .
ولكن .. مهما غير الثعبان جلده .
فلن يستبدل السم بالشهد .
ومأواه الأخير فى الظلمة والجحور .

● ● ●

وقد تطول رحلتى ، ولكنى سأعود واليكم من جديد .
فى قلبى شباب الزمن .. وحلاوة الغد الجميل ..
وسأقدم لكم أصدقاء كثيرين جُدد ..
وستسطع الأنوار فى منزلى .. وملايين المنازل الأخرى .
سيكون الاطفال قد كبروا .. والسحر عاد الى العيون ..
وستفرح بنا الليالى المشتاقة لعناقنا .
وستكون فرحتنا كل يوم .. فرحة سنين★ !

● ● ●

وقد فرحت بكتابتى هذه الرسالة فرحة كبرى ذكرتنى بفرحتى بأول قصة قصيرة كتبتها وكان عنوانها «الذئب» .. كما كانت سعادتى غامرة بأنى كتبتها على شكل قصائد الشعر المنثور .. على نسق اشعار «طاغور» و«بيرون» وفكرت ان اضع لها عنوانا : السجين .. او : حب السجين .. الا اننى رأيت ان ذلك يسلبها صدقها ودفء حقيقيتها وواقعيتها .. فأنا لم اكتبها للنشر . بل كتبتها لها هى .. قبل اى شىء اخر !!

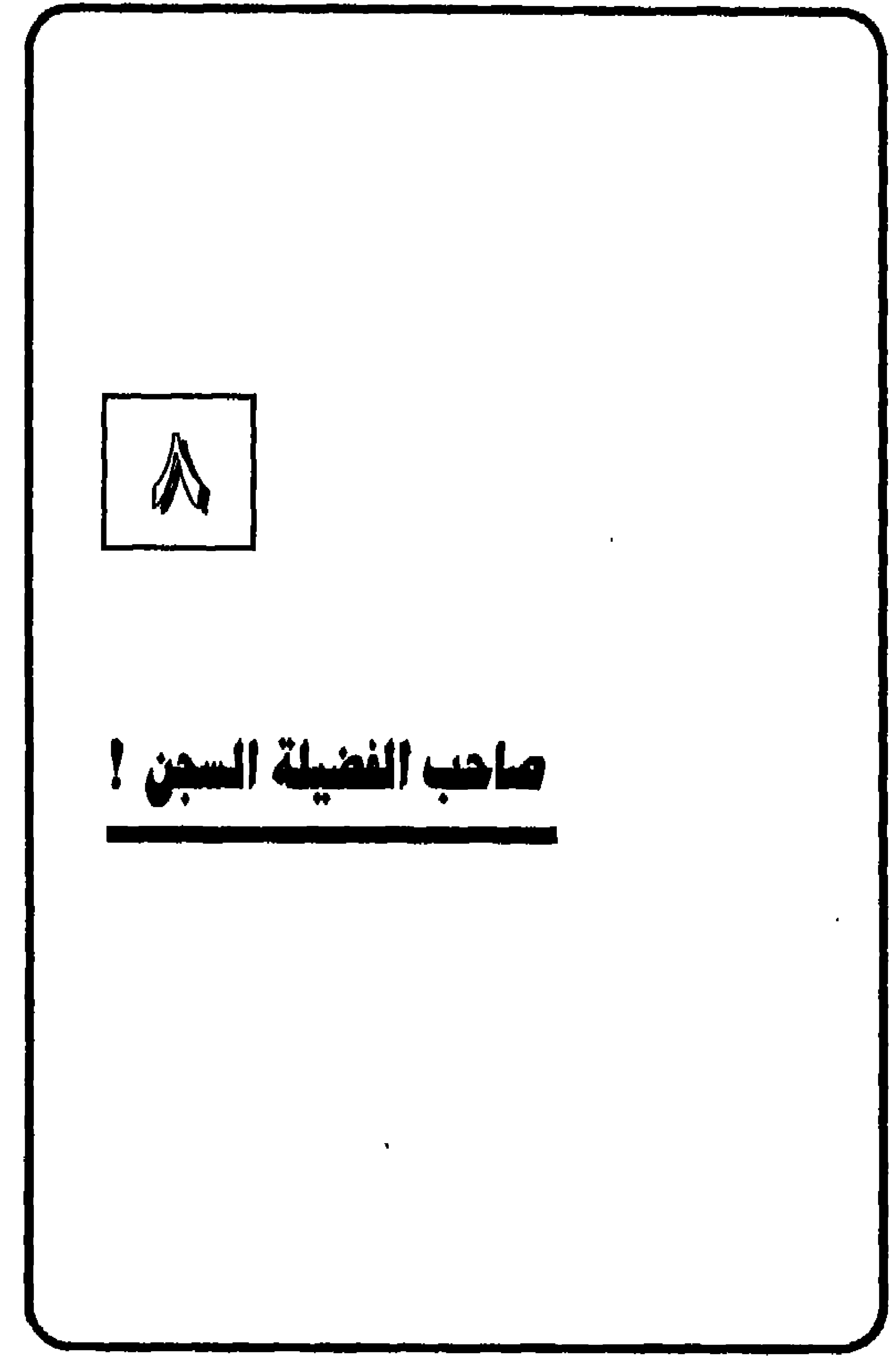
وبدا لي ان السجن نعمة لا نقمة .. ومثلما يقول جبران خليل جبران : ان المحبة لا يعرف عمقها الا ساعة الوداع .. كذلك الحب بين العشاق لا يتفجر لهيبة الا . بالفراق !!

ولسوف تطير فتحية فرحا بهذه الرسالة . وسترد عليها بأخرى سنتبادل الرسائل سرا وبانتظام في الزيارات ، من خلال ثقوب الاسلاك . فالرسالة مكتوبة بخط دقيق وعلى ورق بالغ الرقة .. هو ورق البفرة .. وملفوفة كذلك على شكل سيجارة ستلتقطها سرا في غفلة من الحارس وتدسها في صدرها .. او تتناولها مني مباشرة حين تكون الزيارة بإذن من النيابة ويكون اللقاء في حجرة الضابط او الصول النوبتجي . لقاءا مباشرا شخصياء ومهما كان من وجود الرقيب فما اروع الاحساس بأن كلينا في متناول مدى الأخر .. ومن الممكن لليد ان تمسك باليد ، والانفاس تمتزج بالانفاس .. وشعاع العيون يتمازج واذا بالمزيج ضوء ولهب !! ورأيت ان السجن قد جاء حياتي كطائر النار الذي يدور محلقا على العشاق حاملا شعلة الحب المتأججة ابدا .. واننا بالحب سنهزم كل عوامل الضعف ، وسنصبح اكثر قدرة على الصمود في مواجهة اعداء الحياة .. واعداء التقدم !

ولكن .. كيف يتحقق لنا هذا .. وقد ظهر ان هؤلاء الاعداء ليسوا فقط خارجنا ، بل هم ايضا بداخلنا .. في قلب تنظيمنا .. والاخطر انهم «الناس اللي فوق» الممسكون بالخيوط ، والمحركون لنا في اي اتجاه يقررون .. ونحن المطيعون المنفذون وفقا لقانون السرية والانضباط الحديدي ها هم قد

قاموا بتضليلنا بحسن نية أو بسوء نية .. ليست هذه هى القضية. الان .. انما القضية انه اتضح انهم ليسوا على مستوى المسئولية التاريخية !! فمرة يسيرون بنا لنهتف للثورة فى ايامها الأولى .. ومرة اخرى يهبط علينا التحليل السياسى القائل بأنها دكتاتورية عسكرية فاشية تمهد للاستعمار الأمريكى الجديد .. ومرة ثالثة نبلغ بحدوث انقسام خطير فى التنظيم شطره شطرين والغريب ان الذى قام به هو بدر اخطر واشهر شخصية فى التنظيم .. فهو سكرتيره العام .. قام به باسم تطهير الصفوف وتخليصها من سيطرة الانتهازيين البرجوازيين عملاء السلطة الحاكمة .. واذا بالتنظيم يعمه نوع من الفوضى والتسيب. واستشرت ظاهرة الاتصالات الجانبية ، وبات السؤال الوحيد عند التلاقى : مع من انت .. مع «بدر» ام مع «خليل» وفى هذا الجو الانقسامى ، هوت على ام رأسنا الضربة الساحقة !

الآن لم تعد معركتنا ضد الحكومة التى سجنتنا ، بل ضد هؤلاء الذين ضللونا وعبثوا بنا .. الشعار السارى الآن هو ضرورة الاسراع بعقد مؤتمر لمحاسبة هذه القيادة .. لابد من كشف الأوراق ومعرفة الحقائق المختفية .. لابد من اسقاط كل الاوهام وكل الاقنعة !!



٨

صاحب الفضيلة السجن !

وأدخل على أخطر قضية هزّت من كيانى الروحى والنفسى ، وفتحت عينىّ على الكثير .. تلك هى قضية أو ظاهرة الانقسامية المتفشية داخل الحركة الشيوعية ، الأمر الذى لم يُتح لى اكتشاف أسراره ودخائله الحقيقية إلا داخل السجن ، حيث تعرت الاشياء وتمزقت خيوط السرية ، وانفجرت ـ مثل قنبلة موقوتة ـ ثورة القواعد ضد قياداتها ، وبخاصة اللجنة المركزية ، مطالبة بمحاسبتها على أخطائها .. لا .. بل بمحاكمتها على جرائمها .. وأخرها جريمة الانقسام الأخير الذى اسمى نفسه (ت . ث) اى التيار الثورى والذى قاد مغامرة تغيير تحليل «حدتو» السياسى لحركة الجيش .. من التأييد المطلق لها باعتبارها ثورة وطنية ذات توجه تقدمى ، الى الهجوم العنيف عليها باعتبارها دكتاتورية عسكرية مدعمة من الامريكان .. واعقب ذلك وقوع التنظيم بأكمله فى يد البوليس !

كانت الصيحة التى أخذت تتردد وبإلحاح ، هى ضرورة الاسراع بعقد مؤتمر يقوم بهذه المحاكمة ، الا أن ذلك كان مستحيلا لسبب بسيط جدا ، ودرامى جدا ، ان المطلوب محاكمتهم كانوا إما مقبوضا عليهم وقابعين فى مختلف

السجون ، وأما هاربين ومطاردين من البوليس ! ولهذا وكنوع من التعويض وتفريغا لشحنة الغضب المكبوتة في الصدور ، بدت المحاكمة من الناحية الفعلية وكأنها محاكمة غيابية .. وتناثرت أبشع الاتهامات لتلحق . بمجمل أعضاء اللجنة المركزية على نحو صدمنى وأنا أرى من كانوا بالامس يوصفون بأنهم أبطال الشعب وقديسو الثورة ، أصبحوا الان خونة وعملاء أو بأحسن الاوصاف انتهازيين وتحريفيين من أصل برجوازى !! وبدا التنظيم امامى مثل حيوان ذبيح مضروب اخرجوا أمعاءه ومصارينه الى الخارج وعرضوها فى اوسع ساحة !

كانت صدمة كبرى زلزلتنى من داخلى ، وبدا لى أنى خدعت . وأن الذى سهل الخديعة هو التزامى الدقيق بطقوس السرية المطلقة التى كنا نمضى فيها بخشوع واجلال . كنت أمضى وراء حلم من صنع خيالى وقراءاتى .. أما الواقع فشىء آخر !

وسرعان ما تضاعف هذا الاحساس بالفجيعة فى الحلم ، وعلى نحو مثير للذهول حينا ، وللضحك المبكى حينا أخر . حين اكتشفت أن هذا الانقسام الذى حدث فى «حدتو» ما هو إلا تعبير وتأكيد لقوة تلك الظاهرة المرعبة . ظاهرة الانقسامية المستشرية فى سائر أنحاء جسم الحركة الشيوعية !! فقد اتضح ذلك لى من الايام بل من الساعات الأولى لى فى السجن وهم يوزعوننا على الزنازين التى سنعيش فيها .. فقد فوجئت بأن العنبر المخصص لنا يضم غيرنا نحن اعضاء

«حدتو» ما لا يقل عن خمسة أو ستة تنظيمات شيوعية أخرى ، كل واحد منها يعتبر نفسه التنظيم الشيوعي الحقيقي الأمثل !! فهذا هو تنظيم «الراية» الذى قيل لى ان أعضاءه يهتفون فى المناسبات الذاتية أو الاممية بحياة سكرتيرهم العام : عاش الرفيق خالد ألف عام .. وهذا هو تنظيم «النجم الأحمر» الذى تصورت إنهم اختاروا له هذا الاسم تيمنا بتلك النجمة الحمراء التي تعلو أبراج الكرملين ! .. وهذا هو تنظيم «النواة» بما يوحى به الاسم من جدية وواقعية أعضائها : نحن مازلنا فى بدء التكوين ولكن على نهج ماركسى وعلمى سليم !! .. وهذا هو (ط . ش) اى طليعة الشيوعيين .. وذاك (د . ش) أى الديمقراطية الشعبية .. وأخيرا .. حسبما تسعف الذاكرة منظمة (مشمش) اختصارا لـ (منظمة .. شيوعية .. مصرية) أو (م . ش . م) ثم أضيفت اليها الشين الأخيرة بوحى من مظهر ونهج أعضائها الكاريكاتورى الغريب (ولنا عودة الى هذا الموضوع) !

كما لاحظت أن كل تنظيم منها حريص على عزل أعضائه وعدم اختلاطهم بالآخرين الا فى أضيق نطاق ، وذلك خوفا من تسرب العناصر البوليسية وتجنبا لتفاقم تلك الصراعات الايديولوجية التى كانت اكثر ثمارها مرارة : الكراهية والاتهام المتبادل بالعمالة والجاسوسية واحيانا الاشتباك بالايدى الى حد اسالة الدماء !! .. أقول صدمتنى الظاهرة لدرجة الاحساس بالاحباط .. وبالتعاسة .. وبدا لى انى اصحو من حلم بديع رائع على واقع كئيب فظ .. فأين فرسان الحب

والعدل والحرية والأممية ؟! أين المناضلون فى رواية «الأم» وملائكيتهم وسيماهم الشامخة العظيمة ؟! «أين جيش البروليتاريا الزاحف بحكم قانون التطور ليخلف جيش البرجوازية القابض حاليا على السلطة ؟! .. لا شيء للاسف من هذا . بل مجرد تكتلات أو قل بؤرات صغيرة متقوقعة على نفسها بفعل عقدة الخوف والشك .. ومع هذا فهى مصدر للطنين وقاعدة لاطلاق الشائعات والشعارات البالغة التطرف والمنطلقة اساسا بفعل الاحساس العميق بعجز الذات ، ومن ثم بالكراهية والرغبة في العدوان على الغير وتدميره !

كان ذلك أخطر ما كشفته حياة السجن لى من حقائق وخفايا هذا العالم السرى : ظاهرة الانقسامية الداخلية المتفشية كالوباء وعلى نحو آخذ فى مخيلتى شكل اللعنة أو المرض الناجم عن ميكروب خبيث اخترق صميم الجسد ولا يعرف من أين جاء ولا كيف يمكن الخلاص منه ! وان كان ثمة احساس عميق جعل يتملكنى ، أن هناك قوى خفية تلعب لعبتها بوعى وبراعة ، مستغلة ظروف السرية المطلقة التى تعمل الحركة الشيوعية من خلالها ، كي تنشر فيها الاضطراب والفساد وتحطمها من داخلها .. سلاحها الاعظم فى ذلك زرع ميكروب الانقسامية فى صميم كيانها ، بنشر روح الشك والتخويف وعدم الثقة المتبادلة .. وما أكثر الذين حامت حولهم الشبهات بفضل تسريب الشائعات وهم ابرياء فهجروا التنظيم قرفا وغضبا وهربوا بجلدهم ، او تحولوا بفعل التخويف والتشكيك المستمرين إلى اليمين السلفى أو

الرجعي .. وبهذا يبدو أن الفشل آت من داخلنا .. وأننا نحن الذين حطمنا هيكلنا بأيدينا !!

. واذا باكتشاف جديد وخطير يسطع أمامي ولأول مرة ، أن العلة الاساسية وراء كل هذا هي منهج السرية الصارم الفارض قيمه وطقوسه المقدسة القريبة من ان تكون دينية ، والذى اقنعت نفسي فى الأيام الأولى بتقبله ، باعتباره المعادل الضرورى لخطورة هدفنا الذى نناضل من اجله : تفجير الثورة التي ستغير وجه الأرض ونحقق بها الجنة على أرض البشر ! اجل لابد من السرية الصارمة والحديدية لحماية التنظيم وضمان أمن أعضائه !

هكذا كان ايماني بالسرية في البدء ثم فجأة .. اذا بى أمام اكتشاف جديد أخطر .. أن للسرية وجهها الآخر . الرهيب .. في ظلماتها يمكن عمل كل شيء ، يمكن تمرير أى قرار ، وسبك أى مؤامرة ، واخفاء جسم أى جريمة أو خطأ !! ذلك ان الأمور تغدو فى النهاية فى يد مجموعة أو حلقة منفردة هى التي تقرر مصير الجموع واتجاه حركتها من داخل حجراتهم أو زنازينهم المغلقة !!

كما أخذت السرية فى عيني شكل الادغال الموحشة ، الكثيفة التي يسهل على الزواحف والافاعى ان تتسرب الى داخلها لتتخفى مرتدية شتى الاقنعة ، ثم تنقض علينا وتلدغنا لدغتها السامة فى الوقت المحدد لها .. وهذا هو السر فى تلك السهولة الشديدة التى تم بها القبض علينا .. رغم السرية المفروضة .. لا بل قل بفضل السرية .. المخترقة !

وقد ظلت هذه الظاهرة او المفارقة محل استغرابى ودهشتى من أيامها حتى الآن .. ذلك أنها عبر كل هذه العقود من الزمان .. من الأربعينات حتى الثمانينات ، ورغم تكشف آثارها المأساوية المدمرة ، فقد ظلت موجودة وملازمة لاية حركة ترفع راية الشيوعية حتى الحديثة والناشئة منها ، كأنما هناك قانون «حتمى» يتكفل بهذا .. او ثمة «فيروس» اسمه فيروس الانقسامية والتشرذم لا ادرى أهو من افراز الجسد ذاته ، أم هو مرسل الى الجسد من خارجه ومسلط على نخاعة .. من هو المرسل المصوب !! سيأتى الجواب فى حينه وعلى نحو عالمى !!

إنما الآن ، وبحكم أن الموضوع منطلق اساسا من كونه سيرة ذاتية يجرى صاحبها وراء اكتشاف العناصر التى شكلت قدره وتكوينه والعبر والدروس التى خرج بها من شتى تجاربه السعيدة والاليمة ، والتى حددت فيما بعد مفهومه النهائى لمعنى الحرية ، قضية عمره التى عاش طوال حياته يجرى وراءها . وكانت هى دائما ابدا ، مقياس سر سعادته أوتعاسته !

أقول من اجل هذا لابد من وقفة خاصة عند ذلك الانقسام الذى وقع فى قلب «حدتو» وقام بمغامرة تغيير التحليل السياسى للتنظيم ، مطلقا على نفسه التيار الثورى .. (ت .. ث) .. وبمقتضاه انتقلنا من تأييد الثورة الى الهجوم عليها والدعوة لاسقاطها !! وبذلك انضممنا الى بقية المنظمات والاحزاب الأخرى المعادية للثورة !! لقد ثبت بعد مضى هذه

العقود من السنين والتأمل الهادئ للاحداث ونتائجها ، ان هذا الانقسام بصرف النظر عن النوايا ، كان من اكبر الجرائم التى ارتكبت عبر تاريخ الحركة الشيوعية فى مصر ، وكان الضربة الكبرى التى اصابتها فى مقتل .. ضربة الذات لنفسها .. من داخلها .. قبل ان تحل بها ضربة الأجهزة الامنية من خارجها .. أو لكأنها كانت تسهل للأجهزة مهمتها ، فقد انشطر اكبر تنظيم شيوعى مصرى في البلاد الى شطرين ثم سرعان ما تفتت وتناثر ،، وهكذا تفكك اكبر واخطر تنظيم كان يقود معارك الكفاح الوطنى فى الاربعينيات واوائل الخمسينيات .. يشعل المظاهرات ويدبر الاضرابات ويحرك النقابات ، ويطبع لتنظيم الضباط الأحرار السرى ، ممثلا فى ضابط اسمه جمال عبد الناصر ، منشوراتهم السرية ، واحيانا كان يكتبها لهم .. كما لعب بعض اعضائه دورا مرموقا وحاسما فى انجاح ليلة ٢٣ يوليو نفسها !!

هذا الكيان التاريخى الحى والذى لا يجادل احد فى وجوده في تلك الفترة باعتباره القفزة الفكرية الجديدة التى سادت وقادت الحياة المصرية فى أعقاب الحرب العالمية الثانية .. هذا الكيان المتماسك الضخم ، والذى كان نتاج وحدة تاريخية بين اكبر واهم المنظمات الشيوعية المصرية (الحركة المصرية .. واسكرا ونحشم) الأمر الذى استبشر به المناضلون على المستوى المحلى والعالمى .. هذا الكيان الوحدوى سرعان ما تخلخل وتفكك حين نخر فيه السيد الفيروس إياه .. فيروس الانقسامية .. مختارا لنفسه اسم (ت

ث) : التيار الثورى .. والكارثة ان هذا الانقسام جاء على يد السكرتير العام للتنظيم . فاستطاع بحكم مركزه وامساكه بالخيوط والقنوات السرية . أن يجرف التنظيم كله ـ بشطريه ـ الى أخطر تغيير في التحليل السياسى .. ومن ثم كانت الضربة القاضية !!

ومازلت أذكر جيدا تلك الفترة ، فقد توالت علينا النشرات والاتصالات الجانبية تهيج وتستثير غرائزنا الثورية المستعدة دائما للنزال وللعراك .. ووجدتنى تدريجيا وقد انتقلت من النقيض الى النقيض .. فبعد ان رقصت ذات يوم فى الشوارع فرحا بقيام الثورة التى اتخذت فى البدء باسم الحركة المباركة وهرعت يومها الى حبيبتى .. أبشرها : مبروك الثورة قامت خلاص انتهت أيام المطاردات ، وجاءت أيام الفرح بتحقيق الاحلام فى العراء تحت الشمس وتحت النجوم هيا ومعنا طفلنا البكر الحبيب ايهاب .. ننطلق الى الاسكندرية نفرح بهوائها .. وأمواج بحرها . مثلما نفرح برحيل الملك فاروق على يخته المحروسة مستسلما وقد انتهى طاغوت الملكية من مصر الى الابد .

من تلك الحالة الساطعة والغامرة بالفرح وبالاستبشار بغد جميل فى انتظارنا .. انتقلنا الى حالة مناقضة تماما ، هى مزيج مركب من خيبة الأمل والاحباط والغيظ والخجل من انفسنا إننا خدعنا ، وعلينا ان ندفع ثمن سذاجتنا .. وغفلتنا .. فها هو مجلس الثورة يوافق على حكم عسكرى باعدام اثنين من عمال احد مصانع كفر الدوار للغزل والنسيج

ـ خميس والبقرى ـ لانهما قادا اضرابا يطالب بزيادة الأجر .. وهاهو رئيس الجمهورية شخصيا ـ اللواء محمد نجيب ـ يدافع بشدة عن هذا الحكم بينما هو يخطب فى الجماهير ويقول : لقد كان هذان العاملان شيوعيين فحكمنا عليهما بالأعدام !!

ماذا تنتظرون يا ابناء حدتو الشرفاء لكى تعترفوا بخطأ تحليلكم السياسى الأول الذى بمقتضاه أيدتم هذه العصابة العسكرية ، التى استولت على حكم مصر ؟! .. ثم ما رأيكم فى ثورة تلقى بأسلحتها وتتسول الاستقلال والجلاء بالمفاوضات مع العدو .. وهاهو اخطر رجالهم المسمى جمال عبد الناصر يتصدر مائدة المفاوضات معهم ، منهيا بذلك شعار الكفاح المسلح الى الابد !! ثم .. هل نسيتم يا قواعد حدتو الشرفاء هكذا كانت تتوجه الينا منشورات المنظمات الشيوعية الأخرى ، هل نسيتم ذلك الرجل الاجنبى الذى كان فى صدارة حفل توديع الملك فاروق وهو يرحل بالبحر .. بعد ان وقف بحزم ضد اتجاه البعض لاعدامه ؟! كان هذا الرجل هو «كافرى» السفير الأمريكى .. والذى تنطق تحركاته بكل وضوح إنه خلف هذا الانقلاب المسمى بثورة ٢٣ يوليو !! .

ثم تعالوا ايضا يا ابناء حدتو هل يمكن للاتحاد السوفييتى بكل خبراته الثورية ان يكون مخطئا فى تحليله لهذا الانقلاب الذى اسبغتم عليه صفة الثورة ؟! هل نسيتم مقولة لينين العظيم بأن الثورة الحقة هى صناعة شعبية بقيادة بروليتارية ، وليست مغامرة يقوم بها مجموعة من الضباط البرجوازيين ، والذين هم بحكم تكوينهم الطبقى وتربيتهم

العسكرية فى الكليات الملكية لابد ان يكونوا اعداء للشيوعية .. يؤكد هذا دليل فى غاية الوضوح .. فقد قاموا بالافراج عن جميع المعتقلين والمسجونين السياسيين بما فيهم الاخوان المسلمون .. الا الشيوعيين فقد ابقوا عليهم داخل المعتقلات والسجون .. وبعد هذا ، تظلون على تأييدكم لاعدائكم ، وفاتلى الحبال لكى يلفوها حول رقابكم !!!

فى ظل تلك الهجمات والاتهامات المغلفة بالمناشدات .. وذلك الجو المدلهم بالاحداث والمتناقضات والصراعات التى راحت تشتد على مختلف المستويات فى قلب قيادة الثورة نفسها ، حدث الانقسام فى قلب حدتو جارفا اياها وباكملها الى الرأى القائل بأنها دكتاتورية عسكرية وليست ثورة وطنية !! وبعد ان كانت «حدتو» هى المنبر الشيوعى الوحيد المؤيد والمساند لثورة يوليو ، باتت مثل غيرها من التنظيمات الشيوعية الأخرى ، معادية للثورة وعاملة على اسقاطها .

وهكذا فقدت «حدتو» استقلاليتها وتميزها بنضج احساسها الوطنى .. واصبحت جزءا مذابا فى المحيط الكبير المعادى لثورة مصر الوطنية على المستوى المحلى والعالمى .. ولم يعد لى هم فى العالم إلا اسقاط هؤلاء الذين استبشرنا بهم ذات يوم .

كانت مأساة .. بل قل مهزلة !!

● ● ●

إننى الآن اكتب بروح الاعتراف المصحوب بالرغبة العميقة

فى التطهر الكامل من كل ذنوب وحماقات التطرف المقترن بالجهل والتعصب وروح الادعاء المرتبطة بالانقياد الأعمى .. غير عابىء بأى اتهامات تكال لى من هؤلاء الطوطميين عبدة الاوثان الذهنية ، بانني مرتد .. وانهزامى .. وإننى احاول التغطية على موقفى الذى اتخذته بعد ذلك وبحسم : هجر عالم التنظيمات والتشبث بحريتي .. وبمسئوليتى الشخصية جدا .. والخاصة جدا ، وطارحا خلفى ذلك الاحتماء بما يسمى «المسئولية الجماعية» .. تلك التى تجب فى النهاية مسئولية الفرد .. وتعفيه حتى من مسئولية إخطائه .. اذ يسرع بالقائها على الآخرين !!

كان ذلك هو الدرس الأكبر الذى تلقيته من تلك الفترة المشحونة بالصراع على المستوى الشخصى .. وعلى مستوى الوطن والثورة بشكل عام .. والذى ادخلنى فيما بعد فى صراع مرير مع الطوطميين .. وكانت المرارة الاعظم ان من دخل معى فى الصراع .. هم الاحباب واقرب المقربين الى قلبى .

ولكن تلك قصة لاتزال بعيدة .. ذلك ان الاحداث كانت ولاتزال فى طور البداية .. والامتحان الحق كان ينتظر الجميع !!

● ● ●

وقد فكرت أن يكون عنوان هذه الحلقة «صاحب الفضيلة السجن» ذلك انه بفضل الحياة فيه ، وجدت كل شىء قد

تعرى .. بعد أن أصبحنا جميعا فى عنبر واحد .. نتعامل باسمائنا وهوياتنا الحقيقية .. سقطت كل الاقنعة وكل رموز السرية .. وصرنا لنعيش مع بعضنا فى نور السجن . نور الظلأم !!

هناك في حى الحلمية الجديدة شارع اسمه نور الظلام .. ها أنا الآن داخل السجن فى منطقة نفسية ينطبق عليها هذا المعنى !! النور المنبثق من قلب الظلام .. ظلام السرية الذى انقشع وتطاير وتطايرت معه كل الأوهام والاقنعة !!

فقد أتاحت لى الاوقات التى كان يسمح لنا فيها بالخروج من الزنازين لنتجول فى فناء السجن ساعة أو اثنتين أو اكثر حسب رضا أو غضب مأمور السجن علينا ، أو قل حسب التعليمات العليا الصادرة اليه فيما يخصنا اتاحت لى هذه «الطوابير» كما تسميها اللائحة .. فرصة اللقاء الحر ببعض قيادات التنظيمات الأخرى ، ونما بيننا نوع من العلاقة الانسانية التى سرعان ما تحولت الى صداقة شخصية رغم اختلاف انتمائنا التنظيمى ، ومن خلالهم تعرفت أو قل اكتشفت الكثير من اسرار الحركة الشيوعية فلأول مرة كنت اسمع عن تلك الوحدة غير المبدئية التى نمت بين «اسكرا» و«الحركة المصرية ونحشم» .. وان ذلك هو فى الاصل أس البلاء والفساد .. كيف ؟! لانها قامت على اساس مساومات وصفقات .. فقد كان كل تنظيم يناضل من اجل ان يستولى على اكبر عدد من المواقع الرئيسية فى التنظيم الجديد ..

وتذكرت انى من خلال هذا النوع من الصراع ،، صعدت الى مسئول دعاية عن حى شعبى بأكمله .. دون ان اكون معدا او مؤهلا لذلك .. وما حدث معى مع الكثيرين وعلى نحو اخطر ، فقد صعد الى منصب العضوية فى اللجنة المركزية عناصر كان مؤهلها الرئيسى والوحيد انها بروليتارية . تلك بالذات كانت من اكبر صدمات الافاقة التى حدثت لى فى السجن .. فقد فوجئت بعناصر ما كان يخطر ابدا ببالى انها من الممكن ان تكون على اى مستوى بارز فى التنظيم .. واذا بهم اعضاء فى اللجنة المركزية ، أو مسئولو مناطق كبرى ومرشحون للتصعيد الى ل . م !!

وبدا لى التنظيم أقرب ما يكون الى عزبة أو اقطاعية يتم الترشيح والتعبير فيها على أساس الولاء الشخصى لصاحبها ، وليس على أساس الخبرة والولاء للمبدأ !

كما وقفت على اخبار ذلك التكتل الثورى الذى حدث من قبل فى «حدتو» نفسها .. والذى قاده «سليمان» شهدى عطية ومجموعته فى مواجهة نفوذ هنرى كورييل وخطه السياسى اليمينى المسمى خط القوات الوطنية الديمقراطية ثم قيام هذا التكتل بسرقة مطابع التنظيم ومكتباته واجهزته الفنية .. مبررين ذلك بان لينين تكلم عن شرعية مثل هذه السرقة اذا كانت لصالح الحركة الثورية وحينذاك قام كورييل ومجموعته بالانتقام فهاجموا الشقة التى بها الاجهزة والمطابع المسروقة وكانوا يرتدون ملابس ضباط طيران رسمية واستردوها !!

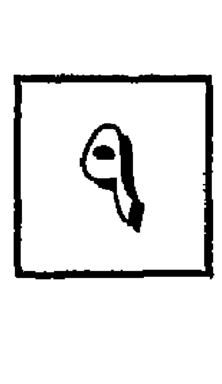
أشياء شديدة الشبه بما يحدث فى روايات الجيب أو فى

الحياة العادية بين العصابات التى تقاتل بعضها بعضا .. لكى يكون لها السيطرة والنفوذ الاعظم !

وهكذا .. يوما بعد يوم ، كانت هالة القدسية المحيطة بعالم التنظيم الذى عشت داخل هيكله السرى سنوات ، تأخذ فى التبدد والتلاشى ويحل محله احساس فى غاية الغرابة .. احساس أقرب مايكون الى الفرح والسعادة . انى استعيد حريتى وخفة حركتى . شعور شبيه بذلك الذى اعترانى حين تبدد عني وهم سطوة الحب الأول ايام المنصورة .. وسطوة رقابة أمي وزوج اختى بعد ان تركت القرية وعشت وحدى فى القاهرة . ثم بعد ذلك جاء التنظيم فغدا قوة رقابية هائلة تتحكم فى دقائق حياتى ، وبالتدريج حلت محل الرقابة الالهية .. ومحل ضميرى الشخصى أيضا !!

الآن اشعر انى استرددت حريتى ، رغم انى فى داخل السجن .. واننى قد اصبحت قطبا مقابل قطب التنظيم بأكمله .. لكنى لن اتعجل باعلان هذا .. فى هذه الظروف الصعبة .. والتى جاءنا فيها ان اعضاء اللجنة المركزية الذين نريد محاكمتهم فى المؤتمر قد سيقوا الى السجن الحربى .. وما أدراك ما السجن الحربى !!

● ● ●



خلوة العاشقين !

وتواترت علينا الأخبار قادمة من السجن الحربى ، كاشفة عن عالم جديد رهيب اسمه عالم التعذيب . وبعد أن كان جحيم السجن محصورا فى الاحساس المرير بفقد الحرية ، رأيت للجحيم بعدا آخر أكثر بشاعة وشناعة .. ذلك هو جحيم التعذيب إلى حد وقوع الانهيار الجسدى والنفسى !! وانقبضت روحى وأنا أسمع عن ذلك الزميل الذى من فرط ما لقى رفع الراية البيضاء وخرّ معترفا ـ وهو العضو فى اللجنة المركزية ـ بكل ماعنده من معلومات وأسرار عن التنظيم .. وكذلك عن ذلك الزميل الذى أصيب بمرض الشتات ، ولم يعد يفعل غير أن يكلم العصافير أحيانا وأحيانا أخرى يصدر بيانات النصر ويعلنها من خلال نافذة زنزانته الصغيرة أى أنه اقترب من عالم الجنون !! هكذا قيل !!

وأذكر ذلك الشعور الذى حطّ علينا جميعا حينذاك .. كان الشعور بالوجوم وبالخجل العميق من أنفسنا .. وبالتحديد من إصرارنا المحموم على عقد المؤتمر لإجراء المحاكمة لهؤلاء الرفاق !! إنها لوحشية ولا إنسانية منا . ثم من يدرى .. أليس من الجائز أن تدور الدوائر ونجد أنفسنا نحن أيضا فى هذا السجن الرهيب أو شبيهه ؟! .. وتراءت لى قبّعات الرأس

والبدل الكاكى : إننا نتعامل مع ضباط شديدى الشبه بالفاشست والنازيين .. وعاودتنى فكرة اغتصاب السلطة .. وأن هؤلاء العسكر نجحوا فى اختطاف السلطة بعد أن استخدمونا واستغلونا نحن المكافحين الوطنيين المدنيين فى حقبة الأربعينيات وأوائل الخمسينيات !! وتبدد من ذهنى ذلك الشعور القديم برومانسية النضال بين مختلف الأفكار والنظريات ، ورأيت أن الصراع بات صراع ديناصورات لايتحقق النصر فيه لأحد إلا بالاجهاز المطلق على الآخر وإبادته .. وأن الحاصل النهائى للصراع على الحكم وعلى السلطة ، آما قاتل أو مقتول .. ولا ولاسط !!

وقد رُوى فيما بعد على لسان أحد الكتاب الصحفيين الكبار .. أن عبدالناصر كان يقول له فى تلك الأيام : ليس هناك بديل أمامى غير « أبو زعبل » أو « الموت » !!

أما من ناحيتنا فقد ترسخ فى نفسى أننا كنا على حق حين غيرنا تحليلنا السياسى لحركة الجيش .. وأنها دكتاتورية عسكرية لاجدال .. ولابد من اسقاطها .. وإذا كانت هناك ثمة سلبيات وأخطاء عندنا ، فلا يعنى هذا إلقاء اللوم الأكبر علينا .. وعلى الرفاق .. بل على هؤلاء الضباط .. وإذن علينا بالتماسك لكى نصبح قوة فعلية فى مواجهتهم !! إلا أن الموقف على الطبيعة كان يدعو للرثاء وأنا أرى الحالة المأساوية التى عليها الحركة الشيوعية من انقسام وتشرذم !! إن الفكرة واحدة والمبدأ واحد .. فلم إذن لاتصبح واحدة وقوة واحدة .. بل حزبا واحدا موحدا .. لم لا ؟!

ـ عبدالله .. عبدالله ..

انتفضت من رقدتى .. إنها فتحية .. تنادى من فوق التل .. وقبل أن أقفز الى النافذة .. كنت أصيح باسمها .. لست وحدى بل كل من معى قالوها : فتحية ..

حفظوا صوتها ..

وفى لحظة ، كنت أنظر من المربعات الحديدية .. ويا للمفاجأة الرائعة : كانت أمى واقفة معها على التل . بهيئتها الحبيبة : القامة المفرودة والفستان الأسود .. وعصبة الرأس السوداء .. والنظارة الطبية .. ناظرة إلى أعلى .. بوجهها الباتر القسمات .. وبالذات أنفها الحاد الشامخ . مارأيتها أبدا فى أى يوم ضعيفة ، حتى فى لحظات الحزن .. دائما منتبهة وحاضرة اللب .. وعلى مستوى الأزمات .. الآن أرى كل هذا فى وقفتها وتطلّعها .. وصحت عليها ، ملوحا بكل ذراعى التى أخرجتها من المربعات الحديدية : نينا .. ازيك يانينا .. أنا كويس .. أنا راجل .. انت عارفه .

ـ من يومك ياضنايا .. من صغرك وانت عوضى عن أبوك .. شدّة وتزول .. وماتحملش همّ حاجة أبدا .. إيهاب وفتحية فى عينى ..

وربتت بكفها على ظهر فتحية بحنان ، فاحتوتها فتحية التى كانت تمسح عن عينيها دمعة تأثر وقبلتها .. تفجرت فى نفسى كل ينابيع السعادة . خايلتنى شجرة خضراء تنبت فى قلب

الصخور .. هاهى المعجزة تحدث .. وإذا لم أخرج من السجن إلا بهذا الحب الذى تولد بينهما بعد الكراهية العميقة التى كانت أمى تكنها لها لاكتفيت وشكرت من أجلها سجنى !

ـ متشكر أوى يافتحية على أنك جبت نينا ..

ـ دى هى اللى جابتنى .. مش انا اللى جبتها .. (اللماحية والذكاء وفضيلة عدم المنّ بما تفعل) كان نفسى تأكل من الفطير المشلتت والرز المعمر والبط والفراخ اللى جابتهم معاها من البلد .

ـ بالهنا والشفا ..

ـ ياما أكلنا من ايديها يافتحية ، وياما لسه حناكل .

ـ على فكرة أنا دلوقت باعمل محاولة أجيب زيارة خصوصية من النيابة ..

ـ ياسلام .. يبقى عظيم وماتنسيش تجيبى نُوَتْ صغيرة أكتب فيها ..

وظهر العسكرى فجأة .. كأنما انشقت الأرض عنه .. وراح يجعر عليهما ويهددهما بكعب بندقيته .. لكنه تهديد فى حقيقته مظهرى يقول به للحكومة ها أنا أقوم بواجبى (ياظلمة ياولاد الكلب) وعدت أصيح ، وقد ارتويت بشربة الماء الصغيرة : خلاص . كده كفاية يانينه .. وسلمى لى على أخويا البادى .. وعلى كل الناس فى ميت خميس واذا حد سألك علىّ

أنا ليه مسجون ، قوليله عشان بيكافح من أجل الغلابة والمظلومين !

واشتد رعب العسكرى بسبب كلماتى ، فتعالت صرخاته ومضى يدفع بهما حتى أجلاهما عن المكان ولم يبق لهما أثر إلا فى مخيلتى : فتحية ممسكة جيدا بأمى ومحافظة عليها خوف من أن تتعثر فى حفرة أو طوبة .. من كان يتصور هذا الانقلاب الرائع فى علاقتهما معا ؟!

هبطت أرضا .. صدمتنى جدران الزنزانة .. تمنيت لو كنا الآن فى الطابور لطرت جريا إلى فناء السجن وظللت أجرى فيه وأجرى .. ألف وأدور عددا من المرات .. فى داخلى طاقة حب واشتياق إلى الحياة والى الطيران فيها .. ورغم هذا ، فكم أنا سعيد .. سعيد يازملائى ويارفاقى سعادة لا حد لها .. انتهى عصر الكراهية وحل عصر الحب !! لقد كانت أمى فى البدء تكرهها بعدد شعر رأسها .. اعتبرت وقوعى فى حبها كارثة .. كانت ترى فيها واحدة من بنات النَّوَر أو الغجر اللاتى يجدن فن السحر مع الرجال ويكتبن أخطر التعاويذ لهم .. الأمر الذى دفعها ذات مرة إلى أن تسافر هى وأختى زينب الى مدينة طنطا .. مدينة « السيد البدوى » قاصدتين أحد المشايخ المشهورين بفك أعمال السحر .. وقد أخذتا معهما شيئا من ملابسى كأثر ليستعين به الشيخ حسب طريقته فى فك الطلسم عنى !! لكن شيئا من ذلك لم يجد .. بقيت على إصرارى .. فتضاعف احساسها بخطورتها ، واشتعلت

كراهيتها لها !! كانت تريد تزويجى من إحدى قريباتى فى القرية المجاورة لنا : ميت بدر خميس .. أبوها متوفى .. منذ سنوات قليلة ، ولها منه ميراث لايقل عن ثلاثين أو أربعين فدانا .. وكنت أعرف هذه الفتاة .. رأيتها كثيرا فى الصباح .. راكبة العربة الحنطور مع أختها الكبيرة ذاهبتين إلى المدرسة بالمنصورة أو عائدتين منها !! .. انها بنت مدارس ، وأنا فى كلية الحقوق ، واذن ما أنسبها وما أجملها زيجة .. لكن شيئا من ذلك لم يخطر لى على بال ولا وقفت عنده لحظة .. وأصررت على زواجى من تلك الفتاة التى لاتملك من الدنيا شيئا ولاحتى شهادة ولا أى شىء سوى هذا القلب الذى أحس به دائما يحتوى أعظم ممتلكات العالم !

آه .. الأيام السعيدة يارفاق لاتنقضى بانقضاء زمانها .. بل تبقى فى عمق أعماق القلب والذاكرة لكى تعود الينا أيام الشدة والمحنة لنعيشها مرة أخرى .. ونهزم به الغمة !!

وكان يمكن أن تضيع منى مثلما ضاعت كثيرات من قبل .. فقد كانت الصعلكة والتشرد مذهبى .. والألم العبقرى ضالتى !!

وذات يوم جاءتنى وقالت : فيه واحد جاى يخطبنى وأهلى مصممين .

قلت : وانت ايه رأيك ؟!

ـ رأيى شىء . وتصميم أهلى شىء تانى .

ـ والعمل ؟!

ـ (تنهدت) أنا عارفه انك لسه طالب .. وظروفك صعبة .

ـ يعنى ايه ؟!

ـ يعنى خلاص . ماعدناش حنقدر نتقابل بعد النهاردة !!

ـ ببساطه كده ؟!

لفحتنى تنهدة ندّت عن صدرها ولم تجب بكلمة .. ورأيت شفتيها ترتعشان فجأة وأغمضت عينيها فنزلت منهما دمعتان لؤلؤتان مسحتهما بيدها .. ثم استدارت .. ومضت مسرعة !

هوى قلبى وأنا معه إلى قرار سحيق !!

هاهى ذى أيام الوحدة والألم والضياع تعود ياعبدالله .. ليس لك الآن غير الورق والقلم تصرف بهم أحزانك .. تكتب لها خطاب وداع وتعزى به نفسك !! « .. الآن ياحبيبتى .. آن لى أن أقول لك وداعا .. وعلىَّ من الآن أن أبحث لروحى عن العزاء ولقلبى عن الدواء »

ولقد كنت أود أن أصنع لك عشا من خشب الورد والبنفسج والأوركيد ، عشا يضم وليفين جميلين جمعتهما الصدف السعيدة .. ثم فرقتهما الأيام القاسية لكنه القدر يقول كلمته .. فليعيننا الرب على أحزان أيامنا القادمة !!

تلك كانت لب كلمات الخطاب .. مازلت أحفظهما عن ظهر قلب .. وبالتأكيد مازالت هى الأخرى تحفظهما .. إن الكلمات الطيبة النابعة من القلب والمنطلقة بهاتف الفن هى التى

صنعت حبنا وأنقذته من سائر الأزمات .. فبعد ان اتخذنا قرار الفراق ، إذا بكلمات الخطاب تصلها .. وإذا بالصغيرة الرومانسية حبيسة الجدران تبكى ليلها ونهارها حزنا على ذلك العش المصنوع من خشب الورد والبنفسج والأوركيد .. والذى ضاع منها لأنها خضعت لتصميم أهلها ثم إذا بأحزانها تنقلب فجأة إلى ثورة معجونة بالكراهية لذلك الفتى المدلل ابن تاجر الحديد الكبير ، الذى خطبها والذى يدل اسمه « تيتا » على مجمل شخصيته !!

أغمض عيني وأطير بخيالى على أجنحة الذكريات السعيدة .. لقد كان الوقت غروبا حين رأيتها - وأنا جالس على المقهى ، تمر فجأة .. فنهضت فرحا والقلب يخفق .. وتبعتها .. ما أجملها وأشهاها .. فستان حرير ناعم أخضر .. والشعر الحرير .. الشعر الليل المنسدلة خصلاته على كتفيها .. والورد فى خديها .. لكن فرحتها الدائمة المعتادة لم تكن موجودة .. بل ثمة جدية قاطعة فى نظراتها .. وفى صوتها وهى تنهى إلىّ خبر فسخ خطوبتها .. وأنها هى التي أصرت على ذلك !! مامعنى هذا ؟! ودون أن أنطق أنا بالسؤال ، فوجئت بها تقول : مش انت المسئول طبعا عن القرار ده .. أنا المسئولة !!

بقدر مافرحت بكلماتها ، ضايقنى أنها تخرجنى من الموضوع ، وانها لاتحب أن تحملنى عبء شيء قد لا اريد حمله .. أو لا أقدر على مواجهته !!

كنت أحس عن يقين أن خطاب الوداع الذى كتبته لها ، هو الذى أشعل النار فى الرماد .. وأعطاها الشجاعة على أن تأخذ هذا الموقف !

ـ لسه محتفظة بجوابى ؟!

ـ محتفظة لأ .. لكن حافظاه .

ونظرت فى عينىّ بابتسامة خفيفة وتنهدت ثم قالت تتلو مقاطع منه غيبا : وكنت أريد أن أصنع لك عشا من خشب الورد والبنفسج والأوركيد .. عشا يجمع بين وليفين جميلين .. وتوقفت فجأة ، بينما كان قلبى يدق مع الكلمات وهى تتلوها .. يا إلهى .. ماأجملها .

وهى تقول كلماتى كأنما هى التى كتبتها وصادرة من قلبها .

اندفعت قائلا لها .. برجاء وثقة .. فتحية .. نفسى اقعد معاك شوية على راحتنا .. نتكلم مع بعض .. أنا عندى كلام كتير عايز اقولهولك ..

قالت بنفس الحنين : وأنا كمان .. عندى نفس الرغبة .

ـ طيب .. يبقى ايه المانع ؟!

ـ المكان .. وانت عارف ظروفى .

ـ حاقترح عليكى اقتراح .. ولو بتثقى فىَّ ، حتوافقى عليه !

- قول .

- تزورينى فى شقتى . أنا عايش لوحدى .. ممكن نقعد ونتكلم .

(وابتسمت) وأوعدك أن الشيطان مش حيكون تالتنا .

★ ★ ★

« ما أكرمها . ما أطيبها .. هذا دليل على انها حقا تحبنى »

كنت أقول ذلك لنفسى وأنا منطلق فى الشوارع أغنى بصوت عال .. وكنت أفرح بالأماكن الخالية بعض الشىء من الناس فأغنى بصوت أعلى .. أغنية « محمد عبدالمطلب » الشهيرة : شفت حبيبى وفرحت معاه .. ده الوصل جميل .. حلو يامحلاه .. شفت حبيبى .. ولم أكن أغنيها لنفسى وحدى .. بل أيضا للأصدقاء .. أعلنهم بأن الوصل عاد !! .. وكنت أفكر بأننا ننسج قصة حب لامثيل لها .. لقاؤنا الأول على الطريق .. قبلتنا الأولى تحت الشمس بين شواهد القبور .. اتفاقنا الحزين على الفراق .. ثم على اللقاء .. وأين ؟! فى شقتى .. أنا وهى .. وحدنا .. سر الأسرار الذى لا يعلمه إلا الله .. أعلم قدر التضحية الهائل والمغامرة الكبرى التى ستقوم عليها لتفعل هذا !!

وخطرت لى مشاهد من الأفلام .. والبطل يضىء الشموع لحبيبته أو ينسق من أجلها بعض أعواد الزهور .. إلا أننى اعتبرتها أفكارا تقليدية .. لا .. بل سأقدم لها مالم يقدمه من

قبل حبيب لحبيبته : الكريز .. أجل .. سأطعمها من حبات الكريز .. وأسقيها من عصيره .. وما أروع طعمه وما أجمل لونه ! لسوف أتفوق بهذا على كل المحبين فى العالم !! واستبدت بى النشوة فمضيت أواصل الغناء لنفسى : وشىء رائع آخر .. سيصبح بيتى هو عش غرامنا .. ووداعا لمرحلة التشرد فى الشوارع والحوارى والاستخفاء بين شواهد القبور !!



إن لم يتوقف العاشق السجين عند لحظة مثل هذه وبكل تفاصيلها ، فعند أى شىء يتوقف فى هذا العالم الجهم الكئيب المحاط بأشباح قصص القهر والتعذيب ؟! هذه هى نقرات أناملها .. حذرة ومتعجلة على الباب . أقفز جريا إلى الباب وأفتح لها .. وقبل أن تلقى التحية تنفلت إلى داخل الشقة خشية أن يراها أحد .. اطمئنها وأقفل خلفها الباب على الفور .. رقص قلبى من الفرح إذ رأيتها أصبحت فى حوزتى !! كانت على حال عظيم من الاضطراب والانفعال .. أرجعت ذلك الى خوفها الكامن فى أعماقها من شبح أخيها .. وشبح التهديد بالحبس وجز الشعر . ورأيت فى قدومها تضحية كبرى من أجلى .. وعلىَّ اذن أن أرد لها الجميل .. أن أحافظ عليها .. وأؤكد ثقتها بى ..

ـ تعالى نقعد فى أوضة المكتب .

قالت وقد زايلها قدر كبير من اضطرابها . أو هكذا أرادت

أن تبدو أمامى .. الا تشوه اللحظة بقلقها واضطرابها :

ـ عايزه أتفرج على شقتك .. عشان أعرف اتخيل أزاى أنت عايش !

وفرحت بابتسامتها وهى ترى الفوضى الضاربة ، والتراب المتراكم ، وحوض غسيل الوجه شبه المسدود ، وكذلك الأطباق والأوانى المكومة فى أحد أركان المطبخ دون غسيل .. واعتذرت عن ذلك لسفر سعيد الشغال الى القرية فى اجازة لعدة أيام .. وقالت جادة وبحماس : لو علىَّ كنت خليت لك الشقة زى الفل .. بس ياخسارة .. لازم امشى على طول .. أنا سرقت نفسى وجيت !

صدمتنى كلماتها .. قلت بصوت خافت ، متحكما فى غضبى : أظن مش معقول تبتدى الزيارة بالكلام عن الخروج .. ارجوك !

ندت عن صدرها تنهدة مسموعة ولم تعلق . أشرت لها على الحجرة التى استذكر فيها ، والتى أعددت فيها « مائدة الكريز » وسط الفوضى الضاربة فى عالم الشقة ، استطعت أن أخلق مساحة صغيرة مرتبة وجميلة : منضدة أمى الابنوسية ذات الأرجل الثلاث والشبيهة بالزهرة .. والمغطاة بمفرش ، وفوق المفرش علبة الكريز وطبقان زجاجيان صغيران غويطان اشتريتهما من احد المحلات بميدان السيدة زينب خصيصا للمناسبة .. وبجوار كل طبق ملعقة . و .. حول المائدة كرسيان خيرزان متواجهان ..

وقلت بفرح مشيرا لها بالجلوس : فكرت استقبلك بالزهور والشموع .. لكن لقيت الفكرة دى أجمل : عصير الكريز .. وحباته : أرجو تعجبك !

ألف معنى وألف انفعال رأيت وجهها الشهى الصغير يموج بها . وبدت لى - هى بنت السادسة أو السابعة عشر .. المتفتحة حديثا على الحياة ، تود لو تستنيم لهذا الواقع الشبيه بالأحلام . غير أنى ماكدت أفرغ بعضا من حبات الكريز وعصيره فى طبقها ثم أقدم لها الملعقة الصغيرة بحبة واحدة لاغير ، حتى فوجئت بها تتراجع بوجهها الى الخلف باسطة كفها علامة الرفض وقالت معتذرة بلطف : آسفة . الحاجات دى مش باحبها !

صدمنى الرد . ورأيت الحلم الذى عشت أنسجه بالخيال يتبدد .. الا أننى سرعان ما أدركت حقيقة تفكيرها .. قلت غاضبا وبسخرية :

- أهو أنت دلوقت بتفكرى بطريقة الأفلام العربى . الولد يسقى البنت حاجة أصفرة ، أو أحمرة .. ويضحك عليها !!

ندت عنها ضحكة صغيرة وقالت : شرف البنت زى عود الكبريت !!

أسرعت مكملا « مايولعش إلا مرة واحدة » .. قلتها بنفس لهجة يوسف بيه فضحكنا معا فى لحظة واحدة .

- أظن احنا حاجة تانية ..

ولم تعلق لا بالرفض ولا بالايجاب .. أعدت تقديم الملعقة بالحبة ..

ـ إقبليها منى .. قلتها بخليط من الرجاء والأمر .

ـ نظرت طويلا فى عينى ثم قالت بتنهده : دى وبس .

ـ عشان خاطرك .. دى وبس !

وابتلعتها كمن تقوم بمخاطرة كبرى ، ثم نهضت على الفور وهى تعالج مضغ الحبة وابتلاعها دون نواتها : كده كفاية . لازم أخرج دلوقت .

قلت مصدوما مدهوشا : بس احنا لسه ماتكلمناش ..

ماقلناش اى حاجة !

وتعالى اضطرابها : معلهش .. بكره نقول .. الأيام جايه ..

انفجرت غاضبا : جايه فين ؟! احنا لاعارفين نتكلم فى الشارع ، ولا فى المدافن .. ولا حتى فى البيوت .. دى مش طريقة !

ندت عنها تنهدة لافحة : عندك حق .. لكن أعمل ايه ؟! هى دى حياتى وهى دى ظروفى . انت ماتعرفش أنا عملت ايه عشان أجيلك فى الميعاد . عن اذنك !

وبخطوات ثابتة حاسمة ، اتجهت مباشرة إلى باب الشقة .. وبحرص بالغ كى لاتحدث أى صوت قد يكشف عن

وجودها ، فتحته وخرجت كالمتسللة ، ساحبة خلفها الباب بهدوء شديد أيضا .. وأغلقته ..

ووجدت نفسى وحدى .. مع الكريز !!

★ ★ ★



جـمـعـيـة طارت ماسألتش فيه !!

وهبط علينا وافد جديد وقع حديثا فى قبضة البوليس ! كنا ممددين سارحين أو جالسين مكومين ندفع الملل عن أنفسنا بتبادل الأحاديث والذكريات ، حين انتبهنا فجأة على وقع أقدام تقترب من زنزانتنا ، ثم إذا بصرير المفتاح وهو يدور فى ثقب الباب يصك أسماعنا . هى لابد حملة تفتيش للبحث من ممنوعات وتكديرنا !! توجهت أبصارنا إلى الباب الذى سرعان ما انفتح فتحة صغيرة تسمح بالكاد لدخول شخص واحد ، ثم وعلى الفور أغلق الباب خلفه !

ابتسم الآن لذكرى منظره فى تلك اللحظة والذى لم يتغير أبدا حتى بعد أن خرج من السجن وأصبح يعيش الحياة اليومية العادية .. بقى كما هو ، بنفس المنظر .. بنفس الايحاءات .. لكأنما هيئة الانسان ، مثل مبدئه يجب ألا تتغير بتغير المكان أو الزمان أو الأحداث ! كان أوضح ما فيه كتلة شعره الرمادية التى ذكرتنى بشعر القنفد الهائش النافر لحظات الخطر .. كما أن حاجبيه .. عظمتى الحاجبين كانتا بارزتين إلى الأمام بشكل ملحوظ كأنما تصنعان ساترا أو مظلة تحمى العينين المتحركتين بسرعة فى كل الاتجاهات .. وبدا أنه قادم من أهوال مطاردة طويلة ومضنية تغلبت فيها أخيرا

الأجهزة ! ومع هذا ، كانت تطل من علي شفتيه الغليظتين ثمة ابتسامة مريحة ومستريحة لا أثر فيها لأى تكلف أو ادعاء .. وقبل أن يخطو خطوة واحدة قدم نفسه إلينا : س . م . زميل فى حدتو تسمحو لي أشارككم المكان ، وأجركم عند الرفيق الأعلى ؟!

وتبادلنا على الفور الضحكات والنكات . اكتشفت فيه من اللحظات الأولى حبا كامنا للمرح يوازن به مشقة الحياة التى يحياها !! وكنت قد سمعت عنه من قبل كنموذج لهؤلاء المثقفين الثوريين على نمط أبطال رواية « الأم » الذين استهوتهم فكرة النضال واستبدت بهم . فنذروا أنفسهم من أجل رسالة إنسانية عظمى .. وترتب على هذا أنه هجر دراسته في كلية الطب ، كما هجر أيضا البيت والأسرة وكل ماينتمى إلى العالم القديم الذى نشأ فيه .. واحترف الكفاح من أجل خلق عالم جديد جدير بالانسانية العظيمة !! إلا أن قدره أوقعه أول ما ارتبط بعالم التنظيمات ، فى منظمة « م . ش . م » المشهورة بمشمش .. والبالغة التزمت والحذر والتشكك فى أى انسان لاينتمى إليها .. القاعدة أن كل اجنبى عنها « بوليس » حتى يثبت العكس !! .. ولهذا واتساقا مع طبيعته المنبسطة والمحبة للانطلاق وللمغامرات ، فقد خرج عليهم وعلى أسلوبهم هذا الذى ينتهى بالانسان إلى التقوقع وليس إلى النضال ، وانجذب إلى « حدتو » المعروفة بانفتاحها ونشاطها الديمقراطى الواسع بجانب نشاطها السرى !! ولشدة اخلاصه وتفرغه الكامل فقد صعد سريعا

وأصبح عضوا فى اللجنة المركزية .. وظل لعدة أشهر ، هو والقلة الباقية التى لم تقع بعد فى قبضة البوليس ، يقودون الكفاح ضد « الدكتاتورية العسكرية » !

كنا مع حزننا لوقوع أى زميل فى يد البوليس ، نفرح فى الوقت ذاته بقدومه كمصدر حى طازج لأخبار العالم الخارجى الذى انقطعنا عنه !

جلس القرفصاء على طريقة الكاتب المصرى القديم ومضى يتحدث بهدوء شديد وبلهجة تكاد تكون تقريرية جافة ليس فيها رائحة لعاطفة .. هكذا أراد أن يبدو أمامنا أول الأمر ولكن سرعان ماكشفت حقيقة مشاعره بحة صوته الواشية رغما عنه بمجاهدة الحزن وكبح جماح الغضب وهو يتكلم عن آخر أخبار تعذيب الزملاء فى السجن الحربى !! ولمحت ملامح وجهه الضخم الأسمر قد تقبضت رغما عنه ومضى يجاهد انفعالاته وهو يستنهض عزائمنا : يازملاء .. نحن الآن فى معركة ، ومهما كانت ثقتنا أن النصر النهائى سيكون لنا ، إلا أننا عبر الطريق ، سنلاقى من الأهوال الكثير .. فنحن نخوض صراعا طبقيا وتاريخيا قاسيا ومريرا .. إننا لانحارب فقط مجموعة عسكرية قفزت على السلطة واغتصبتها .. إننا نحارب أيضا كل الطبقات والفئات الرجعية المتحالفة معها .. ضدنا .. لأننا نحن المستقبل الحقيقى الذى يهدد مصالحهم ووجودهم نفسه !.. ولهذا حين نسمع اليوم عن أى خسائر تصيبنا ، يجب الا نصدم أو نهتز .. وأنا .أقول هذا الكلام

بمناسبة المعلومات التى وصلتنا ونحن مازلنا فى الخارج .. أن بعض الزملاء من شدة التعذيب خروا وأدلوا باعترافات تفصيلية بكل مايعرفونه من أسرار التنظيم .. بل وأسرار الحركة الشيوعية المصرية كلها !! (وذكر اسمين لا داعى للاشارة اليهما ولا حتى بالأحرف الأولى) والمطلوب الآن يازملاء ألا نشعر بأى إحباط أمام مثل هذه الأخبار ، بل نتقبلها كأشياء طبيعية فى عالم النضال .. ومن يقرأ تاريخ الحزب البلشفى سيجد من ذلك الكثير .. إلا أننا يجب أن نخرج من كل هذا بحقيقة خطيرة .. وهى أن العلة الحقيقية لكل هذه الكوارث والمصائب التى تتوالى علينا ، وتمكن أعداءنا منا ، هو ذلك الداء الوبيل .. مرض الانقسامية الذى يمتص كل قوانا .. فنحن يازملاء نحارب بعضنا اكثر مما نحارب أعداءنا !! ولكم أن تتصوروا المأساة التى أنا قادم منها ، قبل أن تنزل على أم رأسنا الضربة القاضية !!

كان السؤال الوحيد الذى يوجهه أى زميل إلى زميله الآخر : أنت مع من ؟! مع « بدر » أم مع « خليل » ؟

و « بدر » هو السكرتير العام لتنظيم حدتو والذى قاد حركة تغيير التحليل السياسى لمنظمة حدتو من التأييد الجارف لحركة الجيش ، إلى الهجوم العنيف عليها .. أما «خليل» .. فكان مصرا على عدم نفى الصفة الوطنية عن حركة الجيش رغم اختلافه مع بعض تصرفاتها .

- مع بدر .. أم مع خليل !!

وياليت الصراع كان حول تأصيل الخط الفكرى لكليهما وعرضه على القواعد لمناقشتها بطريقة موضوعية ومنظمة .. إلا أن الحادث كان شيئا مختلفا ومناقضا تماما .. كان شيئا همجيا .. فوضويا .. وشاعت الفوضى والتسيب فى كل أرجاء التنظيم .. وبات أشخاص القيادة المتخاصمين هم محور الصراع .. وأخذ كل منهم يعمل جاهدا ، أو متآمرا ، من أجل تصعيد العناصر التى يراها موالية له ، إلى أعلى المستويات .. أى إلى اللجنة المركزية والمكتب السياسى !! (وبسط كفيه فى أسى شديد) وهذه هى النتيجة : كيان واحد يضرب فى بعضه .. أى مأساة .. ومع هذا ، (وأشار بأصبعه كمن يستأذن وبملامح ترجو العفو عما سيقال) هناك حقيقة يجب أن تقال ، ومعذرة إذا كانت شخصية .. فأنا (ووضع كفه على صدره بثقة واعتزاز) رفضت أن أخرج مع الانقسام ، رغم ارتباطى الوثيق والتاريخى بقائده « الزميل بدر » وأعلنت إدانتى لما أسموه بالتيار الثورى . ولم أكن وحدى فى هذا ، وهذه شهادة للتاريخ ، بل كان معى الكثيرون .. (وذكر عدة أسماء حركية لم أكن أعرف معظمها) وقفنا كلنا ضد الانقسام .. وقفنا بقوة وصراحة ووضوح .. واعتقدنا - نحن الذين نجونا بأنفسنا من الانقسام ، أننا سوف ننجو من الطوفان .. وإذا بالطوفان يبتلع الجميع .. أغرقنا جميعا .. تحققت معنا حكاية القرموط والدودة التى فى السنارة .. قال القرموط الكبير لابنه القرموط الصغير محذرا إياه من الاقتراب من السنارة : خلى بالك . إياك .

والتزم القرموط الصغير بنصيحة ابيه .. ابتعد عن السنارة .. قاوم إغراءها .. غير أن شبكة نزلت فجأة ولمت الكل .. وحينذاك قال القرموط الصغير لأبيه : ايه ده يابا ؟!

قال القرموط الكبير : دى بلوة يا ابنى وحطت على الكل !

وهكذا .. شملت البلوى الجميع : المنقسمون وغير المنقسمين !!

★ ★ ★

رغم طرافة المثل وبلاغته ، لم ابتسم .. ذلك أنه كان يفيض بالمأساوية المطبقة علينا بخيوط محكمة كتلك الشبكة التي اقتنصت الجميع .. وتضاعف إحساسى بالاحباط !!

قال مواصلا .. بحماس : المهم الآن . ما العمل ؟! .. هو طريق واحد يازملاء .. ولاطريق غيره .. طريق الوحدة .. أن نتوحد .. ان ننبذ عهد الانقسام والتفكك والتفتت والتشرذم ، ونصبح قبضة واحدة .. كتلة واحدة .. ألسنا فى الأصل فكرة واحدة .. مبدأ واحداً .. حلما واحدا .. فلماذا إذن لانصبح يدا واحدة ؟! .. لم لا .. وهاهى ذى الفرصة مواتية لنا .. فرصة تاريخية جاد بها الزمن علينا .. كل الشيوعيين .. كل المنظمات .. كل القيادات موجودة هنا .. داخل عنبر واحد .. فلتكن هذه هى معركتنا .. أن نتوحد .. نتلاقى ونتناقش ونتصادم .. ولأن الفكرة واحدة .. والتوجه واحد ، والحلم واحد .. فلسوف ينتصر اتجاه الوحدة والتوحيد !! هذه يازملاء فيماعتقد معركتنا التى يجب أن تبدأ من اليوم ..

المعركة التى تثبت أننا حقا ثوار ، على مستوى الحلم ، وعلى مستوى التطبيق !

وأنا يازملاء لا أقول جملا إنشائية أو تمنيات ترسل فى الهواء .. بل عندنا الآن مشروع بذلك .. مشروع مكتمل جاهز لأن يعرض على قيادة كل المنظمات لمناقشته ..

تصوروا يازملاء لو تحقق هذا .. لو لم نخرج من السجن ـ مهما طالت مدته ـ الا بهذا الانجاز .. سنكون قد قمنا بالمهمة التى يذكرها لنا التاريخ : إننا خرجنا من فترة السجن بأعظم ثمرة .. أعظم إنجاز : الحزب الشيوعى المصرى الموحد !!

★ ★ ★

طوال ماكان هذا الوافد الجديد يتكلم ، وأنا أراه واحدا من أبطال الرواية التى أحلم بأن اكتبها عن السجن !! .. أتأمل جيدا ملامح وجهه ومختلف حركاته الجسدية وتعبيراته ولزماته .. مقدرا بنوع خاص ، تلك الشجاعة التى كشف بها جرائمنا ، وعرّى جراحنا ، باعثا فى نفسى روح الأمل والتفاؤل بتقديمه الحل العظيم على شكل مشروع قابل للتنفيذ : النضال من أجل تنظيم واحد يجمع الجميع . ووداعا لعصر التشرذم والانقسام !

ولأننى لحظتها كنت فى أشد الحاجة لمن يرفع معنوياتى ويعيدنى الى حالة اليقين بأننى حقا صاحب رسالة ، وأننى أقوم بعمل تاريخى فذ ، فقد أحسست بكلماته .. بمشروعه .. يفتح لى منفذا للضوء وللأمل ، وأن الحلم الذى أتعزى به عن

كل الخسائر التى منيت بها لم يصب فى مقتل ، وأننا مازلنا على الطريق العظيم الذى يقترن بالتضحيات الكبرى ويستحقها .. وعادت كلمات له ترن فى تجاويف أعماقى .. ورأيته يقولها فى الرواية التى سأكتبها : « نحن يازملاء نكافح من أجل عالم جديد .. من أجل بشرية جديدة .. ولهذا ـ وبالضرورة . لابد أن نكون نحن أولا النموذج .. أن نكون البشارة الأولى .. هذا هو مستوى كفاحنا .. وتحدينا !! ولحظتها قلت فرحا فى سرى : سأسميه فى الرواية : بشارة .. أو البشير !!

وقد عبرت له عن ذلك الخاطر ذات مرة ونحن نتمشى سويا فى فناء السجن أثناء أحد طوابير العصر ، فنظر لى بسعادة من تحت حاجبيه البارزين وقال : على فكرة أنا سمعت وانا بره إنك بتكتب قصص .. وانك أخدت جايزة على قصة .. و (ابتسم) واشتريت بفلوسها هدية للزميلة فتحية !!

أمسكته من ذراعه أكاد أعانقه : لازم هى اللى قالت لك ؟!

هز رأسه بالايجاب واكمل : قابلتها أكثر من مرة .. كان بخصوص عمل يخص عائلات المسجونين السياسيين .. زميلة ممتازة .. كلها حيوية . أنا باهنيك عليها !

أسعدنى تقريظه لها ، وسعدت أكثر بوصفها بالزميلة .. وتذكرت « ساشا » فى رواية « الأم » رحت أردد فى داخلى : الزميلة فتحية .. الزميلة فتحية !

قلت متعمدا الوقوف عند هذه النقطة : ولو أنها لسه ما

أصبحتش زميلة بحق وحقيق !! لسه على البر !

وفوجئت به ينظر فى عينى ويقول بطرف ابتسامة : ومين أدراك .. إنها لسه على البر ؟! مش جايز تكون نزلت البحر .. وفى الغويط كمان ؟! أحسست بقلبى يسقط وراءها فى البحر وأن شيئا كالروح .. كالانفاس يضيع منى .. يسلب منى !!

قلت بثقة مجاهدا الهزّة التى أصابتنى : من غير ماتقوللى مش ممكن !

قال : ومش ممكن ليه ؟! بالعكس .. الطبيعى ماتقولكش انت عارف عالم التنظيمات السرية . وقوانينه اللى فوق أى روابط أو عواطف شخصية !

ماذا يقصد بالضبط ؟! هل يمتحننى . هل يلعب بى . هل يعطينى من باب الحب الرفاقىّ درسا أو نصيحة ؟!

قال بابتسامة عريضة وقد أدرك انزعاجى الداخلى : واضح إنك لسه فى مرحلة : « قلب المحب دليله »

ـ يعنى ؟!

ـ يعنى انا باعتقد ان احساسك مضبوط .وانها لسه فعلا على البر .. بس نوعها بيقول انها مش حتقعد كتير على البر ..

قلت هازما ذلك القلق الذى استبد بى رغما عنى : على كل حال ده شىء مفيد للحركة الثورية ..

قال مؤكدا : صح .. لكن بشرط .. ان ارتباطها مايكونش

على حساب علاقتكم الجميلة .. المفروض النضال ما يتناقضش مع الحب .

قلت : بالعكس .. النضال بيزيد من الحب ..

قال : لما يكون نضال حقيقى ، نابع من فكر ثورى حقيقى سليم .. (وندّت عنه تنهدة أدركت من حرارتها أن بداخله أبعادا خفية حزينة لم اكتشفها بعد) عايز احكيلك تجربتى اللى حتفسر لك كل اللى باقولهولك ده . وعموما .. وارتسمت على فمه ابتسامة : أنا باعتقد انك مش حتكون عضو فى جمعيتنا إياها !

- أى جمعية ؟!

- جمعية « طارت ماسألتش فيه » !

استوقفتنى غرابة وطرافة الاسم : دى كلمات فى أغنية لأسمهان .

- بالظبط .. (ثم قال يذكرنى بافتتاحيتها) دخلت مرة جنينه .. اسلى نفسى الحزينة واسمع أغانى الطيور ..

قلت مكملا : بصيت لقيت عالغصون .. بلبل ووياه وليفته .. عايش معاها فى سكون ..

قال : وفجأة .. طارت ماسألتش فيه .. مسكين ياروحى عليه !

خليط من الواقع والخيال .. من المنطق والخرافة .. كان

يجمع فى شخصيته .. وحكى لى ـ مفجّرا شحنة كامنة لزمن طويل فى أعماق نفسه .. قصته الدرامية الغريبة مع تلك التى تزوجها .. ثم فجأة ، طارت ولم تسأل فيه !!

كانت عضوة معه فى منظمة م . ش . م . (مشمش) .. وألقى القبض عليهما فى وقت واحد .. دخل هو سجن مصر .. وهى دخلت سجن النساء بالقناطر .. فازداد بينهما الحب اشتعالا .. وراحا يتراسلان وقد بدا لهما أن عصر الحب الحقيقى لم يبدأ بينهما إلا بعد أن فرق الأعداء بينهما !! غير أن شيئا غريبا وغير متوقع على الاطلاق حدث له قبل أن يقضى مدة الحكم ويخرج الى الحرية : لقد اكتشف مهزلة المنهج المشمشى من حيث كونهم أناسا انعزاليين شكاكين .. وأنهم فى النهاية هروبيون خوافون ، وليسوا شجعانا مناضلين !! فأعلن تركه لتنظيمهم ، وانتقاله إلى تنظيم « حدتو » المتخفف والمتحرر والمبسوطة أجنحته على كل أرجاء المجتمع والفئات والحياة !!

ثم جاء يوم الافراج .. وكانت الصدمة الكبرى فى انتظاره !! فوجىء بمأمور السجن يقدم له ورقة ويطلب منه التوقيع عليها باستلامها ..

كان حكما بالطلاق ..

ودارت به الدنيا .. ومع هذا تماسك .. واتجه من فوره إلى المسئولة الأولى فى التنظيم .. وكان اسمها « أوديت » وقبل

أن يعرض عليها الموضوع ، فوجيء بها تقول مهاجمة : انت تسير فى نفس الطريق الذى سار فيه « تيتو » من قبل .. نعم .. وأياك أن تفكر بأنك إذا تركتنا ستخرج زوجتك معك !!

ورغم هذا ، فقد ذهب لزيارتها فى السجن .. ومعه رسالة مكتوبة صبّ فيها كل مشاعر حنينه اليها ، وكذلك حيثيات انتقاله إلى النضال فى موقع آخر .. وإذا بها تقول أول مارأته من خلال السلك وقد بدا عليها الغضب بل والكراهية : كيف تجرؤ ؟! .. وقالها لى بالانجليزية كما قالتها هى له : How do you dare ? وخرجت يومها من الزيارة وقد أيقنت انى فقدتها الى الأبد !! ؤؤ

ولقد واتتنى بعد ذلك الفرصة للزواج من فتاة ريفية بسيطة فى أحدى القرى التى كلفنى التنظيم بأن تكون هى مجال كفاحى ؤؤ ثم قبض علىّ ؤؤ واذا بى بعد شهور قلائل تصلنى فى السجن ورقة طلاقها منى !! ؤؤ يومها رحت أضحك واقهقه والدموع تنز من عينى ؤؤ وولدت فكرة تكوين جمعية اسمها : « طارت ماسألتش فيه » ذلك أننى لم أكن وحدى الذى يحدث معه هذا ؤؤ كان هناك « فلان » الاستاذ فى جامعة (كذا) والذى طلقته زوجته بعد أن صدر الحكم عليه بخمس سنوات لتتزوج من رجل أعمال مشهور واسع الثراء ! كذلك الزميل (؟؟؟؟؟) الذى تركته خطيبته بعد ان قبض عليه ؟؟ وذلك بضغط شديد من أهلها !! ؤؤ وحينذاك ؤؤ لما وجدنا أننا اصبحنا الترجمة الحية والحقيقية للأغنية ؛ فكرنا بأن نكوّن هذه الجمعية التى فيما اظن سيتكاثر أعضاؤها ؤؤ « جمعية

طارت ماسألتش فيه »

★ ★ ★

رغم نبرة الفكاهة التى كان يتحدث بها ، فأننى كنت أدرك عمق الاحساس المأساوى الذى كان يحيط بعالمه !!

وقد كشفت لى حكاياته هذه عن عالم غريب سكانه أناس يتز يون بجلود وملامح بشرية ، الا أن ثمة تحولات بيولوجية حدثت فى داخلهم ، فأفقدتهم خلة البساطة والألفة والتسامح الانسانى !! وسيطرت على خيالى تلك التى اسمها « أوديت » ؤؤ قائدة (م ؤ ش ؤ م (وبدت لى كواحدة من أخطر الساحرات اللاتى يجدن فن التنويم وسلب الروح وغسل المخ !! وفكرت ؛ هنا تحدث أخطر وأبشع عملية يمكن أن تحدث لانسان ؤؤ قولبته فى شكل واحد ؤؤ وفكر واحد ؤؤ وفعل ورد فعل واحد ؛ ذلك هو مسخ البشر !!

هل يمكن أن يحدث هذا لفتحية ؟! هل يمكن أن تقع دون أن تدرى فى مثل هذه الشبكة الرهيبة ؟!

١١

زهرة الجبل !

رغم الركود العميق الذى كنا نعيش فيه داخل الزنازين ، فإننى كنت دائم الاحساس بأنى أعيش فوق منطقة زلازل أو براكين مع احتمال وقوع هزة أو كارثة أو مصيبة أو بلوى مجسّدة فى سماع خبر سيىء على المستوى الشخصى أو العام !

وآه من تلك النوبات التى كانت تنقض علىّ أحيانا دون أية مقدمات . نوبات من الاكتئاب الثقيل أحس معه بالأشياء تخبو وتفقد حقيقتها .. ولايبقى ماثلاً من الوجود سوى تلك العبثية التى تسخر من كل شىء ، إذ لاشىء إلا ونهايته الموت .. الموت اليقينى والقادم حتما ذات يوم .. وما أعمق ما لفكرة الموت من جذور فى نفسى .. منذ أيام القرية حيث كان الاحساس بالفناء وبالتلاشى يعاودنى كل يوم مع هبوط الغروب واقتراب زحف الليل بظلماته وهواجسه !! .. هنا الغروب أيضا يقترن بانتهاء الطابور وإطلاق الصفافير علينا آمرة ومنذرة بالاسراع بدخول الزنازين وقفل الأبواب والمرور علينا زنزانة بعد زنزانة للاطمئنان على أن العدد صحيح لم يهرب أحد منا ! .. كنت أحس بثقل الجدران المحيطة بى وكأنها رداء أسمنتى أرتديه ويكسر من ضلوعى ومن نظراتى ، فأقفز

وأتشعلق بنافذة الزنزانة أطمئن الى أن العالم لايزال موجودا .. وكان ثمة منظر يسبى العيون والقلوب إذ تلوح لنا واجهات بعض بيوت حى القلعة من بعيد .. لبعضها فى الأدوار العليا شرفات يبدو منها ثياب مغسولة ومنشورة على حبال الغسيل تتراقص وتتماوج مع أنسام الغروب ، فأكاد ـ لولا الحياء ـ أصرخ بالحنين لأن أكون واقفا فى شرفة بيتى ومعى طفلى ايهاب أشير له على أسراب حمام العصارى .. وأحس بالعجز مع الحنين يكاد يفتت قلبى .. غير أن وجهها سرعان ماكان يلوح لى .. محتلا كل شاشة الوجود .. بابتسامتها .. بحيويتها .. بتفاؤلها بفرحتها بالحياة .. بالحب .. بأنها عثرت علىَّ وأنى عثرت عليها .. وحينذاك أسترد أنفاسى الذاهبة ، ويعود إلىَّ إحساسى بالموقع الذى أنا فيه .. موقع النضال .. وأننى الذى اخترت .. وأنه لابأس من الأزمات .. بل لابد منها .. أجل .. لابد من الألم .. على أن يكون مقترنا بالشموخ !! يتملكنى الاحساس بالشجن .. أمسك بالورقة والقلم وأنتحى ركنا .. وأكتب : ماتفيض به الروح .

هى صرخة حب وحنين للحرية وللحياة ومناشدة وتحريض أيضا على الصمود وعلى التحدى ! .. ألا تكسرنا التجربة بل نخرج منها مرفوعى الرأس !! كما أن هناك بعدا آخر فى عمق العقل الباطن ، أننى كنت أهرع سرا إلى الكتابة خلاصا من غمة وخنقة السجن .. وربما كانت تلك هى البداية الملموسة والمجسدة لاحساسى بخطورة قيمة الكتابة ـ والفن بشكل عام

ـ من حيث كونه سلاحا في يد الحياة ضد عناصر الفناء ! ..

كانت خصوبية هذه المشاعر والمعانى تشكّل لى عزاء رائعا عن محنة السجن ، بل ويرفعنى فوقها ، وينقلنى من التعزّى إلى الابتهاج والفرح الحقيقى بهذا الذى حدث لى .. وأن تجربة السجن سوف تصنع منى كاتبا متميزا له طعمه الذى لايختلط بطعم الآخرين !

كان ذلك في الحقيقة هو جوهر فرحتى .. ثم إذا بهذه الفرحة تصبح هى أيضا فرحتها .. أن تجد نفسها تكتب .. لكن فرحتها بالتأكيد كانت أخطر وأغرب هي البنت الصغيرة التى لم تكمل تعليمها الأوّلى .. هى التى خطّها حتى الآن مثل نبش الفراخ .. تغامر ـ استجابة لطلبى وأنا أصيح عليها من مربعات الحديد : اكتبى لى يافتحية .. لابد أن تكتبى لى ..

ووصلتنى رسالتها الأولى :

إليك .. يامن أقدسك وأحترم كل ذرة فى حياتك التى هى جزء حى من الحياة ..

إليك .. يامن تعيش في ثقة وإيمان .. وتفاؤل من الحياة وأبناء الحياة الذين تعمل من أجلهم .. ومن أجل فكرة تنشر على حياتنا السعادة والهناء والاستقرار ، وتفتح لنا أبواب المستقبل العظيم ..

إليكم جميعا ، احترامى واحترام الشباب الواعى خارج سجنكم ، ولكن فى السجن الكبير .. إليك سلام كبير .. كبير جدا جدا ..
عبده ياحبيبى .

هذا النداء هو ندائى لك فى الماضى .. إنه نداء « فافى » أرجو أن تقبله وان تحتفظ به .. هذه الأيام الماضية ، بنداءاتها ، أحترمها وأعبدها ، لأنها كانت بداية حياتنا سويا .. وهذه البداية هى أجمل وأحب شىء إلى قلبى . لأنها وصلت حياتى بحياتك ، أو بالأحرى وصلت حياتى بالحياة .. والمعرفة ، والحرية ، والثقة بالنفس .. وعرفت كيف أواجه الحياة بكامل حقيقتها ، أو بالأحرى عرفت الطريق الى الوصول إلى مواجهة الحياة بوعى كامل .

وكما قال لنا ذلك العبقرى الجبار « مكسيم جوركى » فى قصة « الأم » التى تعيش الآن فى أعماقى ، أن السعادة فى الطريق الشاق الطويل .. ذلك الطريق الذى ينبثق منه النور الذى لاينطفىء أبدا .. وهذا النور هو الايمان الذى يكمن فى نفوسنا للمستقبل .. هو فكرة التطور التى نراها بعيوننا ، ونلمسها فى حياتنا وحياة البشر أجمعين ..

معذرة .. فإنى لا أذكر هذه الجملة بالضبط ، ولكنها تكمن فى نفسى هكذا !!

الآن .. الساعة العاشرة مساء .. الجميع ناموا .. ونام ولدنا الحبيب إيهاب بعد شقاوة طول النهار وكثرة الضحك مع أولاد الحى ..

الليل الآن يذكرنى بتلك الجلسات التى كنا نجلسها فى البلكونة أنت جالس ، وأنا نائمة بجوارك فى السكون العميق ، والهدوء الجميل والحب الكامل والسعادة بالحياة .. وكانت

تفيض سعادتنا حتى نسكن مع السكون .. كان الصمت جميلا .. وكان صمتا عن الكلام فقط .. (وهنا ورقتان مفقودتان من الرسالة الأصلية ، ضاعتا للأسف مع مر السنين) .. وانحدرت من عينى دمعة كبيرة .. وكانت الدمعة الأولى منذ دخولك السجن ! .. وبعد لحظات .. وأنا غارقة فى الأفكار .. ابتسمت .. ابتسامة كبيرة .. أنت تعرف مداها ! .. وبعد وقت قصير ، لم يصبح المنزل منزلنا .. المخدع .. والصالون .. ولعب إيهاب .. وبقية الأشياء .. تراكم كل ذلك فوق بعضه !

ولم يكن هذا المنظر غريبا على ذهنى .. وكدست الأشياء كلها فى الحجرة التى كانت .. !! ثم قفلتها .. وعدت الى منزل أمى !

زوجى ..

إليك قبلاتى وقبلات ابنك العزيز .. ولك ألف سلام وسلام ..

أنا معجبة جدا بقصتك « أطفالنا » وكنت أريد ان أعلق عليها .. ولكن معذرة ..

زوجتك
فتحية

إن كنت قد عرفت فى حياتى بعض هناءات لاتنسى فهذه كانت لاشك إحداهما .. إن لم تكن أروعها وأعظمها على

الاطلاق قياسا بزمانها .. ومكانها .. ومغزاها !! .. ذلك الشعور الغامر العذب الذى يملأ قلب السجين بالأمان وبالقوة .. مثل شلال من ضياء يكتسح أمامه كل أوشاب القلق .. واذا بمحنة السجن تتحول الى قوة ومصدر للثقة وللفرح ! .. ومضيت أتمتم فى أعماقى : أشكرك ياإلهى . وتباركت أيتها الأيام والليالى التى جمعتنا .. تباركت أيتها الجلسات والمكاشفات والحوارات والقراءات ويا كل الكتب التى أطلقت خيالنا فى سماوات واحدة .. ووحدت من رؤانا !! .. وها قد حدثت المعجزة أيها الرفاق ونبتت فى قلب الصحراء شجرة .. وفى قلب صخور الجبل زهرة !

وضممت الرسالة التى أخفيتها فى جيبى إلى صدرى ، اعتزازا وإشفاقا من احتمال وقوعها - خلال حملة تفتيش مفاجئة - فى يد البوليس وينتزعونها منى . لو حدث هذا فهم ينتزعون روحى !

لسوف أرتب خطة لتهريبها من السجن وإعادتها إليها كى تحتفظ بها فى مكان آمن حتى يأتى اليوم الذى أخرج فيه إلى الحرية ونقرؤها معا .. ونتذكر المحنة التى اجتزناها بالحب وبالصمود .. وبروح الفن أيضا ..

آه .. متى يأتى هذا اليوم .. متى ؟!

★ ★ ★

تلك الفترة بالذات من عمر مصر وعمر الثورة كانت الأحداث تتلاحق فيها على نحو يأخذ بالأنفاس على مختلف

المستويات .. لاتترك شيئا أو إنسانا أو طبقة أو حتى موجة أو صخرة راقدة فى قاع بحيرة دون أن تقلقلها من مكانها وتدفع بها إلى الحركة على نحو ما !!

كان الزلزال الكبير المفاجىء قد حدث ذات ليل وأسقط الصرح التاريخى الهائل .. صرح النظام الملكى القائم على أرض الفراعنة منذ آلاف السنين واعلنت الجمهورية المصرية لأول مرة فى التاريخ .

وكان هذا الزلزال مفهوما ومرتقبا ، غير أن توابعه التى توالت بعد ذلك سرعان ماتكشفت عن خفايا ومفاجآت خطيرة ومثيرة بلغت حد تهديد الثورة نفسها بالتفكك والانهيار ! فقد ظهر أن إسقاط الملك وترحيله من مصر كان من أكثر الأمور يسرا وبساطة ، ما أشبهه حينذاك باسقاط ثمرة متهالكة تنتظر هزة بسيطة لفروع الشجرة .. أما الشجرة نفسها .. أما النظام الاجتماعى والسياسى فقد كان لايزال قائما .. متمكنا وضاربا فى الأرض بجذوره وتقاليده التاريخية العميقة !

وقد تمثلت ضراوة الصراع التى وجدت الثورة نفسها تخوضه ، صراع موت أو حياة ، ليس فقط فى عداء القطبين النقيضين لها الشيوعيين والاخوان المسلمين ، ومعهما ـ فى حلف غير مقدس ـ سائر القوى السياسية الأخرى : الوفد ـ مصر الفتاة (الحزب الاشتراكى) وكل الأحزاب الرجعية القديمة المنتمية للعالم الملكى الاقطاعى الاستعمارى .. بل وجدت نفسها أيضا فى صراع آخر أعتى وأكثر خطورة ..

تمثل فى ذلك الانقسام الذى أعلن عن نفسه داخل مجلس قيادة الثورة نفسه ، كاشفا عن كتلتين أو تيارين متصارعين على السلطة .. أحدهما بقيادة جمال عبدالناصر .. الضابط الصاعد لايزال والذى نجح حتى الآن فى أن يصبح رئيسا للوزراء ووزيرا للداخلية .. والثانى بقيادة محمد نجيب الذى أعلن رئيسا للجمهورية وبالتالى رئيسا لمجلس قيادة الثورة .. ومن هنا كان يستمد الاحساس بقوته وشرعيته .. رغم أن الكل كان يعرف إنه مجرد واجهة مؤقتة !! .. ولكن إلى متى سيستمر هذا الصراع .. وإلى أين سينتهى .. لا أحد يدرى !

وقد كانت أخبار تلك الصراعات ترد إلينا متسربة فى الزيارات وفى الخطابات وفى التقارير المهربة ، مجسدة فى أخبار غامضة عن إضرابات واعتصامات فى بعض أسلحة الجيش أهمها سلاح الفرسان ، وفى اتساع هوة الصراع بين الرئيس العلنى والشكلى محمد نجيب وبين الرئيس الحقيقى الخفى جمال عبدالناصر .. ثم فى محاولة جماعة الاخوان المسلمين اغتيال جمال عبدالناصر بإطلاق الرصاص عليه وهو يخطب فى الجماهير فى ميدان المنشية بالاسكندرية الأمر الذى انتهى بالقبض على الآلاف منهم ، ثم صدر الحكم بالاعدام على ستة من قادتهم ، كنت أعرف أحدهم معرفة شخصية هو « الهنداوى دوير » فقد كان طالبا معى فى كلية الحقوق بنفس الصف الدراسى ، كما كان جارا لأحد أصدقائى فى السكن ! وتشاء غرائب الأقدار أن أراه بعد سماعى الخبر بفترة قصيرة ، مرتديا ثياب الاعدام الحمراء ..

مساقا إلى حجرة المشنقة .. ذلك أننا فى نفس تلك الفتر جاءنا الاعلان بتقديمنا الى المحاكمة ، فنقلونا الى سجز الاستئناف الملاصق لمبنى محكمة مصر .. والذى تنفذ فيا جميع أحكام الاعدام ..

وقد كانت مصادفة غريبة ورهيبة رجت قلبى من الأعماق : أن تكون زنزانتى بالضبط فى مواجهة حجرة الاعدام ولكن .. فلنؤجل الآن ذلك المشهد المأساوى الرهيب إلى أوانه الطبيعى .

★ ★ ★

وقد أغرتنا تلك الصراعات والأزمات التى كنا نسمع بها تواجه الثورة ، متخيلين أنها مسامير تدق فى نعشها ، مع قرب تقديمنا الى المحاكمة أغرانا كل ذلك بأن نخوض معركة لإصلاح أحوالنا المعيشية فى السجن .. ولم نجد خيرا من إعلان الاضراب عن الطعام .. محددين مطالبنا الأساسية : الحصول على أسرة ننام عليها ـ السماح بدخول الجرائد والكتب الدراسية والقانونية التى لا خطر منها ، مع بقاء نور الكهرباء مضاء فى الزنازين حتى الساعة الثانية عشرة .. وأن يكون لنا الحق فى شراء المعلبات والسجائر من كانتين السجن !!

وقد رأينا لكى ينجح الاضراب لابد أن يكون مصحوبا فى الخارج بحملة إعلامية ضخمة على مستوى داخل البلاد وخارجها .. أما الخارج فستتكفل به عناصر « القيادة المؤقتة » التى لاتزال هاربة لم تقع بعد ، وكان من أهمهم

الكاتب والصحفى الشهير البارز صلاح حافظ .. وأما الداخل .. فجموع أهالى المسجونين ، وزوجاتهم وأمهاتهم بنوع خاص ، هن اللاتى سيتصدرن القيام بهذه الحملة !! ..
وما أن جاء موعد بدء الاضراب مهيئا نفسى لتلك المعركة الخطيرة والأولى من نوعها فى حياتى ، معركة ستكون مع الجوع .. مع الضعف .. مع التهافت .. مع الصبر على المهالك . ولسوف أضع بجوارى ورقة وقلما وأدون جميع مشاعرى وإحساسى أولا بأول .. كى يكون ذلك جزءا من الرواية القادمة .. فصلا حيا ساخنا وخطيرا بذاته .. واذا بأحد المسئولين يأتينى ويطلب منى همسا ألا أدخل الاضراب !! .. لماذا ؟! لأن مهمة أخطر - فى خدمة الاضراب علىّ أن أقوم بها : لقد تقرر أن أكون أنا ممثل التنظيم أمام الادارة فى ترتيب الزيارات وحمل مسئولياتها .. ومن خلال ذلك سيمكننى - بطرق تقليدية مرونة - تبديل زيارات بزيارات .. وزوارا بزوار .. على النحو الذى يخدم الاضراب ويغذى الخارج أولا بأول بأخباره !! وسرعان ما أدركت السر الحقيقى فى اختيارى - أنا المحامى - لمثل هذه المهمة .. اكتشفته وهو يعبر عن أمله وثقته فى أن « الزميلة » فتحية .. ستستطيع من خلال هذا الوضع - القيام بالكثير لانجاح الاضراب على المستوى الجماهيرى والاعلامى !!

وفكرت فى تلك اللحظة أنه لو لم تكن فتحية هى زوجتى لما أعفونى من الاضراب ولما حمّلونى بهذه المهمة .. ولقد ضايقنى ذلك للوهلة الأولى ، انطلاقا من مشاعرى الرجولية

الشرقية .. الا أننى سرعان ما انتبهت الى نفسى .. إلى وضعى .. الى اللحظة التى أنا فيها .. لحظة جوهرها النضال .. وجميل أن يكون احساسهم بها هكذا .. إنها شجاعة .. ومتصدية .. وجماهيرية .. فما أكثر ما غذيت أنا فى نفسها كل هذه القيم .. أجل ما أكثر ماتخيلتها « ساشا » وأنا « بافل » فى رواية الأم .. لكنها ـ فتحية ـ أروع .. من المنظور الانسانى والدرامى .. ذلك أنها حامل .. وقد باتت الآن فى شهرها السادس أو السابع .. أو أكثر ربما .. لا أعرف على وجه التحديد .. وخالجنى الاحساس بالاشفاق عليها ، وعلى ابنى القادم (كنت أتصوره دائما ولدا) هذا الذى يؤكد وجودى ويعطى للغد القادم معنى أكيد .. إلا أننى كنت أعرف جلدها .. وتحمسها للمواقف الصعبة ، وحبها للتحدى ومواجهة المخاطر !! وها نحن فى لحظة .. فى موقف واحد يجمعنا .. أنا أدبر وأخطط من الداخل ، وهى تنفذ فى الخارج !! واندفعت فى مهمتى وقد تضاعف ايمانى وحماسى لها ! وقد عرفت من خلال تلك التجربة كيف يمكن تحريك الحشود الهائلة فى الخارج بينما المحرك الحقيقى كامن قابع داخل الزنازين ! وكانت النشرات السرية المكتوبة على ورق البفرة تنتقل منى اليها سرا فى الزيارات من خلال فتحات الأسلاك الفاصلة بينى وبينها !! وكانت أحيانا تتخفى فى ملابس بلدية أو فلاحية لتقوم بأكثر من زيارة فى اليوم الواحد ، لتوصل رسالة أو تلتقط تبليغا أو توجيها !! كان الأهالى يخرجون من الزيارات بعد رؤيتهم لابنائهم أو أزواجهم المتهالكين بفعل الاضراب عن الطعام شعلة من الثورة على

تلك الثورة التى تدفع ذويهم الى الهلاك !! .. ولم ينقض يومان حتى جاءنا الخبر بأن جمعا كبيرا من الزوجات والأمهات بينهم فتحية ، مررن على جميع الصحف اليومية ، والتقين برؤساء التحرير ، وفى اليوم التالى توجهن الى رئاسة الجمهورية وطلبوا مقابلة الرئيس محمد نجيب وقابلوه بالفعل وأبلغوه بالاضراب وبمطالب المضربين .

هى ثلاثة أيام ثم فى الرابع فوجئنا بادارة السجن تطلب منا فك الاضراب ، حيث أن الجهات العليا قد أمرت بالاستجابة لجميع مطالبنا : الأسرة ، والجرائد والمجلات .. ومد الاضاءة بالكهرباء حتى منتصف الليل !!

وغمرنا جميعا الفرح وازدادت الثقة بالنفس ! وتوقعت أن تأتى فتحية فى أية لحظة وتصعد التل وتنادى مهنئة بانتصارنا ، الا أن الأيام مرت فى صمت لاحركة منها ولاخبر عنها . لابد أن شيئا غير عادى قد حدث .. شىء غير طيب .. و

وصدق حدسى .. وعرفت من خلال احدى الزيارات تفاصيل ماحدث .. فما أن خرجن من لقاء الرئيس محمد نجيب ، حتى أحاطت بهن قوة من ضباط وعساكر وزارة الداخلية وقبضوا عليهم وأودعوهن تخشيبة قسم السيدة زينب .. ثم من قسم السيدة زينب نقلوها هى وحدها الى قسم المطرية لتبقى فى تخشيبته ـ وهى الحامل ـ ثلاثة أيام كنوع من العقاب والتهديد !! ثلاثة أيام لا أحد ـ ولاعائلتها تعلم عنها شيئا .. ولهذا ما أن أفرج عنها وعادت إلى البيت حتى فوجئت

بأخيها الأكبر ينقض عليها كالمجنون .. وانهال عليها ضربا دون أن يسألها ما الحكاية .

وما أعجب الصدف أن تصل أمي في نفس هذا اليوم على أمل زيارتي ، فتحتويها في صدرها ، ثم تطلب منها أن تجهز حقيبة ملابسها لتذهب معها الى ميت خميس .. لتعيش في قرية زوجها بضعة أيام في هدوء !!



موت ستالين .. وبدء ذوبان الجليـــد !!

يقول لك أى سجين أنه في السجن لا افضلية لفصل من فصول الزمان على فصل .. فالصيف حر خانق . والشتاء برد قارس .. ومهما قصر الليل هنا وطال هناك ، فاليوم ، تلك الوحدة الزمنية الخالدة ، لابد أن يمر علينا بدورته الكاملة بمحطاته الأربع وعشرين ساعة بلا أبسط نقصان أو تجاوز لأى سبب من الأسباب !

وكثيرا ماكنت أسمع أحدهم فى عنبر المسجونين العاديين المقابل لعنبرنا ، يصيح من النافذة بايقاع غنائى مليىء بالحنين وبالشجن :

هزّ الهلال ياسيد ..
ماتهزّ الهلال ياعم ياطنطاوى ..

فيهتز قلبى لصيحته .. وافكر بأنه لابد يقصد « سيدى السيد البدوى » ولىّ الله الساكن ضريحه فى طنطا .. أن يحرك ببركاته الزمن البطىء الراسخ .. ممثلا فى الهلال الوليد .. أن ينمو ، ويسرع بالاستدارة كى يكتمل فتكتمل الدورة ويقترب زمن الحرية !

وقد وجدتنى لفترة أرددها بلا وعى ، نائما أو صاحيا ،

مستريحا لايقاعها ورمزها !! .. كنت أحس باليوم مثل صخرة أحملها على كاهلى منذ أن أفتح عينى أول النهار حتى ينتهى ويأتى الليل والاحساس بالتعب والضنى قد فاض ، فأنزل الصخرة من على ظهرى وأنام .. ثم أستيقظ فى الصباح ، فاذا بالصخرة بجوارى ، فى انتظارى ، فأعاود حملها على الفور ليوم آخر وهكذا !! .. وأعود أردد مع نفسى : هز الهلال ياسيد .. ماتهز الهلال ياعم ياطنطاوى !

وأعتقد أن هذه واحدة من أخطر تراجيديات السجين .. أى سجين .. ملك أو شحاذ .. وزير أو خفير .. فيلسوف أو عبيط !!

وقد كنت فى تلك الأيام أتعجل مرور الليالى والأيام كى يحل موعد المحاكمة .. وكنت على حال عظيم من التوتر والقلق ، متراوحا بين التفاؤل والتشاؤم .. بين رؤيتى نفسى طائرا محلقا فى دروب وسماوات الحرية مع زوجتى وطفلى ، ننعم من جديد بهناءات الحياة البسيطة ، وأعود إلى مكتبى وأمارس مهنتى .. أدخل قاعة المحكمة محاميا لا متهما . لا يحيط بى العساكر بل الموكلون أصحاب القضايا !! .. وأمى تلهج بآيات الحمد والشكر لله أنه استجاب لدعائها وفك كربتى !! .. أجل من الممكن ان يحدث هذا ببساطة .. أن آخذ حكما بالبراءة أو حكما يسيرا جدا ، وذلك بفضل تلك الواقعة المعجزة التى بدرت من ذلك المخبر الانسانى ليلة القبض علىَّ ، حين تغافل أثناء التفتيش عنْ ذلك المخبأ الكبير لأوراق التنظيم أسفل منضدة المطبخ الخشبية .. ولم يرشد عنه

للضابط المشرف على عملية القبض .. وإلا لما كان هناك أدنى شك فى صدور حكم لايقل عن عشر أو سبع سنوات بالأشغال الشاقة !

أما الآن فلا دليل ضدى سوى منشورين مطبوعين بالرونيو ، من كل واحد نسختين أو ثلاثة ـ أحدهما يهاجم سياسة المفاوضات مع الانجليز ويمثل الثورة فيها رئيس الوزراء ووزير الداخلية جمال عبدالناصر .. ولذلك كان عنوانه : تسقط معاهدة جمال ـ هيد .. أما الثانى .. فكان عنوانه : « لا .. لاتفاقية السودان » .. هذان المنشوران يمكن تبرير وجودهما فى بيتى بانهما جاءانى بالبريد .. المهم أن لاشىء من مضبوطاتى يثبت انى عضو بتنظيم سرى يعمل على قلب نظام الحكم بالقوة .. وعلى هذا ، فالحكم بالبراءة ، أو على أسوأ الاحتمالات بحكم طفيف هو الشىء الطبيعى والمنطقى !! .. ولكن من يدرى .. إننى لا أحكم إلا بالظاهر وبالتمنى .. وأن ثمة مفاجآت خفية قد تكون بانتظارى أثناء المحاكمة تبرزها النيابة ضدى : اعترافات آخرين علىَّ ، أو اكتشاف تقارير خطية سبق أن كتبتها إبان مسئوليتى عن الدعاية بقسم السيدة زينب وظهرت على آخر لحظة !! وتذكرت مابلغنا عن أحد الأعضاء القياديين الذى انهار من أول لحظة بالسجن الحربى وأدلى باعترافات نجم عنها كشف وتصفية نشاط كل المنطقة التى كانت تتحرك بقيادته ! .. من يضمن أن شيئا مثل هذا لن يصيبنى ؟! أفكار وهواجس كانت تحلق بى حينا ثم تهوى بى حينا آخر . ورأيتنى وقد صدر الحكم ضدى

بعشر سنوات ، ثم طوحوا بى فى المجاهل والمنافى . وقد تمضى الشهور وربما السنون لا أعلم شيئا عن زوجتى وعن طفلى . بل عن طفلىّ الاثنين .. تربيهما وحدها .. وأنا ملقى بى فى الغياهب !! .. وامى .. التى ولدتنى بعد موت أبى بستة شهور ، لن تكف عن البكاء حزنا وهى من الأصل مريضة بعينيها .. ثم .. خلال سنوات المنافى والمجاهل هذه ، ما الذى سيحدث لزوجتى .. فتحية .. الجدعة نعم .. والشجاعة نعم .. والمحبة لى نعم .. ولكنها ـ ياالهى ـ انسانة .. من يضمن ؟! وحقيقة لاشك فيها ، أنها من المحال أن تنضم الى « جمعية طارت ماسألتش فيه » .. أجل .. محال أن تتركنى .. أو حتى تفكر .. مجرد التفكير فى هذا .. على الأقل من أجل ولدنا ايهاب .. ومن أجل الذى أو التى فى بطنها الآن !! .. ولكن .. فلنفترض أنه لم يكن بيننا ولد أو أولاد .. أكانت .. أكان من الممكن ؟!!

وإذ تستبد بى الهواجس ، أنفضها من رأسى نفضا كى أستطيع التنفس بسهولة وينتابنى الاحساس بالتحدى وقد هالتنى رؤيتى نفسى وهى تهبط بالتدريج إلى سفوح القلق المدمر . وأصرخ ـ بلا صوت ـ فى عمق نفسى : لا ياعبدالله .. لا لهذا القلق الذى يبدو كوحش يستطيبك غذاء له .. ولو استسلمت فسرعان ما سيلتهمك بالكامل ويقضى عليك !! .. أجل .. لا .. وليكن ما يكون .. ولأصطلى بعذابات الصراع الداخلى . ولكن .. فلأكن أنا المسيطر فى النهاية على الصراع .. ولأتذكر أن التاريخ لم يتحرك وينطلق الى

الأمام إلا بفضل هؤلاء الذين ارتفعوا فوق أزماتهم الشخصية ، وواجهوا المحنة بوعي وبسالة .. حولوها من مصدر للضعف إلى مصدر قوة .. من إحساس بالمذلة الى احساس بالفخار .. نعم .. فماذا لو ناقشني القاضي على الأقل في مضمون المنشورين اللذين ضبطا عندى : الهجوم والتشهير بالمفاوضات التي يترأسها جمال عبدالناصر مع الانجليز بغية اجلائهم عن قاعدتهم العسكرية في القناة ، وبالمفاوضات التي يترأسها صلاح سالم لحل مشكلة السودان ؟!

لسوف أشرح له قناعتي بهذا الهجوم .. هي وجهة نظر ياسيادة المستشار وانها لصادرة من منطلق الحب والاخلاص لهذا الوطن وتاريخه وشهدائه .. هؤلاء الشهداء الذين لاتزال دماؤهم ساخنة ، والذين عاصرناهم يسقطون على كوبرى عباس وفي ميدان قصر النيل صرعى الايمان بالمبدأ العظيم : الجلاء بالدماء .. الكفاح المسلح طريق الخلاص .. والغريب ياسيادة القاضي أن هؤلاء الذين يتفاوضون اليوم هم أنفسهم الذين كانوا يرفعون شعار الكفاح المسلح وهم خارج الحكم .. أما الآن ، وبعد أن استولوا على السلطة فقد لاذوا بذلك المبدأ الاستسلامي ..

مبدأ المفاوضات .. أليس في ذلك خيانة للعهد وللتاريخ وللشهداء ؟! (وترتفع درجة حرارة الحماس) وهكذا تتحول مرافعتي الى دفاع سياسي .. دفاع يماثل تلك الدفاعات التي

قام بها كبار القادة والزعماء عبر تاريخ النضال .. مثل دفاع « ديمتروف » الشهير الذى زلزل به أركان الحكم النازى ؟! .. بل ولماذا أذهب الى بعيد - إن من المناضلين المصريين من قاموا بمنتهى الحماس والاخلاص بهذا النوع من الدفاع . وحين صدرت ضدهم الأحكام القاسية إياها ، ابتسموا وقالوا : نحن الذين اخترنا .. وسنواصل السير على الطريق !!

هل يمكنني هذا ؟! هل يرضيني ؟! هل يسعدنى ؟!

ولم أعرف بماذا أجيب .. وأحسست بثمة ضغط فى رأسى ، وتسارع فى أنفاسى . فنهضت واقفا وقفزت الى النافذة المطلة على الحياة على التل على صف البيوت البعيدة .. مشتاقا أن أرى منظرا بالذات .. الثياب المغسولة والمنشورة أمام البلكونات والمتماوجة مع موجات الهواء . وإذا بصليل صاجات تدق وترن بايقاعات راقصة مرحة وبهيجة تصافح سمعى وتمسك بقلبى .. هذا اللحن الصاخب بالفرح والمرح ياما جريت عليه - صغيرا وكبيرا .. لأستمتع بمنظر الرجل بثيابه الملونة وابريقه الكبير المكور على بطنه .. والصاجات ماضية فى اللحن البهيج .. لتنتهى بذلك النداء الرائع .. والموحى بالجنون فرحا .. وحزنا .. يامنعنش .. ياعرقسوس .. يامنعنش !

هل أصرخ فرحا أم حزنا !

ووجدتنى أصرخ فى الفضاء وثمة دموع أحسها فى

حلقى : هز الهلال ياسيد .. هز الهلال ياعم ياطنطاوى !

★ ★ ★

وذات ضحى ، وبينما الأبواب تفتح لنا فى الموعد القانونى لنخرج الى الفسحة ، والصدور محتشدة بالفرح بذلك النذر اليسير المتاح من الحرية .. إذا بأحد الزملاء القياديين يندفع داخلا إلى زنزانتنا وعلى وجهه جدية مختلطة بحزن ويقول :

البقية فى حياتكم يازملا ..

وفى البرهة الصغيرة التى سكتها كى يعطينا الفرصة لنتلقى الخبر جيدا ، مرت بمخيلتى ـ وقد سقط قلبى ـ وجوه أقرب الأحباب الى نفسى واختلطت ، لكنى دفعتها جميعا بعيدا عنى .. وواصل هو قائلا :

ـ الرفيق ستالين مات !

ـ معقول ؟!!

خرجت منا الكلمة أو الصيحة فى نفس واحد ، وبايقاع واحد ، يعبر عن الدهشة والاستنكار والرغبة فى عدم التصديق !

وواصل دون أن يعلق : وحنعمل له حفلة تأبين فى الزنزانة رقم (٠٠) لأنها واسعة .. حفل مختصر وسريع .. نظرا للظروف !

ثم خرج مسرعا ليواصل التبليغ إلى بقية الزنازين !

غادرنا زنزانتنا على الفور قاصدين مكان التأبين .. واذا

ببقية الزملاء سائرين فى الممر .. فى نفس الاتجاه شاخصى النظرات خاشعين على سيماهم نوع من الذهول . وبدا لى أنى سائر فى جنازة ، وأن النعش هناك فى المقدمة ، محمول فوق الرءوس ، وتصورت الجثمان العظيم ممددا بداخله ، ببدلته العسكرية التى مارأيت صورته فى الصحف والمجلات إلا بها .. بالصدر العريض البارز المقدام .. والشارب الكث الغزير الذى كان حلم كل شيوعى فى العالم لو يعطيه الله شاربا مثله .. وكذلك أنفه الصقرى العظيم ، وجبينه العبقرى الوضاح .. أليس هو بطل معركة ستالينجراد التى حولت مجرى الحرب العالمية الثانية وبعدها سحقت النازية والفاشية فى أوروبا .. وانتحر هتلر وشنق موسولينى !! .. وقبل ذلك .. واجه مع لينين كل حروب التدخل التى ارادت أن تجهض أول ثورة بروليتارية فى التاريخ ، ثم بعد موت لينين حمل هو عبء تطبيق النظرية الثورية وتحويلها الى واقع انسانى حى ملموس .. ستالين هذا .. يموت ؟! يكف قلبه عن الخفقان ؟! .. يرحل عن العالم ؟! يصبح الاتحاد السوفييتى بدونه ؟! كيف ؟" ومامصير الشيوعية فى العالم بعده ؟! .. لابد أن النفير الآن يطوف ببلدان العالم جميعا يعلن خبر وفاته .. وستخرج الجنازات .. ليس جنازات الأحزاب الشيوعية وحدها .. بل جنازات كل الأحزاب والقوى الوطنية التى امتدت إليها يد الثورة البلشفية الناهضة تعرض مساعداتها الأخوية فى معارك الأستقلال والتحرر الوطنى .. ألم يرسل « لينين » إلى « سعد زغلول » إبان ثورة ١٩١٩ يعرض مساعداته ؟!

وهاهو الكاتب المصرى الاسلامى الثورى « خالد محمد خالد » ينعى ستالين في الصحف بمقال عنوانه : « طبت حيا وميتا يارفيق » ! نفس العبارة التى قالها أبوبكر الصديق فور وفاة محمد رسول الله !

واحتشدنا جميعا فى الزنزانة .

رغم مرور أربعين عاما على تلك اللحظة ، مازلت أذكر المنظر .. والمشاعر الجياشة ، وقد اعتلى أحد الرفاق النوبيين منضدة خشبية قديمة .. ومضى يلقى بقصيدة شعر أوحى بها الحادث الجلل للشاعر الرفيق كمال عبدالحليم .. ونحن جميعا ممسكون بأنفاسنا .. فهل يمكن لأى شاعر فى العالم أن يرتفع الى مستوى الحادث ؟!

عندما مات أبى كان قد أهدى الحياة .. بعض أجزاء الحياة ..

عندما مات لينين .. كان قد أهدى الحياة بعض أجزاء الحياة ..

عندما مات .. ستالين .. كان قد أهدى الحياة .. كل أجزاء الحياة ..

تلك كانت افتتاحية القصيدة كما التصقت بالذاكرة ، بنص كلماتها (وعفوا لأى اخطاء فيها) بايقاعها الشعرى .. باحساسها المأساوى الفاجع المصاحب لوفاة الأب الأكبر للشيوعية فى العالم ، والذى جب موته موت سائر الآباء

السابقين الصالحين .. سواء الآباء الطبيعيين .. أو الايديولوجيين !! وهاهو يصف وقع وفاته على الكون فى مجموعه .. فيقول مامعناه أن كل شيء توقف للخبر .. حتى الهواء وأوراق الشجر !! وماجاء بعد ذلك كان تكريسا لوصف هول الفاجعة والخسارة الكبرى التى منى بها العالم كله !! وأذكر أنى لم أكن أحس لحظتها بأية مبالغات فى وصف المشاعر ورسم الصور .. فقد كان وزن الرجل أيامها كبيرا .. بالفعل .. لا بالكلمات . بدوره الهائل الحاسم فى دحر النازية ودفع « هتلر » إلى الانتحار !! كان العالم كله يصغى لأية عبارة يفطن بها .. حتى الشعب المصرى .. كان يطلق عليه حبا واعجابا .. اسم « أبوشنب » .. ذلك أن الشعوب المقهورة والمستعمرة فى تلك الفترة كانت فى حاجة إلى مخلص .. وقد رأوا فيه أملا للبشرية.. أملا مشروعا مرتجى !! واذن لاغرابة وقتها .. أن تبدو وفاته وفقده كارثة عالمية وكونية !!

ونحن بالطبع نبتسم الآن لهذا الكلام ، بعد أن مرت الأعوام بأحداثها العجاب وظهر أن التاريخ لايقف ولايتوقف على انسان .. وإن توقف فان ذلك يشكل كارثة تنذر بالفناء !!

وقد كانت واقعة موت ستالين كما عشتها برؤية وخيال الشيوعيين حينذاك من أعظم الدروس السياسية والانسانية التى تلقيتها فى حياتى .. خاصة بعد أن اكتشفت تلك الآفة التى تستبد بالشعوب ، فتعيق من حركتها وتحكم عليها بالتجمد ، والثبات ومن ثم بالتخلف عن الآخرين .. تلك هى آفة تحويل الزعماء إلى أصنام معبودة تلقى الشعوب عليها بأعباء

همومها وآمالها !

ولأن الشعوب لاتتوقف عند أى مكاسب حصلت عليها ، وإنما عند ما لم تنله بعد .. فقد رأينا الشعوب السوفييتية نفسها تنسى كل الانجازات التى تمت فى عهد ستالين والعهود التالية له ، ولم تتوقف إلا عند ذلك الشىء العظيم الغالى الذى لم تحصل عليه بعد .. تلك هى الحرية التى لاغنى لأى انسان .. لأى فرد .. فقيرا كان أم غنيا .. جائعا أم شبعانا .. عنها !!

لقد كان شيئا مثيرا ومذهلا .. بعد بضع سنوات من وفاته أن نسمع أن الحزب الشيوعى السوفييتى يضعه موضع المحاكمة .

ويوصف بأنه كان إنسانا فظا .. بل وسفاحا .. حدث هذا فى عهد « خروتشوف » الذى كشف النقاب عن أن وزير داخلية ستالين المسمى « بريا » قد حوكم وصدر عليه الحكم بالاعدام لأنه اعتقل وازهق أرواح الآلاف من الأبرياء باسم الدفاع عن النظام الشيوعى !!

وفيما بعد الوفاة ببضعة شهور ، هربت الينا رواية سوفييتية بعنوان « ذوبان الجليد » للكاتب السوفييتى « ايليا اهرنبرج » وكان المشهور عنها أنها صودرت أيام ستالين .. وحين قرأتها ، ادركت على الفور سر مصادرتها .. ذلك أن البطل فيها كان عضوا قياديا فى الحزب الشيوعى ، وكذلك مديرا لأحد المصانع .. لكن إدارته كانت قائمة على فرض

الرأى والسيطرة المستمدة من وضعه الحزبى .. سيطرة لايمارسها فقط على عمال المصنع ، بل أيضا على زوجته العاملة معه فى نفس المصنع .. وهنا ينفجر الصراع الذى ينتهى بفضحه وخلعه من منصبه !

تلك هى قضية ذوبان الجليد التى لم يصدر فيها الحكم النهائى إلا بعد ذلك بسنوات من الصراع الدامى من أجل وطن يضمن للانسان فيه خبزه وحريته معا !! وقد انتهى ذلك الصراع بما يسمى بالبيروسترويكا .. أى المصارحة وكشف الحقائق .. التى سرعان ما انتهت بمأساة لم تكن فى الحسبان فقد انفجر النظام السوفييتي كله من داخله وتناثر إلى أشلاء أوطان أو قوميات .. كل وطن وكل قومية تلعق جراحها وتبحث عن خبزها وحريتها ..

★ ★ ★

ولنعد من جديد إلى زنزانتنا !!

لم يكن باقيا على تقديمنا للمحاكمة إلا اسبوعين أو ثلاثة حين فوجئنا ونحن داخل الزنازين بخبر جد مثير يسرى من نافذة إلى نافذة : قضية الجبهة وصلت .. قضية الجبهة وصلت !!

كان ذلك يعنى أن الزملاء الذين كانوا فى السجن الحربى ومعظمهم من قيادات « حدتو » بينما الأقلية وفديون وأنصار سلام .. وقد جيء بهم إلى سجن مصر ليعيشوا معنا فى نفس العنبر .. وقامت القيامة ! فقد كان خروجهم من السجن

العربى يوحى بصدق الشائعات التى سبق أن ترددت حولهم من أنهم كتبوا ذلك البيان الذى أيدوا فيه حكومة الثورة واستنكروا مواقفهم الأولى من الدكتاتورية العسكرية .. ورأيت شيئا كالهول يحدث !! هتافات وصرخات غضب واحتجاج وشتائم مقترنة بخبطات هستيرية على الأبواب تريد تحطيمها كى يخرجوا وينهالوا عليهم .. أو على الأقل يطردوهم ويحرروا العنبر من رجسهم !!

تلك كانت المرة الوحيدة ـ خلال السنتين اللتين قضيتهما فى السجن ، التى حمدت الله فيها أن أبواب الزنازين مغلقة جيدا .. فقد بدا لى هؤلاء كوحوش فى أقفاص ، ولو انفتحت لخرجوا وانقضوا على الفريسة .. وما الفريسة فى الحقيقة إلا رفاق لهم على نفس الدرب وإن كانت بينهم ثمة خلافات فى التفسير لا فى المبدأ !!

وأخذ الحدث شكل وطعم التراجيكوميديا حين تعلق أحدهم بحديد النافذة وطلب من الجميع السكون لحظات ثم اندفع صارخا بقصيدة شعر غاضبة مرتجلة .. وأصخت السمع لهذه الهجائية التى لامثيل لها فى تاريخ الهجاء الشعرى العربى وكانت افتتاحيتها :

هذا ابن طه والغزالى وعامر

أبناء يونس فى الحضيض سواء .

والأسماء الثلاثة الأولى من قيادات « حدتو » حينذاك ..

أما « يونس » فكان الاسم الحركى لهنرى كورييل .. اليهودى والمؤسس والمنظر الأكبر لمنظمة حدتو ، والمشهور فى تلك الفترة بخط القوات الوطنية الديموقراطية الذى يدين أى تطرف يسارى فى الحركة الشيوعية ولهذا اعتبرته كل التنظيمات الأخرى شيطانا رجيما وعميلا خطيرا للمخابرات المركزية والصهيونية والعالمية والكونية لتخريب الحركة الشيوعية !!

ثم رأيت حمى الكراهية تصل الى أقصى درجات وحشيتها ، حين أعلن أحدهم فى نوبة هياجه ، وغضبه أن الشىء الوحيد الواجب الآن على كل ماركسى مخلص أن يتخلص من هؤلاء الخونة والمرتدين أما بقتلهم .. أو كسحهم كسحا من العنبر !!

وبدا لى أنهم يدخلون بنا الى منطقة قريبة من الهوس والخلل النفسى والعصبى .. وانهم هكذا يحولون النضال الى جحيم يحرق أهله بنيرانه ! .. وحين فكرت فى الأمل الوحيد الباقى الذى يبرر استمرار وجودى فى ذلك الجحيم ، وهو أمل تحقيق الوحدة بين هذه المنظمات ، بدا لى أن ذلك من المستحيلات .. وأنه مثل أمل إبليس فى الجنة !!

وأحسست بالعتمة تحتل روحى بالتدريج لتصبح فى النهاية ظلمة شاملة .. لولا ذلك الملاك المجنح الذى يهرع الىّ لحظات الألم والحزن ويقول لى .. منبها : هذه مادة عظيمة ياصاحبى لكتاباتك عن السجن فيما بعد .. احتويها جيدا فى قلبك

واحفظها وادرسها .. وان هناك لاتزال فى انتظارك مهمة أخرى اكثر خطورة واثارة .. هى لقاؤك الشخصى باثنين من « أبناء يونس » المطلوب اغتيالهم أو طردهم من العنبر : عاكف الرافعى .. وزكى مراد !! .. أجل ياصاح .. حول الأزمة الى موقف فى قصة !!

وانتعشت روحى فجأة كأنما أصبحت حقلا أخضر فسيحا مترامياً تسرح فيه أنسام العصارى .. إنه ملاك الفن ، الفن الذى يرفعنى فوق الأحزان والأزمات ويمنحنى نوعا خاصا وفريدا من البهجة والاحساس بالملوكية السرية بينى وبين نفسى .

وفى اليوم التالى ، كنت ألتقى بعاكف الرافعى .. ذلك الذى جمعتنى به من قبل أعظم الايام ، وأقسى الأيام وأمتع الأيام أيام المظاهرات والمطاردات وطبع المنشورات وكذلك ليالى الأنس والنشوة وقصص الحب فى الأركان الظليلة مع بنات حواء .. كان مثلى من عشاق الحياة ..

واذا بهذا اللقاء الفياض بالصدق والمكاشفة حتى النخاع يصبح تحوّلا تاريخيا فى حياتى .. بل يمكننى القول بأنه كان فجرا .. أو ميلادا جديدا لى فى الحياة !!

بل .. ولم لا اقول .. إنه كان بدء ذوبان الجليد ؟!!



مناقشة حول بيان السجن الحربى !

وذوبان الجليد كما عشته بعد ذلك ذات ربيع فى إحدى بلاد الشمال يعقبه على الفور انكشاف وجه الأرض واخضرار الزرع وسطوع الضوء وانطلاق المحبين إلى الغابات التى ازدهرت والبحيرات التي ذاب منها الثلج ! .. أما ذوبان الجليد كما حدث معى داخل سجن مصر ، عقب لقائى بعاكف الرافعى العائد لتوه من السجن الحربى ، فقد تمثل فى انعتاقي وتحررى الروحى وقرارى بالخروج من كهوف التحجر والصنمية الفكرية والتنظيمية التى وجدتنى مصبوبا فيها ، من أول لحظة ولجت فيها عوالم هذه التنظيمات القائمة على الانضباط التام والسرية المطلقة ، مفرّطا فى حريتى وباختيارى ، ككبش فداء لمعبودى الجديد .. الحلم باقامة عالم جديد سعيد على ضفاف النيل اختفت منه عاهات الفقر والجهل والمرض وكل التعاسات الأخرى المترتبة عليها .. واذا بفقدى لحريتي يصبح فى حد ذاته عاهة جديدة تضاف إلى العاهات السابقة .. وإذن ما الجدوى ؟! هكذا سطعت الحقيقة ، فكانت بمثابة الميلاد الجديد !

غير أن ذوبان الجليد هذا ، لم يكن تحققه معى شيئا سهلا .. فقد بدا أول الأمر وكأنه الطوفان ، أو الصدمة الصاعقة ، ذلك أنى فوجئت به ـ عاكف الرافعى ـ بعد أن انتحيت به ركنا فى احدى الزنازين الفارغة اثناء الطابور ـ واندفعت أسأله معتمدا على صداقتنا ، بينما زئير التنظيمات الأخرى المعادية ، لايزال يدوى فى رأسى : ماهى حكاية بيان السجن الحربى الذى يقال أنكم كتبتموه ؟! أريد معرفة الحقيقة !

وقد كان توقعى أنه سيغضب للسؤال وينفى شزرا وبتعال حدوث ذلك ، الا أننى فوجئت به يقول بمنتهى البساطة والهدوء انهم فعلا كتبوا بيانا ، لكنهم لم يكتبوا استنكارا ، ولم يطلب أحد منهم هذا !! سجلوا فيه موقفهم ورؤيتهم السياسية حينذاك ، وتلك كانت الصدمة الكبرى لى .. فقد أكدوا فى ذلك البيان تأييدهم لثورة ٢٣ يوليو ، عائدين بهذا إلى موقفنا الأول منها ، باعتبارها حركة وطنية معادية للاستعمار ذات توجهات اجتماعية شعبية .

وحينذاك قلت ، باذلا جهدا كبيرا لأكتم صرخة غضبى : ومنشوراتنا التى وزعناها بسقوط مفاوضات الثورة مع الانجليز ، وسقوط معاهدة جمال ـ هيد ، وسقوط الدكتاتورية العسكرية .. وانها انقلاب أمريكى ؟!

بسط كفه معترضا بشدة : لا .. نحن لم نقل أبدا بهذا .. إنها صنيعة أمريكية .. وماكان يمكن أن نقدمها .. نحن

بالذات .. حدتو ..

فنحن أدرى الناس بأصول هذه الثورة ومؤسسيها .. بل ويمكن القول بأنها قامت على أيدينا .. هل نسيت ـ أيام السكن فوق السطوح .. كانت الشقة المقابلة لى يسكنها رجل اسمه « ملكون ملكونيان » كان يتسلم منى المنشورات التى تطبعها « حدتو » للضباط الأحرار ويقوم هو بتوصيلها إلى عبدالناصر ! (وازدادت عيناه لمعانا) وليلة الثورة نفسها ، لا أذكر إن كنت قد أخبرتك بهذا أم لا ، مر علىَّ « أحمد فؤاد » عضو اللجنة المركزية فى حدتو وهمزة الوصل بيننا وبين عبدالناصر .. مر على بيتى أكثر من مرة ليبلغ التنظيم عن طريقى أن الثورة ستقوم الليلة ، لكنى لم أكن موجودا .. ثم فى نفس الليلة جاءنى « بدر » المسئول الأول فى « حدتو » ومعه منشور بخط اليد وبتوقيع « حدتو » نعلن فيه تأييدنا للثورة وندعو الشعب للالتفاف حولها وحمايتها ، وطلب منى الاسراع بطبعه وقمت بذلك فعلا فى احدى المطابع الصغيرة بحى السيدة زينب . وكان معى « سامى عبدالحميد » وقد رفض صاحب المطبعة فى أول الامر ، وبذلنا جهدا جبارا حتى ازلنا عنه الخوف وتم طبع المنشور . وفى الصباح كنا أول تنظيم سياسى فى مصر والعالم يؤيد ثورة ٢٣ يوليو الوليدة ، فكيف بعد هذا نقول إنها انقلاب أمريكى ؟!

قلت بعصبية : ليس هذا الآن هو بيت القصيد . هل تعرف أن أدلة الادانة ضدى فى المحكمة ستكون هى تلك

المنشورات التى ضبطت فى بيتى تدعو لاسقاط المفاوضات ، ومعاهدة جمال ـ هيد .. كان ذلك هو الرأى الرسمى للتنظيم فى تحليلاته التى باتت مضادة للثورة !

هز راسه نافيا : لم يحدث أبدا أن صدر عن حدتو تحليل سياسى يقول بتخوين الثورة .. أما عن إسقاط معاهدة الجلاء فكان ذلك شعارنا بالفعل .. مطالبين بالكفاح المسلح فى القنال وبمشاركتنا فيه .. ولايزال هذا مطلبنا حتى اليوم .. لكن الأمر ياعزيزى للأسف له وجه آخر .. وهو أن كل شىء أصبح موضع الاجتهاد والارتجال .. كل فرد أو كل شلة تخرج بالتفسير أو التحليل الذى ترتئيه .. خاصة بعد ذلك الانقسام الأخير المنحوس الذى قام به بدر .. ومن يومها حتى الآن ، لا فكرة أو موقف يجمع الكل ..

قلت : أفهم من هذا أن ماكتبته فى بيان السجن الحربى ، لم يكن هو رأى التنظيم الرسمى .. بل هو اجتهادك الشخصى أنت وزملاء السجن الحربى ؟!

قال : وكيف فى مثل هذه الظروف يمكن التوصل إلى رأى يمثل كل مستويات التنظيم ، ونحن مضروبون ومشتتون فى السجون .. والمجموعة القليلة الباقية فى الخارج ، للأسف « على قدها » اللجنة القيادية المؤقتة التى فرضتها الظروف ، ولقلة خبراتها وربطتنا فى مواقف متطرفة أرادت أن تؤكد من خلالها انها ثورية حقا وشجاعة .. فدخلت مع التكتل الثورى ، والمنظمات اليسارية المتطرفة الاخرى فى مزايدات ثورية

جلبت علينا الكثير من المصائب ..

فى مثل هذه الحالة من التخبط والشتات والأمور كلها خرجت من يدك ، لايبقى لك إلا نفسك أنت .. حسك أنت ، وعيك وضميرك وخبرتك الثورية واحساسك بالمسئولية .. أنت وكأن الطوفان قد هجم ومسئولية الانقاذ باتت معلقة عليك وحدك أنت ..

وهذا هو فى الحقيقة الامتحان الاكبر للانسان .. أن يواجه الطوفان بمفرده .. وأن تعلق عليه مسئولية انقاذ السفينة وليس انقاذ نفسه فحسب .. ومن هنا كتبت ما أسموه بالبيان .. كتبت ماتصورت أنه سينقذ السفينة من الغرق .. غير عابىء بما يمكن أن يقال أو يشاع عنى .. و ..

فجأة فقدت تركيزى وسرحت عنه فى حالى .. إنه يبرر أو يفسر عودته إلى تأييد الثورة ، بينما أنا سأقدم الى المحاكمة كعدو للثورة ، نحن الاثنان فى تنظيم واحد !

قلت : شعورى الآن أننا كنا عرائس وخيوطنا فى أيديكم !
قال بنظرة عتاب مرة : لاتفصل بينك وبيننا .. فكلنا فى الهم شرق .. كلنا !

قلت : تقصد أنك أنت أيضا كنت دمية ؟!

قال : فى يد الظروف العليا .. فإنها لمأساة تلك التى وجدنا أنفسنا فيها .. نحن الذين كافحنا طويلا من أجل الوحدة حتى نجحنا بالفعل فى تحقيقها وكانت « حدتو » نفسها هى

الحصاد لهذا النضال .. وفجأة ، وبفعل قوى خفية غير منظورة .. اذا بالانقسامات من داخلها تعود وتتوالى .. حتى لم يعد أحد يدرى .. من مع من ؟! ومن ضد من ؟ كارثة أصارحك بأنها هزت من ثقتى وايمانى الذى عشت به سنوات .. لولا بعض اخبار طيبة تدعو للتفاؤل شاعت قيادة الثورة فى الخارج أن تبلغها لنا ونحن فى السجن الحربى . أنه تقرر توثيق العلاقات مع الاتحاد السوفييتى ، وانهم اتصلوا بالفعل بكامل البندارى الذى كان يطلق عليه قبل الثورة : « الباشا الأحمر » ..

وأن هناك أيضا وفدا سيسافر إلى « موسكو » برئاسة أحمد فؤاد ، وأحمد حمروش .. أبلغونا بهذا ليقنعونا بأنهم لايزالون ملتزمين بالخط الوطنى والاجتماعى الذى سبق أن التزموا به قبل ٢٣ يوليو .. وعلى أساسه تعاونا معهم ! .. أكثر من هذا ، وجدت الضابط الذى كان يناقشنى واسمه « أحمد محمود » يفتح معى موضوع الصراع بين خط عبدالناصر هذا الذى كشف لنا عنه ، وخط محمد نجيب المعروف باتجاهاته الموالية لليمين السياسى والدينى المتشدق بالديموقراطية واجراء الانتخابات وعودة الحياة البرلمانية . وتصور لو أن هذا حدث الآن ستكون النتيجة بالتأكيد هى العودة إلى أوضاع ماقبل الثورة وأسوأ .. ستسترد الرجعية كل سلطانها ونفوذها على الفور وتقضى نهائيا على كل ملمح من ملامح الثورة .. ولهذا حين سئلت : هل أنا مع عبدالناصر أم مع نجيب . قلت مباشرة مع عبدالناصر .. قلتها رغم أن ظواهر

الصراع فى الخارج توحى بأن المستقبل قد يكون لمحمد نجيب !! و ..

ولا أذكر ما الذى قاله لى عاكف أكثر من هذا ، فقد تحددت الصورة واكتمل المعنى .. ذلك انى سأحاكم على تحليل سياسى آمنا بصحته فترة ثم اكتشفنا خطأه .. وطغى على الاحساس بأننى مجروح جرحا شخصيا .. ذلك أن الحقيقة فى موقفى أننى لم يكن لى رأى شخصى .. رأى بنيته على دراسة ومعرفة كاملة بأطراف الموضوع .. أنما الرأى هابط علىَّ من أعلى محاط أو مغلف بهالات السرية والتخفى المقترن بروح المغامرة وتحدى الخطر .. بصرف النظر عن محتوى الرأى أو القرار .. فلا وقت لمناقشته وتقليبه على مختلف وجوهه .. وكيف يمكن هذا وأنا فى قلب نظام يقوم على السرية التامة والطاعة الفورية وعدم إبداء الفضول الذى يمكن أن يثير الريبة ويفتح الطريق إلى الاتهام بالبوليسية !!

ورأيت أن البون شاسع بين الفكرة العظيمة وواقع تجسيدها .. يكاد الواقع يناقض الفكرة بل ويشكك فى صحتها ! . هل ذلك عيب الفكرة أم عيب البشر وطريقة تعاملهم معها !!

وخطر لى .. اعتزازا بالفكرة ـ أن المبادىء والأفكار العظيمة تظل شامخة سامقة حتى يتولى أمرها الأدعياء والدخلاء ، فتلقى مصرعها على أيديهم !

ورأيت أن الهيكل الذى أقمته بخيالى يتمايل ويترنح ، وأنا

تحته .. وطالعتنى حبيبتى وطفلى وأمى وأصدقائى وأهلى فى قريتى .. ماذا لو عرفوا بأزمة التيه الرهيبة التى أصبحت أعانيها ؟! وفتحية بالذات .. زوجتى وحبيبتى التى كثيرا ماتخيلتها « ساشا » مثلما تخيلتنى « بافل » بطل رواية « الأم » .

وخطابى الأخير الذى كتبته لها .. وخطابها أيضا .. لقد جعلنا من النضال أغنية .. وكان نضالنا موجها ضد هذه المجموعة العسكرية التى قامت بانقلابها لتقضى على الثورة الحقيقية .. فهل انتهت الأغنية ؟! .. هل أنعيها لها ؟!

هل أحوّلها هى الأخرى إلى دمية ؟! مرة تنطلق معى فرحا وابتهاجا بالثورة .. واخرى تنقلب معى غضبا عليها . وهاهم قد قبضوا عليها ليومين أو ثلاثة أيام الأضراب عن الطعام وأودعوها القسم أو التخشيبة وهى حامل : فماذا لو سمعت الآن عن تحليل عاكف الرافعى الجديد المتصالح مع الثورة .. وماذا سيكون موقفها ..

وبينما أنا فى تلك الدوامة من الأفكار العلوية أو السفلية المتصادمة المتخبطة .. إذا بصوت الشاويش شعيب المشرف على عنبرنا يطرق سمعى ، مناديا علىّ باسمى الكامل : عبدالله محمد الطوخى .. زيارة خصوصى !!

كما الجان المندفع من قمقمه انتفضت صارخا .. مهللا بأعلى صوتى ..

أيوه ياعم شعيب . أنا هنا .

ـ يا الله جهز نفسك قوام للزيارة .

لكأن قرص الشمس كان مختفيا من سنين وانبثق فجأة من قلب ركامات الغيوم .. نهضت قافزا .. وفى دقائق كنت هناك .. معها .. فتحية .. فى حجرة الضابط النوبتجى .. ليس بيننا أسلاك .. بل مباشرة .. اندفع اليها لأحضنها . وأقبلها غير مبال بالضابط الجالس فهى زوجتى .. حليلتى ولكن .. ماهذا .. يا إلهى .. بطنها ازدادت تكورا أمامها .. تمهلت فى اندفاعتى عليها .. تولانى شعور بالغ الغرابة والعظمة . أننى الكامن فى محرابها الداخلى .. هوذا ابنى .. من صلبى .. ويا له من ابن سيكون .. أبدا لن يكون ابنا عاديا هذا الذى يأتى فى مثل هذه الظروف .. ان أبناء المساجين مثل الأبناء اليتامى لايمكن أن يكونوا عاديين .

واحتويتها برقة وحذر : ارجوك .. خللى بالك منه .. أو منها !!

ـ لا منه .. حركته بتقول إنه ولد .. طالع شقى لأبوه ! والتقت نظراتنا .. نهر الشوق كاسح لو اندفع لحطم كل السدود وقذف بكل الصخور .. أمسكت بيدها .. أهدهد شلالات الشوق ..

ـ قوليلى أيه الاخبار . وقبل كل شىء .. إيهاب عامل أيه .. ابننا البكرى الحبيب ..

ـ تصور امبارح بالذات لقيته عامل مظاهرة في الشارع هو وأصحابه وبيهتف : عاش كفاح الشعب المصّلى .

طالع بطل لأبوه :

ندت عني تنهدة حرَّى .. أية بطولة هذه التى تتوهمينها ؟!
أنت لاتعرفين عمق الأزمة التى امر بها .. ومر بها كل التنظيم .. بل وكل الحركة الشيوعية المصرية .. ولكن ليس هذا الآن وقت المصارحة والمكاشفة .. فلتعيشى فى نفس الحلم السعيد الذى كنت أحيا فيه قبل اكتشافى الحقيقة .. أننا مقسمون مشرذمون .. لا رأيا موحدا أو ثابتا لنا فى شىء صراع رهيب أضحيت أحيا فيه .. انتهى تماما عهد الرومانسية .. ولكن فلنؤجل كل ذلك إلى حينه ..

ـ وليه ماتقوليش إن ايهاب طالع لامه .. انت مش عملت مظاهرة انت واهالى الزملاء أيام الاضراب عن الطعام ؟!

لمعت عيناها بالفرح وبالثقة وبالنفس : فكرتنى ..

ومضت تحكى لى سريعا .. واتفاقا مع ضيق الوقت ، كيف انهم بعد أن القوا بها يوما فى تخشيبة السيدة زينب ، نقلوها إلى قسم المطرية حيث امضت ثلاثة أيام لا أحد من عائلتها يدرى عنها شيئا ، وذلك ما أحدث الهوس عند أخيها أول ما رآها عائدة .. منهكة .. وبطنها أمامها .. واذا به يطعنها فى الصميم ويسألها إن كان احد من الضباط قد دخل عليها فى الليل .. حينذاك أحست بالاهانة الكبرى فردّتها بشجاعة .

- أنت انسان حقير .. وخيالك مريض .

وهنا اندفع بلا وعى على الراديو وحمله وقذفها به .. فشج رأسها .. وسال منها الدم !! ولحسن الحظ كانت أمى موجودة واحتضنتها .. ثم اصطحبتها هى وابنتنا إيهاب الى ميت خميس .. قرية زوجها - وهناك حدث الشىء الرائع الذى لم يكن على البال !! لقد أحبتها أمى من القلب .. ومضت تفخر بها أمام الأهل وهى التى كانت فى البدء تكرهها من الأعماق وتعتبر زواجى منها مصيبة ومأساة !

إن لم أخرج من محنة السجن إلا بهذا الحب العظيم بين زوجتي وأمى .. فهذا يكفينى ونشكر عليه الحياة !

وتفتح القلب وعاوده الابتسام !!

يمر الوقت فى زيارة السجن بأسرع من مرور الضوء .. أى موضوع يرد على الذهن نتحدث فيه خطفا .. أذكّرها بأن يوم المحاكمة أقترب وأننا سننتقل الى سجن الاستئناف الملاصق لمحكمة مصر .. فتفرح لأننا يقينا سنلتقي فى أبهاء المحاكمة .. أو على الأقل فى قاعة الجلسة .. أنا والزملاء فى القفص ، وهى وبقية الأهالى فى القاعة ..

وفوجئت بها تميل علىّ هامسة ، منتهزة انشغال الضابط مع أحد العساكر وقالت : أنا حطيت لك تحت الأكل كتاب حيعجبك . ثم غيرت على الفور الموضوع وكالحلم السريع تنتهى الزيارة تنتهى بإشارة من الضابط .. أتمنى لو تحدث

معجزة ويترك لنا الحجرة للحظة . آخذها بحملها نمتزج ثلاثتنا .. نتحول الى بخار يصعد محلقا هاربا من نافذة الحجرة ، ومن ثم من السجن بأكمله .. نطير نتحرر ..

يتنحنح الضابط مذكرا بانتهاء موعد الزيارة .. احكى لها الخاطر بجملة .. تضحك بحسها المستعد دائما للفكاهة والمرح .

ـ بخار ؟! لأ ياعم .. كده أحسن .. أنا راضية وسعيدة !!

وخرجت قبلى من الباب .. ثم خرجت بعدها يصحبنى عم شعيب حاملا سلة الطعام الذى أعدته لى .. شغوفا برؤية الكتاب الذى أخفته تحت الطعام .. وما أغربها من مفاجأة هزت من وجدانى .. ذلك أن الكتاب كان بعنوان : كارل ماركس .

ياله من اختيار .. !!

ولأول مرة .. أحس أو أشم بوادر خلافات ستثور بينى وبينها .. وأن ثمة عواصف آتية على الطريق .

وقد أكدت الأيام فيما بعد .. صدق هذا الاحساس !!



إعدامات .. ومحاكمات !

كثيرا ماكانت تعاود خيالى ذكرى حمامات الدم التى اشتهرت بها الثورة الفرنسية عام ١٧٩٨ فى فترة صراعاتها الأولى من أجل تثبيت ذاتها وقبل أن تصبح قادرة على تحقيق شعاراتها الانسانية الثلاثة الخالدة : العدل .. والمساواة .. والحرية !

وقد كان ذلك التناقض الصارخ هو ماكان يثير خيالى ودهشتى .. ألا يتحقق العدل إلا بأنهار من الدم .. وأن يكون القائمون بهذه الحمامات البشعة هم من زعماء هذه الثورة وخطبائها المجلجلين بشعاراتها الانسانية لكنهم رجال من نوع معين .. يتميزون بأن « أثداءهم ليس فيها لبن » وهو تعبير كنت أسمعه من أمى وهى تصف كل إنسان فظ .. خلا قلبه من الرحمة ! .. وقد غدت أسماء هؤلاء رمزا لهذه المرحلة الدموية الأولى مثل روبسبير ، ومارا صاد .. ومن النساء شارلوت كورداى .. هؤلاء الذين باسم المحافظة على الثورة ، أقاموا الجيلوتين فى أوسع الميادين . وجزوا الرقاب على مرأى من الملايين كى يشيعوا الرعب والشك والريبة بين العباد ، حتى فاضت قلوب الناس بكراهية الثورة وكل ما ومن ينتمى اليها ، وفضلوا التمرغ فى التراب والطين مثل الدود

القابع فى أمان على هذا الجنون الدموى الشيطانى المسمى بالثورة !! فما أغربه من قانون اسمه قانون الثورات !!

ورغم ان الثورة المصرية لم تتسم ـ حين قامت وأمسكت تماما بالسلطة ـ بذلك الطابع الدموى العنيف ، بل كانت تفخر من أيامها الأولى بأنها ثورة بيضاء تتفق مع طبيعة شعبنا الزراعى المستقر على ضفاف النيل ، والبناء الفنان مبدع أول الحضارات والمستقبل والحاضن للأديان المنزلة الثلاثة !

إلا أنها لم تلبث أن وجدت نفسها مضطرة لأن يكون لها أنياب ودروع ، وترفع السلاح ! فأن تحدث فى مصر ـ هذا الكيان الهائل التاريخى المستقر منذ آلاف السنين ـ ثورة تطرد ملكا .. وتعلنها جمهورية ، وتتحدث باسم الشعب ، ذلك خطر داهم ونذير بشرّ مستطير على الكثيرين .. وهاهم بدأوا يرفعون عن وجوههم الأقنعة ، وشرعوا يتلمظون بها من كل جانب : الانجليز يناورون فى القنال واسرائيل تناوش فى غزة وتتطلع إلى سيناء ، و « الأخوان المسلمون » يلجأون إلى الاغتيال والتصفية الجسدية فيصوّبون الرصاص على عبدالناصر لكنه ينجو .. والشيوعيون ـ ماعدا مجموعة السجن الحربى وكل من يوافق على خطهم السياسى يتهمونه بأنه فاشى ومشروع هتلر مصرى جديد !! .. والوفديون القدامى والأحزاب التقليدية رافضون أن يصدقوا أن الزمن له تحركاته وتغيراته ..

إما أن يكونوا هم فى الحكم ، وإلا فلا ..

فى هذا الجو .. والصورة متربة ومختلطة وكئيبة ، فوجئنا بهم ينقلوننا من « سجن مصر » إلى « سجن الاستئناف » الملاصق لمحكمة مصر .. تمهيداً لمحاكمتنا !

وقد كان أول ما أثاره في ذهنى اسم « سجن الاستئناف » أنه كان السجن الذى هرب منه ذلك الرجل الذى سرق البنك الأهلى ، ولجأ الىّ فى بيتى كى أويه ، حسبما خطط مع بعض الرفاق على أمل أن يتوب وينذر نفسه للنضال ويتحول إلى كادر ومناضل شيوعى خطير !

كيف استطاع الهرب ؟! سوف اكتشف ذلك على الطبيعة حين أصل الى السجن !!

ووصلنا !!

بنظرة من واجهة السجن الصفراء بأدوارها الثلاثة ونوافذها المتوالية والمطلة مباشرة على ميدان باب الخلق أدركت إمكانية الهرب بالفعل .. وفكرت بالتالى .. هل يمكننى الهرب مثله ؟! .. ورأيت أن المقارنة لا محل لها .. وغير ذات موضوع . وأن مغامرات اللص ، غير مغامرات صاحب العقيدة والمبدأ .. أو هكذا بررت نفورى من مغامرة الهروب ؟!

وما أن شرعنا فى الدخول من باب السجن ، حتى طرق آذاننا صوت سرينة عربات النجدة مرسلة نذيرا مقبضا وكئيبا أقرب الى الولولة والنعيب !

وقد فكرت أول الأمر أنهم يقصدون إرسال الرعب فى قلوبنا

ولأنهم يحسبون حساب هتافاتنا .. وبالفعل مضى بعض الزملاء وهم لايزالون فى العربات يهتفون : تسقط الدكتاتورية العسكرية .. يسقط حكم الدبابات !!

إلا أننى سرعان ما أدركت أن اطلاق السرينة إنما هو لسبب أخطر من ذلك بكثير . فقد عرفت بالسؤال أن مجموعة الأخوان المسلمين الستة المحكوم عليهم بالاعدام موجودون بالسجن وأن الحكم سينفذ فيهم صباح الغد !!

حدث فى رأسى دوار .. هاقد بدأت عندنا حمامات الدم .. ولكن .. من الذى بدأها ! .. هى تلك الجماعة التى تسمى نفسها بالاخوان المسلمين .. هى التى رفعت المسدس وأطلقت الرصاص !! فأى شيطان ألهمهم هذا الطريق الذى ليس بجديد عليهم ؟!

وعاودتنى ذكرى منظر من نفس النوع .. أيام عز الحركة الوطنية فى النصف الثانى من الأربعينات ، والمظاهرات الوطنية مشتعلة بالجامعة ، بينما « أبو ضلوع » أحد زعماء هذه الجماعة يدوس بحذائه على رأس أحد الطلبة ويصرخ بهستيريا : إنه شيوعى فاقتلوه .. إنه شيوعى فاقتلوه !! .. القتل عندهم هو الحل .. وهو المدخل إلى الجنة ! .. ثم اذا بالدائرة تدور عليهم بعد أن اغتالوا « النقراشى » رئيس الوزراء ، فاغتيل بالمقابل . إمامهم الأكبر « حسن البنا » ! وبرغم هذا ، أو بسبب هذا ، مازالوا يسيرون على نفس الطريق تحركهم شهوة الدم !

غير أن الانسان فيه ضعف تجاه أخيه الإنسان ، فما أن يراه واقعا في أزمة أو محنة أشد من محنته ، فإن قلبه يرق له ويطغى عليه الشعور بالرثاء ويتمنى لو يستطيع رفع المحنة عنه ، مهما كان مختلفا معه أو عدوا له !!

وكنت على معرفة شخصية بأحد هؤلاء الستة المحكوم عليهم بالاعدام وهو « الهنداوى دوير » الطالب معى فى نفس الكلية والساكن بالقرب من سكنى .. وكان هادئا وصموتا وسارحا على الدوام .. فما الذى بيدى أن أفعله من أجله ؟!

وقد ظننت أول الأمر أنها محض صدفة روائية مثيرة ، أن يأتوا بنا إلى هذا السجن فى نفس الوقت الذى سيتم فيه تنفيذ الحكم عليهم بالاعدام . ثم يعقب ذلك إرسالنا الى المحاكمة !

وكان معى فى نفس الزنزانة الكاتب والشاعر الشهير عبدالرحمن الخميسى ، وأبديت له هذه الملاحظة ، فنظر لى من خلف نظارته الطبية السميكة وقال بصوته الأجش المسرحى الساخر كعادته :

ـ صدفة إيه ياابنى .. السياسة مفيهاش صدف ـ دى لعبة التوازن الأزلية .. مصممة ومرسومة بدقة لازم الاثنين ينضربوا فى وقت واحد .. الاخوان والشيوعيين .. عشان مفيش حدّ منهم ياخد على خاطره ويزعل ويقول اشمعنى أنا ؟!

فى هذه اللحظة المفعمة بالمرارة الساخرة ، حدث شىء غريب نقلنى الى عالم آخر مجنح بالخيال وبالجمال .. فقد

فوجئت به ـ الخميسى ـ يقول لى منبِّها وقد ازدادت عيناه لمعانا، وفاض صوته بالحنين وبالاشتياق مشيرا الى نافذة الزنزانة : سامع ؟! الأغنية اللى جاية من بره دى ؟!

كانت ثمة أغنية صادرة من مذياع بأحد المقاهى القريبة .. ووجدت الخميسى يرددها كلمات ولحنا مع المغنى نفسه وهو يتماوج برأسه وبكل جسده العملاق .. وقد استبد به الوجد :

على قد الشوق اللى فى عيونى .. ياجميل سلِّم
أنا ياما عيونى عليك سألونى .. وياما باتألِّم

وعاد يخاطبنى همسا : إسمع الصوت ده كويس .. ده ولد جديد اسمه عبدالحليم حافظ .. حيبقى له شأن كبير أنا واثق .. خليك فاكر !

ولاتحتمل اللحظة الآن أى تعليق على قوله هذا ، فقد صدقت نبوءته ، وغدا عبدالحليم حافظ حتى بعد موته حقيقة من حقائق الجمال الخالدة فى حياتنا ، لكن الأهم أننى أضحيت لا اسمعه فى أية أغنية إلا وأتذكر تلك اللحظة والخميسى ينبهنى ويبشرنى بميلاد موهبة مصرية جديدة ، بينما شبح إعدام الاخوان الستة وكذلك محاكمتنا فى اليوم التالى تخايلنى ! لحظة مثلما كانت تحمل فى جوفها عناصر الموت كانت أيضا تحمل عناصر الحياة والميلاد فى نفس الوقت .. وقد ظلت هذه الذكرى مقترنة فى نفسى بأغانى عبدالحليم حافظ كلها حتى الآن !

وقد كانت صدفة تاريخية أن جاءت زنزانتنا بالطابق

الأرضى مقابلة تماما للسلم الحديدى الحلزونى الذى سيهبط من عليه المحكوم عليهم الستة من الدور العلوى ، واحدا بعد واحد ، ليتوجهوا إلى زنزانة المشنقة الكائنة فى الدور الأرضى ، والقريبة جدا من زنزانتنا !!

وقد استيقظنا ذلك الصباح على صوت سرينة عربات الشرطة تدور مولولة فى الميدان الخارجى منذرة ومحذرة .. ومن شكل ووقع الحركة فى الممرات وعلى السلالم أدركنا أنهم فى سبيلهم لتنفيذ الحكم . صعدنا على الجرادل ومضينا ننظر من خلال فتحات المربعات الحديدية المستطيلة التى تعلو الباب .. أنفاسنا لاهثة ، وأعناقنا مشرئبة كى نوسّع بقدر ما نستطيع من دائرة الرؤية ..

وقد كان أول مالمحته من خلال أعواد درابزين السلم قدمين تهبطان حافيتين نظيفتين مغسولتين ثم سروالا أحمر فضفاضا قصيرا يكشف عن مساحة عارية من ساقين ناصعى البياض مما يوحى أن صاحبهما نادرا مايعرضهما للشمس والضوء إلا ربما لحظات الوضوء ! وكنت أعافر فى وقفتى كى أرى وجه ذلك الهابط على مهل ، أول من سينفذ فيه الحكم ، إلا أن الرأس كانت دائما ليست على مستوى النظر وهو يدور مع دورة السلم الحلزونى ، محاطا من اليمين ومن الشمال بعسكريين كل منهما ، ممسكا بذراع .. وما أن انتهوا من هبوط السلم وبدأوا السير على بلاط الممر ، حتى التقطت ورغم العتمة وجهه وكدت أصرخ عليه فقد عرفته رغم أنه أصبح فى ربع وزنه : هنداوى دوير .. شد حيلك ياهنداوى ..

إلا أننى بالطبع ابتلعت رغبتى فى الصراخ .. وسرعان ما مرقوا به من دائرة بصرى ليدفعوا به إلى زنزانة الاعدام !

ملأنى إحساس بالرغبة فى الاجهاش بالبكاء عليه ..

كان لدى قناعة عميقة بأنه وان كان عضوا فى جماعة الاخوان المسلمين ، إلا أنه لم يكن عضوا فى ذلك الجهاز السرى الذى خطط لاغتيال عبدالناصر بالرصاص وهو يخطب فى الاسكندرية .. بل ولاشارك فيها حتى بابداء الرأى .. ذلك اننى فى المرات التى لقيته فيها كانت السماحة والرقة والحياء طابعه .. بل إننى كنت أحيانا أحس بأنه يتداخل فى بعضه خجلا وكأنما يود أن يعتذر عن وجوده فى هذا الوجود .. أم أن ذلك ـ حسب قوانين علم النفس ـ كان هو الأرضية الأولى للصاروخ الكامن فى انتظار الأمر بالانطلاق ؟! أجل .. من يدرى ؟! ألم أكن منذ فترة قليلة أتحدث مع عاكف الرافعى عن العرائس والدمى .. والخيوط التى يجب تمزيقها فى دنيا التنظيمات السرية ؟!

وأفقت على المحكوم عليه الثانى يساق الى نفس المصير .. وفى اللحظات الخاطفة التى مر فيها من أمامى راهنت مع نفسى أنه لابد « يوسف طلعت » كما رأيت صورته من قبل فى الجرائد متهما بأنه ضبط وحول وسطه حزام من الديناميت .. وفى تلك الصور كان يبدو فيها ، من ضخامة الجسد ومتانته وكأنه أحد المصارعين !! يا الهى .. ماباله قد وصل إلى هذا الحد من الهزال .. ومن الذهول ؟!!

وفى لحظة كان قد اختفى هو الآخر !

وقد كان من الممكن أن أكتفى بهذا القدر من ذلك الحدث المأساوى التاريخى الفاجع ، فقد تكرر مع الباقين نفس المنظر ونفس الايقاع ونفس الانطباعات .. لولا مافوجئنا به يحدث من المحكوم عليه الأخير .. فقد بدا كالممثل التراجيدى العظيم الذى يدخل المسرح قبل أسدال الستار على مسرحية حزينة كئيبة الأحداث ، وإذا به بحضوره الطاغى وأدائه العظيم ، يقلب الحزن فرحا ، والشعور بالموت وبالتلاشى ، إلى احساس بالحياة وبالسطوع وبالخلود !

ذلك كان العظيم « عبدالقادر عودة » المحامى .. والذى رأيته مثل سابقيه يهبط السلالم حافيا .. عارى الرأس .. مرتديا بدلة الاعدام الفضفاضة القصيرة الحمراء .. لكن الخطوة عنده مختلفة عن خطوات السابقين .. ثابتة واثقة .. والصدر مع القامة الطويلة ، عريض ومفرود .. والنظرات صاحية بل ومتحدية !!

وبدا لى أن حراسه ، ضباطا وعساكر ، منتشون بهذا الموقف .. فهم مهما كان الأمر فى دخيلتهم مصريون . وجميل أن يروا مصريا قويا وشجاعا أمام القهر والموت ، ولهذا لم يدفعوا به دفعا إلى زنزانة الاعدام .. بل نفذوها بالحركة البطيئة .. ثم .. ما أن اختفوا من أمامى متجهين إلى زنزانة الموت ، حتى تناهى إلى اسماعنا صوته يقول منشدا ونادبا أيضا : ولست أبالى حين أقتل مسلما ..

على أي جنب كان فى الله مصرعى

وهنا عجلوا بدفعه إلى حيث حبل المشنقة ، فصاح صيحته الأخيرة أو قل أطلق طلقته المدوية الأخيرة : اللهم اجعل دمى لعنة على القوم الظالمين !

ثم أعقب ذلك صمت عميق ، ونوع غريب من الظلمة أعمق من ظلام القبور ! .. وافقت من كآبتى على عبدالرحمن الخميسى يقول وهو ينظر إلى بعيد : رغم كل مابيننا وبينهم من خلاف .. هذا بطل تراجيدى عظيم .. حول لحظة الموت إلى ملحمة حياة وخلود !

★ ★ ★

بعد هذا الذى حدث .. بدت محاكمتنا التى ستجرى فى نفس اليوم شيئا هينا بل وتافها .. فمهما كان الذى سيحدث فيها ، فها نحن لانزال أحياء نتنفس وقلوبنا تدق وأقدامنا تدب وصدورنا تفيض شوقا مترعا للحياة .. وبعد قليل سألتقى بفتحية التى تعلم بموعد المحاكمة ، أو على الأقل أراها .. وبالتأكيد ستكون معها أمى وأخى البادى .. آه يابادى .. كم أوحشتنى !! .. ولم تمض ساعة أو أكثر بقليل ، حتى كنا نساق وكلابشات الحديد تربط معاصمنا بمعاصم حراسنا ، عبر ممر داخلى يصل السجن بأحد الأبواب الجانبية للمحكمة ، وإذا بضجة رعدية هائلة من الهتافات يستقبلنا بها الأهالى الذين كانوا فى انتظارنا : عاش كفاح الشعب المصرى .. عاش كفاح الشعب المصرى ! هتاف واحد وموحد ، ولا أثر لتلك الهتافات المعادية والمتحدية للثورة واصفة إياها بالدكتاتورية العسكرية .. وقدرت أن ذلك بفعل حرص الأهالى على عدم استفزاز البوليس والمحكمة . أين

انت يافتحية ؟! واذا بصوتها يصل سمعى .. عرفته قبل أن اراها ، وهى تشق الزحام ببطنها الكبيرة أمامها ، مطلقة نفس الهتاف بحياة كفاح الشعب المصرى . واذ رأتنى ـ وقد سطع وجهها من قلب الزحام ، أطلقت صيحتها منادية علىّ .. وإذا بولدنا الحبيب « ايهاب » معها ، وأمى أيضا .. وكذلك أخى البادى .. ومن هذا أيضا يا إلهى .. انه خالى حسن الضرير .. بعمامته البيضاء وجلبابه البلدى البنى وشاربه الأبيض الهانش الذى كنت ياما اشده منه وأنا صغير .. وتمنيت لو تطوله يداى .. هو بالذات ، لأتمرغ براسى فى صدر جلبابه ، وأمسح على عمامته واقبل رأسه شاكرا على ماجشم به نفسه من عناء !! غير ان كل محاولات التلاقى منا ومنهم فشلت . فقد ضرب البوليس كردونا محكما حولهم ، ثم أسرع ودفع بنا ـ بخشونة وغلظة ـ إلى قاعة المحكمة وأغلقوها جيدا علينا !

ولأن عددنا كان كبيرا ، فالقضية من يومها الأول اشتهرت بقضية الــ ٦٩ .. وهو العدد الذى وقع فى قبضة البوليس ليلة القبض علىّ .. ثم أضيف إلينا من شرفنا فى السجن بعد ذلك ..

ولهذا فقد ضاق قفص الاتهام الأسود الكالح والصدىء أن يضمنا جميعا ، فاضطروا لأن يجلسوا الباقين بحراسهم على الأرائك الخشبية .. وكنت أنا واحد منهم بحارسى !!

لم يكن الوضع مهينا فقط ، بل وكان مؤلما ألما عضويا ..

لنا وللحراس أيضا .. ولهذا فقد انفجرنا في غضب صارخين هاتفين :

فكوا الحديد .. فكوا الحديد !!

وارتجت القاعة بالهتاف الذى انتقل إلى خارج القاعة وإذا بالأهالى هم الآخرون يهتفون ويصرخون : فكوا الحديد .. فكوا الحديد !

وتناهت الضجة الى القضاة فى حجرتهم فأمروا بفك الحديد وهو حق قانونى وأوّلى للمتهم أمام القاضى .. وداخلنا الاحساس بالنصر ، وبدأت الجلسة !

★ ★ ★

سوف أعترف الآن بسر أقاوم الاحساس بالخجل الشديد لذكره ، لولا أننى خرجت منه بواحد من أخطر الدروس التى أفادتنى فى حياتى وحررتنى تماما من عهد الصنمية والطوطمية !! .. فبينما أنا جالس أتابع مناقشة القاضى للزملاء المتهمين وللشهود واحدا بعد الآخر ، منتظرا دورى .. وجدتنى فجأة على حال شديد من اللخبطة الفكرية .. فهاهم بعض الزملاء ، براس شامخ وصدر مفتوح متحدى ، يقومون بدفاع سياسى يدينون فيه الثورة والنظام الحاكم الخادم بكل مؤسساته للبرجوازية والراسمالية العالمية ، وحتى الهيئة القضائية نفسها الماثلة أمامنا الآن على المنصة إن هى فى حقيقتها إلا أداة تنكيل بالمواطنين والأحرار الحقيقيين ، ولذا فأى حكم تصدره عليهم هو وسام شرف يفخرون بحمله !

ولقد شممت فى ذلك النوع من الدفاع رائحة الوصايا اللينينية الثورية التى تحض على التمثل بدفاع ديمتروف السياسى الشهير .. فهل لدى الشجاعة أن أفعل مثله ؟! إلا أن هذا المنطق لم أحسه متجاوبا مع عقلي ووجدانى .. والأمر ليس مسألة شجاعة ومباراة على القدرة على التحدى لآخر المدى ، بل المهمة العاجلة والمصيرية الآن هى العثور على الحقيقة وعلى الموقف الصادق النابع من القلب والعقل معا .. فبعد الصدمة وذوبان الجليد اللذين حدثا لى بعد مناقشاتى مع عاكف الرافعى حول بيان السجن الحربى والعودة إلى التأييد الصريح لثورة ٢٣ يوليو ، وبالذات لخط عبدالناصر المتمثل فى الشروع فى توثيق العلاقات مع الاتحاد السوفييتى .. وسفر بعض الوفود إلى موسكو .. بعد هذا يصبح من العار علىّ أن أتصرف كدمية خيوطها فى أيدى غيرها .. حتي ولو كان دور هذه الدمية هو دور بطل !!

وإذن ؟! إذن ماذا ؟! وماهو موقفى بالضبط وعلى عجل ؟!

وفى عز حيرتى وتشتتى وخوفى من أن أتنكب الطريق . أن يند عنى مايعتبره وحوش الغابة ومتهوسوها سقوطا وانهزامية ، وجدتنى ألجأ بروحي الى أرواح من يمكنهم الهامي بالموقف الصحيح .. وإذا بى أردد لنفسى ، ومع حركة أنفاسى : لينين .. ستالين .. ماركس .. لينين .. ستالين .. ماركس .. ستالين .. لينين .

وهكذا ، ظللت أردد فى الخفاء هذه الاسماء التى أؤمن

بأنها الرمز المقدس العظيم ! .. وإذا بالعقل يتوقف تماما وأتحول الى درويش أو مجذوب لا يفيق إلا على الحاجب ينادى على اسمى ، ثم والقاضى يوجه إلىّ الاتهام التقليدى اياه .. هل أنا عضو فى التنظيم ؟!

خرجت الاجابة منى هزة بالرأس نافية فى هدوء : لا !!

واذا بالقاضى يكتفى معى بهذا ويشير لى بالجلوس ثم يطلب استدعاء الشاهد ضدى ، وإذا بالحاجب ينادى « حسن .. المصيلحى » تسارعت دقات قلبى رغما عنى .. إنه الرئيس الأكبر والموجه العام لقسم مكافحة الشيوعية ! ورأيته يدخل القاعة .. نحيلا .. ممصوصا ..أصفراوى السحنة .. وكانت المفاجأة التى لم تخطر لى على بال . لقد وجدته يدلى بشهادة كاذبة مائة فى المائة ، قال أنه بينما كان يتتبع حركتى فى الخفاء ، إذا بى يرانى قادما من محطة باب اللوق : طويلا نحيفا حاملا حقيبة جلدية .. و ..

ولم أدعه يكمل بل نهضت واقفا مقاطعا إياه : معذرة ياسيادة المستشار .. أظن كذب الشاهد بين وفى غاية الوضوح (وأشرت الى قامتى) فأنا لست طويلا كما ترون .. وأرجو المعاينة على الطبيعة ..

وابتسم القاضى الوقور وأشار لى بالجلوس ، فاعدت مؤكدا - بخبرتى - كمحام - أرجو تسجيل أقواله وأقوالى ياسيادة المستشار !

الغريب أن القاضى بعد هذا لم يعد لمناقشتى أو مناقشة

الشاهد ، بل اكتفى بهذا .. وأشار إلى الحاجب أن ينادى على المتهم التالى !

جلست لا أكاد أصدق كنت أجاهد كى اكتم فرحتى بين ضلوعى .. هاهو القدر للمرة الثانية يلعب معى فى هذه القضية لعبة طيبة وسعيدة وخارقة للمألوف : فى المرة الأولى ـ ليلة القبض علىّ .. مخبر بسيط لكنه طيب وانسان يرفض الابلاغ عن المخزن السرى الذى اكتشفه فى بيتى !! وهذه المرة .. ضابط كبير لكنه شرير ، ومع هذا يخدم موقفى أمام المحكمة دون أن يقصد بكذبته !!

وداخلنى شعور بأن هناك نوعا من رضا الحياة علىّ ، وأن ثمة قوى خفية مجهولة تدبر لتخفيف الحكم على .. ربما بفعل ذبذبات دعوات أمى وأخى وخالى الضرير !! وتذكرت استغاثتى فى السر بأسماء لينين وماركس وستالين لتقوينى وتلهمنى وإذا بى انكمش خجلا من نفسى .. وأننى كنت اكثر سذاجة وتخلفا من الرجل البدائى الذى يلوذ فى الشدة بصنمه أو طوطميه الذى صنعه لنفسه وآمن به !! وتفتحت روحى بالثقة وبالسعادة ، إن الرأى الذى صدر للمحكمة كان نابعا تماما منى وناتج صراعى العقلى !!

خرج الصوت من أعماقى ومن وحى احساسى . لم أنقد لرأى شخص أو تنظيم . كففت بشجاعة عن أن أكون دمية ـ عن أن أتخلص من عبء حريتى بإلقائه على غيرى !! بل المسئولية الكاملة من الآن مسئوليتى . وهاقد فعلتها .. فليأت

الحكم بعد ذلك كيفما يكون !

وأحسست برئتى تتسعان وأنفاسى تزداد صفاء وعمقا ..

كانت مرحلة جديدة من مراحل ذوبان الجليد وازدياد سطوع الرؤية .

وانتهت الجلسة ، فعادت كلابشات الحديد لتربط معاصمنا بمعاصم حراسنا ، كى يعيدونا مرة أخرى إلى سجن مصر .. بانتظار الحكم والمجهول !!



القبض على رسالة حب !

آخر ماكان يخطر على بالى ، غروب ذلك اليوم ، أن اسمع فتحية تنادى علىّ من فوق التل ، فغدا موعد زيارتها الأسبوعية القانونية لى .. ومع هذا فوجئت بصوتها ينادى علىّ وفى لحظة كنت قافزا ومتعلقا بحديد النافذة . ومن الوهلة الأولى بدا لى منظرها مثيرا للعطف والشفقة : كانت بطنها أمامها قد ازدادت بروزا وتضخما حتى خفت عليها من الانفجار أو من الوقوع إعياء وتعبا .. داخلنى احساس بالذنب وبطلب المغفرة ! .. ومع هذا ببسمتها الأليفة وحيويتها المعتادة صاحت علىّ طالبة منى الا أقلق إذا لم تجىء هى غدا فى الزيارة .. فمعنى هذا أنها ستكون قد وضعت .. أو على وشك الوضع !

أفديك أيتها الحبيبة انت والقادم بعمرى . ولكن ماذا بيدى أستطيع عمله ؟!

مضيت أصيح عليها بعبارات التشجيع وبث الثقة بالنفس ، بينما مضت هى تهبط التل بحملها الثقيل على مهل حتى اختفت عن عينى .

وصح توقعى .. فقد انقضى موعد الزيارة فى اليوم التالى

دون أن تأتى ، وإذن فقد تم الوضع .. أو .. ربما تكون الآن فى ساعات الذروة .. ساعات الطلق بصرخاتها المتوالية وآلامها الرهيبة .. ووجدتنى أجز على أسنانى مثلما تجز هى الأخرى من هول الوجع ! وعاودتنى لحظات ولادتها لايهاب طفلنا الأول ، وأنا أقبض بشدة على شباك سريرها ، وأجز على أسنانى وأتأوه وأتلوى كأنى الد معها ، أو الد عنها ، لأرفع عنها عبء الألم . وما أكثر ماضحكنا على منظرى هذا بعد أن تمت الولادة بسلام وأصبحت ذكرى طريفة تحكى !

غير أنى لم أشأ أن أحول اللحظة إلى دراما حزينة ، بل كنت فى أعماقى جد سعيد .. أكاد أتنطط من الفرح .. فرحا فياضا جارفا . من بين أضلاعى سيخرج كائن جديد يؤكد وجودى فى العالم الخارجى رغم أنى مبعد عنه !

المهم الآن أن تقوم بالسلامة . أن يبعد الرب عنها كل الشرور المفاجئة ! .. وتشجيعا لنفسى استدعيت قصة جوركى : « مولد انسان » تلك التى حكى فيها عن لقائه صدفة ـ أيام ان كان جوالا شريدا ـ بامرأة جاءها المخاض وهى وحيدة فى أرض قفر .. ومع هذا أتمت وضعها .. بشىء من مساعدته ـ ببسالة وبساطة مدهشتين ـ ذلك أن الولادة ـ وهذا ماتريد أن تقوله القصة ـ حدث فى غاية الطبيعية والبساطة يكاد يحدث رغم أنف الانسان نفسه ذلك أنه قانون الحياة الأول ، أو القانون الذى جاءت الحياة بفضله .. ولهذا فهو حدث يكاد أن يكون تلقائيا وآليا .. ولم لا نقول إلهيا يستغنى عن تدخل البشر !!

هواجس وخيالات وتمنيات ظلت تطوف بى حتى جاءنى الخبر السعيد فى العصر .. نقله إلىّ أخوها « محمد » الذى يصغرها بعامين .. صعد على التل بعد أن تحايل على العسكرى من أجل نصف دقيقة لا غير يبلغنى فيها بالخبر صائحا : مبروك فتحية ولدت .. جابت لك ولد . وبتقول لك نسميه إيه ؟!

قلت والعالم كله يضج فى صدرى بالفرح سموه « صلاح » خرج الاسم منى هكذا على الفور وبمنتهى الحماس . لم أفكر أو أتردد للحظة .. ذلك أنى فى الحقيقة كنت جاهزا به .. فليلة الأمس بالذات ، كنا نحتفل بذكرى استشهاد رفيق سودانى اسمه « صلاح بشرى » وما هز قلبى فى الاحتفال هو لحن تلك الأغنية الجماعية الأقرب إلى النشيد الحزين الجليل ، والتى مضينا نغنيها ، أو ننشدها فى سكون الليل العميق : وولد الخاطر فى نفسى : جميل أن يحمل ولدى الثانى اسم بطل شهيد .. يتغنى به الرفاقُ فى السجون !

★ ★ ★

وقد أخذ مولد « صلاح » الذى لم أره بعد ، شكل الفأل السعيد .. فقد أعقبه خبر « جديد » طرت له فرحا : صدرت الأحكام فى قضيتنا .. وكان الحكم الصادر على : سنتين حبسا لاغير .. بينما بعض الزملاء ـ وكان هذا هو الوجه الآخر المؤلم ـ حكم عليهم بعشر أو سبع سنوات أشغال شاقة .. ولهذا فقد داريت فرحتى بحريتى التى باتت قريبة من قبضة يدى ! .. لكن الحق يقال ، إن بعضا من هؤلاء الرفاق الذين

صدرت عليهم الأحكام الثقال الرهيبة هذه ، لم يبد عليهم انهم يعبأون بالأمر .. بل هم ، برد الفعل ، كانوا سعداء مزهوين .. كأنما نالوا جائزة ، أو وساما من أعلى وأرقى أوسمة النضال السياسى !

ثم لم تكد تمضى فترة أخرى ، حتى فوجئنا بخبر جديد مثير : تقرر نقلنا من سجن مصر ، إلى سجن القناطر ، لنقضى فيه بقية مدة الحكم !

وقد انقسمت من اللحظة الأولى حيال هذا القرار ، فهو يعنى إخراجنا من القاهرة ومن هذا السجن ذى الموقع الفريد حيث يمكننى رؤية فتحية فى أية لحظة من فوق التل وأسمع صوت ندائها الحبيب وأتابع أخبار الدنيا .. لكم دخل حب هذا التل قلبى ، مثلما أحببت أماكن أخرى فى هذا العالم ـ فما أكثر ما هون علينا زمتة السجن فى اللحظات الخانقة .. كان رمزا للوصول ولاستمرار الحياة وتفريجا للهم بإطلاق الحنين الانسانى ! .. وكثيرا مافكرت بأنه أجمل شكلا وأكثر نفعا لنا من تلك القلعة الضخمة الجبارة المطلة علينا من أعلى .. لاتوحى إلا بالعنجهية والقهر وتدبير المؤامرات .. وإلا بصورة ذلك الحدث الرهيب : مذبحة المماليك البشعة !

أما هذا التل .. المرتفع فى تواضع .. المنبسط ترابه بحنو وكرم ، فهو صاحب تاريخ إنسانى نبيل يحكى .. فكم من أجيال تلو الأجيال من أهالى وعائلات ورفاق قادة النضال والكفاح الوطنى المسجونين فى هذا السجن .. كم جاءوا اليه

ووقفوا عليه وصاحوا ونادوا .. بل ولعبوا دورا مشاركا فى الكفاح من فوق ترابه ..

ما أجدره بأن يقام له تمثال .. ولو بالرمز ـ وفاء للذكرى وحفظا لمراحل التاريخ !

مثل هذا التل ، لا أظن أننا سنجد له مثيلا أو بديلا له هناك فى سجن القناطر .. فضلا عن عناء المشوار الطويل الذى ستقطعه فتحية فى كل زيارة ، حاملة « زوادة الأسبوع » .. وقد أصبحت مسئولة عن طفلين لا طفل واحد !

لكنه من ناحية أخرى ـ قرار ـ النقل هذا ـ يأتى فى لحظة بلغت الروح فيها الحلقوم .. وأضحت تتوق إلى شىء بسيط من التغيير ..

تغيير ذلك النمط الواحد الذى يستبد بالحياة .. فلأكثر من عام الآن وأنا فى نفس العنبر ونفس السجن .. ونفس الوجوه .. وجوه الرفاق والعساكر والضباط ومتعهدى الطعام وموزعى الوجبات العجاف علينا ..

شىء من التغيير أيها الناس .. أى تغيير يخفف من السأم ويزيل الصدأ الذى بات يغشى العين والروح .. وربما جو القناطر بما تزخر به من حدائق وحقول تحيط بالسجن تجلى البصر والنفس وتعطيها طاقة جديدة على الاحتمال !!

إلا أن لعبة التغيير فى السجون هى خدعة عمرها قصير ..

اذ سرعان ما اكتشفت أن السجون كلها توائم فى الشكل وفى أسلوب الحياة التى تحدده اللوائح التى وضعها الانجليز منذ عشرات السنين ! وضحكت ساخرا حين وجدت زنزانتى فى عنبر (جـ) .. وفى الدور الرابع أيضا .. بالضبط كما كان الوضع فى سجن مصر العتيد !

التغيير الوحيد الذى وجدته وأبهج قلبى فى الأيام الأولى هو ذلك المنظر الطبيعى الجميل الذى كان يبدو من خلال النافذة الحديدية الكبيرة القائمة كمصدر للضوء فى صدر العنبر باتجاه الغرب .. حدائق وحقول مترامية وطيور محلقة ومغردة .. مما كان يغرى بالوقوف والتجمع عندها !! غير أن المنظر مع مرور الأيام بات لوحة جامدة مكررة لا جديد فيها ولا تبديل . بل شاهدا ثابتا على أننا أسرى مساجين ! وكنت احيانا أسمع يمامة تهدل فتتحرك أشجانى ، وأردد مطلع قصيدة أبوفراس الحمدانى الذى خرجت من أعماق قلبه وهو سجين :

أقول وقد ناحت بقربى حمامة

أيا جارتى هل تعلمين بحالى

ولم أستطع تذكر بقية القصيدة ، ولم أحاول أن أتذكرها ، أو أسأل أحد الزملاء عنها ، فقد قدرت أن ذلك سيكون سخفا وتهافتا منى .. أن أبحث عن أشعار الحزن والفقد ، بينما لم يبق أمامى ـ بموجب الحكم ـ غير شهور .. بينما غيرى أمامه سنوات .. وقررت أن أصنع لنفسى برنامجا حافلا أمتص به هذه الشهور الباقية ! .. وكنا فى هذا السجن البعيد المعزول

نتمتع بقدر كبير من الحرية .. فأبواب الزنازين مفتوحة طول النهار حتى موعد « التمام » فى الخامسة مساء ..

ماذا أفعل بهذه الحرية ؟!

كان هناك فريق للرياضة البدنية كونه رفيق ملاكم له بنيان متين ، وابتسامة طفل .. هو الراحل « سعد الساعى » فانضممت إليه . أريد أن أخرج إلى الحياة قويا قادرا على المجابهة والتصدى !

كما كان هناك فصل للرسم ، أنشأه الفنان الراحل أيضا ، ابراهيم حسان .. الذى أغرانى على الانضمام فانضممت وانتظمت وكان أجمل ثمارها الباقية لوحة رسمتها بألوان الزيت لزوجتى فتحية عن صورة فوتوغرافية كانت قد بعثت بها إلىّ هدية ! ..

الغريب أنها خرجت منى ـ أنا الذى لم أمارس فن الرسم أبدا فى حياتى ، ناطقة بالشكل ومعبرة عن الروح أكثر من الصورة الفوتوغرافية !

وقد فرح جدا بها « ابراهيم حسان » أستاذى فى الرسم حينذاك ـ وقال باسما بعينيه مع غنة لطيفة من أنفه : اللوحة دى بتفضح حبك ياعبدالله ..

وفرحت جدا بالتعليق . وعرفت السر بينى وبين نفسى : أنى أضفت باحساسى إلى صورتها ما لم تره الكاميرا فيها ولاتعرفه عنها !!

كذلك كان يعيش معى فى نفس الزنزانة زميل يهودى مصرى اسمه « كليمان موسى » محكوم عليه بثمانى سنوات .. وكان يلبس نظارة طبية زجاجها سميك جدا تعطيه سنا مضاعفا العمره الحقيقى .. وبدونها ، وهو مستيقظ لتوه من النوم ، يبدو متخبطا كالضرير .. ومع هذا ، فما رأيته أبدا ، وهو لابس نظارته - إلا ممسكا بكتاب .. ومستغرقا فى قراءته ! كليمان هذا أنشأ فصلا للقراءة الجماعية بالانجليزية ، ودعانى للمشاركة فيه ، فرحبت فى الحال !! كان يقرأ فى رواية لكاتبة المانية نسيت أسمها ، أما اسم الرواية فقد ظل عالقا بذهنى حتى خرجت من السجن وظللت أدور على المكتبات الأجنبية أسأل عن رواية « العاصفة المهلكة » The Mortal Storm وما أسعدنى حين وجدتها .. بل اننى الآن - وأنا أكتب هذا الفصل ، أضعها أمامى على مكتبى : هى طبعة شعبية خاصة من « بنجوين » بقصد ترويج قراءتها على أوسع نطاق - والكاتبة - هذا هو اسمها : « فيليس بوتوم » .. ثم على وجه الغلاف تنويه عن اهمية الاسراع بنشر هذه الرواية عشية انقشاع ليل الحرب العالمية الثانية واندحار النازية وانتحارها . انها الرواية الأولى المعبرة بروعة وصدق عن الروح النازفة لأوروبا الحديثة بعد المأساة التى تسبب فيها جنون النازى !

وأعود إلى الرواية كما كان يقرؤها علينا « كليمان موسى » فى الزنزانة : هى قصة حب بين فتاة وشاب المانيين ، يخرجان عن المألوف فيرفضان الانضمام إلى « فرق

العاصفة » التى تدين بالخضوع والولاء للجستابو وللزعيم الأوحد « هتلر » وبذلك تبدأ مأساتهما .. وفي نفس الوقت ملحمة بطولتهما !!

وقد استغرقتنى هذه التجربة فى القراءة الجماعية .. وأحببت منظر تلقى العلم ونحن كبار .. وأسفت على كل الفترة التى ضاعت من حياتنا فى سجن مصر ، وقد أجهضت طاقاتنا وأفرغت في صراعات وتنابذات بشتى أنواع الاتهامات !! وقد حرصت على الانتظام في هذه الحلقة مستثارا بأحداث الرواية وفن بنائها الروائى .. إلا اننى وجدتنى فجأة محروما من ذلك .. فقد حدث مالم يكن فى الحسبان !

جاءتنى فتحية فى احدى الزيارات ، وما أن رأى كلانا الآخر من خلال حاجز الأسلاك حتى اقتربت جدا بوجهها من السلك هامسة بحذر : كتبت لك جواب . استعد تأخذه منى فى أى لحظة !

وصارت عيوننا تحصى حركة الحراس الواقفين كالعادة يتابعون مايجرى فى الزيارة .. وإذ بدت لها اللحظة قد أصبحت مواتية دست الخطاب فى إحدى فتحات السلك .. فتلقيته على الفور مخفيا إياه فى قبضتى .. وإذا بقبضة أخرى تنقض على قبضتى وتكلبش عليها !!

كان الضابط (ى . م) وقال منذرا ومهددا : أعطينى الجواب !! ولم يستول عليه فقط .. بل أنهى الزيارة أيضا !!

ولم تمض دقائق حتى وجدتني ملقى فى « زنزانة التأديب » لثلاثة أيام . مصغر زنزانة أو أقل سلخة رفيعة بشكل زنزانة .. فى الدور الأرضى .. ليس فيها غير برش على الأرض وجردل للماء وآخر للبول .. وبحثت عن نافذة أو طاقة يدخل منها النور فلم أجد سوى مستطيل رفيع من مربعات الحديد فوق الباب مباشرة .. كما لمحت خطا صغيرا من النور يطل من تحت عقب الباب !!

وكعادتى لحظات الاحساس بالخطر ، استنفرت كل طاقاتى على المواجهة والتحدى . وفكرت بأنها محنة أو مأزق وسيمر .. أجل .. أكيد سيمر .. مثلما مرت مآزق وأزمات كثيرة !! وداخلى احساس بالفرح !! أجل .. لكى تكتمل تجربة السجن وأعيش كل أبعاده .. ومستويات عقوباته .. ولسوف أضيف كل ذلك للرواية .. وياليتنى أستطيع كتابة قصة عنها .. أو فصلا عنوانه : ثلاثة أيام في التأديب !!

ولأننى كنت قد تدربت على لعبة قتل الوقت ، فقد اتخذت من السفر والتجوال بالخيال وبالتمنيات ، فأخفف عنى محنة مرور ثلاثة أيام بلياليها .. وحيدا فى شبه جب .. لم أكن أرى أحدا سوى الشاويش الذى كان يحضر لى وجبات الطعام الثلاث القميئة ، لمدة ثوان ثم يغلق الباب على الفور ! .. لم يكن هو الذى يحمل الطعام ، بل أحد المساجين العاديين الذين يختارون لمثل هذه المهمة .. وقد تبادلنا من أول مرة نظرات التعاطف والابتسام .. وفى إحدى المرات ، همس لى ،

بينما العسكرى واقف بالخارج : أيها خدمة ؟!

قلت : أيوه .. تجيب لى قلم وورق من الزملاء فى العنبر .

ولعت عيناه بسعادة وهمس : حيحصل .

فى ذلك اليوم حدث لى شىء بالغ الغرابة . فبينما أنا أزاول لعبة قتل الوقت ، ممددا فوق البرش حينا على ظهرى . وحينا آخر على جنبى .. وإذا بى فجأة ألمح فأرا يدخل متسللا متشمما من تحت عقب الباب . انتفضت واقفا .. متخذا وقفة المقاتل .. وإذا به يهرب خوفا على الفور . وأنا ـ المقاتل ـ أضحك على نفسى بسخرية !

فى تلك اللحظة لمعت الفكرة فى ذهنى : آه .. هى لقطة لقصة .. قصة قصيرة . بين سجين وفأر .. ويدور بينهما حوار .. فجأة ، إذا بى أرى وجه الفأر وقد أخذ شكل وجه (ى . م) الضابط الذى اغتصب منى خطاب حبيبتى !! وتخيلتنى وقد منعته ـ على نحو ما من الهروب .. وأصبح الضابط الفأر .. سجينا مثلى .. وسأناديه : ياصاحب القلب الحجرى .. ياعدو الحب .. ياعدو العشاق !!

يا للفرحة التى ضج بها صدرى وقد واتتنى تلك الفكرة وآه لو يأتى لى المسجون اياه ، حامل الطعام ، بالورق والقلم وأكتبها فى اليوم الثالث الباقى لى من عقوبة التأديب ..

من قال أنه تأديب ؟!

بل هو تفجير للفرح وللكنوز للكامنة في قلب الانسان الفنان ..

أجل .. بيني وبين نفسى أنا فنان .. من تواتيه مثل هذه اللقطة .. مثل هذه الفكرة .. لابد فيه موهبة فنان .. كاتب سيكون !

★ ★ ★

اننى الآن أهتز فرحا للذكرى ..

فما أعظم ماتفعله شحنة القهر بالانسان ..

فكما يمكن أن تدمره تدميرا .. قد تبنيه وتخلق منه مالم يكن أبدا فى الحسبان !!

اجل .. فمثلما خرجت منى صورة فتحية لوحة فنية حية وناضجة رغم أنى لم أمارس الرسم من قبل ، فقد خرجت منى قصة « عدو الحب » أو « عدو العشاق » التى كتبتها فى يومى الثالث بزنزانة التأديب عملا دراميا ناضجا .. قرأه « صلاح حافظ » بعد أن خرجت من التأديب وهنأنى عليه وقال : مثل هذه القصة لا تنشر إلا فى روز اليوسف وأنت ستخرج قريبا .. سينشرها لك عبدالغنى ابوالعينين !

وهكذا أضفت إلى فرحتى بكتابة القصة ، فرحتى بتقريظ صلاح حافظ .. وما أدراك من صلاح حافظ حينذاك ..

كان كاتب مقالات ، بل تحف وابداعات : انتصار الحياة .



أمى ..والسلاح الروسى !!

انه الصيف الثالث لى فى السجن ..

أغسطس الأول ١٩٥٣ دخلت سجن مصر .. وأغسطس الثانى مر وأنا مازلت فيه ، وهاهو صاحب الجلالة أو الامبراطور أغسطس الثالث يلوح لى وأنا فى سجن القناطر ، يقترب وئيدا ممسكا بصولجانه الملكى ، مستعدا ليشير به إلىّ بالخروج إلى عالم الحرية من جديد !

كانت خواطرى مزيجا من أحلام اليقظة ومراقبة هذه الأحلام بشىء من الوعى ومدى قابليتها لأن تكون مادة قصصية !! وكثيرا ماكانت تنتابنى رغبة أو أمنية ، أن أغلق عينى وأنام فلا أصحو إلا والفترة الباقية من الحكم قد انتهت ، وجاء يوم الافراج عنى !

إلا أن رؤيتى للزملاء الآخرين ، خاصة المحملين بأحكام ثقال تصل إلى العشر والسبع سنوات كانت تخلق عندى حالة عكسية .. هى اليقظة وبذل مزيد من الجهد وروح المشاركة على أى نحو ! .. كنت أتمنى أن أترك خلفى أثرا طيبا ، وذكرى عاطرة ! .. إلا أن حالة الانقسام والتمزق السائدة والمسيطرة على المنظمات المتناحرة كانت تنعكس علىّ أنا أيضا وتمزق روحى من الداخل !

ولم يكن ذلك الشعور المؤلم جديدا علىّ ، لكننى أحسست بخطورة أثره على وأنا خارج إلى الناس ، والمفروض أن يكون لدى رأى واضح ومحدد فيما هو حادث .. على الأقل أن أكون مازلت مقتنعا بوجهة النظر السياسية التي دخلت بسببها السجن .. فهل حقا أفكارى لاتزال كما هى ؟!

لقد كان الحال فى أغسطس الأول الذى دخلت فيه السجن غير أغسطس الثالث الذى سوف أخرج فى رحابه !

اختلف الوضع تماما .. خارج السجن وداخله أيضا !

كانت أنباء الصراع الدامى على السلطة بين جمال عبدالناصر الذى أصبح رئيسا للوزراء ووزيرا للداخلية وبين محمد نجيب رئيس الجمهورية ، تتوالى مشيرة إلى ترجيح انتصار عبدالناصر ! .. ليس فقط بحكم المنطق القائل بأن المؤسس الأول للتنظيم الثورى ، يجب أن يكون هو الأول فى التصدى للحكم والامساك بزمام الأمور ، بل أيضا لأنه كان حريصا على أن يكون الأول فى قيادة معركة التحرير واجلاء عشرات آلاف من قوات الاحتلال الانجليزى من على ضفة القنال .. تارة بالمفاوضات ، وأخرى بحرب العصابات .. الأمر الذى انتهى أخيرا بإجبار الانجليز على عقد معاهدة الجلاء وتحديد مواعيد حاسمة قاطعة لرحيل هذه القوات عن أرض مصر إلى الأبد !

تلك العملية وذلك الانتصار كانا كفيلين بإدراجه فى قائمة القادة المحررين العظام لبلادهم . وبينى وبين نفسى كنت

أرى في وضوح خطئى .. حين كتبت ووزعت منشورا بعنوان « تسقط معاهدة جمال ـ هيد » !! .. كنا متحجرين أسرى نصوص ومقولات نظرية لا صلة لها بالحقيقة والواقع ! .. كانت قناعتنا بأنه لا استقلال ولاحرية إلا بمعارك السلاح وإسالة الدماء اقتداء بالثورة البلشفية ومن قبلها الثورة الفرنسية .. أما المفاوضات والمساومات فهى ضعف واستخذاء !

الغريب أننا كنا نقول بهذا ولا واحد منا يملك طلقة رصاص ولاحتى مسدس ألعاب ! طلقاتنا ومسدساتنا كلام فى كلام .. وليس أى كلام ـ بل اتهامات تصل إلى حد التجريح والتخوين ! ..

لكنه لم يعبأ ! .. كان يعرف جيدا طريقه .. فمضى حتى انتصر .. ونصر وطنه !

ولم يكن البرهان فقط فى موقفه من قضية التحرير الوطنى ، بل كان أيضا فى موقفه من قضية التحرير الاجتماعى ! .. كان حريصا فى خطبه التى كنا نقرؤها منشورة فى الجرائد والمجلات التى كانت تدخل الينا بانتظام (إحدى ثمار الاضراب عن الطعام) كان حريصا على إعطاء الديموقراطية مفهوما ثوريا جديدا ميزه حتى عن الحكام الليبراليين السابقين ! .. كان يقول بان الديمقراطية ليست فكرة مطلقة ، بل لابد لتحقيقها من أن نرتفع بالمجتمع وبالشعب إلى مستواها . إن المجتمع المصرى القائم على

النصف فى المائة من الأغنياء والملاك ، والباقين جياع ومرضى معدمون وأميون مجتمع مثل هذا محال أن تطبق فيه الديمقراطية ! .. الديمقراطية الحقة ، تبدأ من الديمقراطية الاقتصادية .. بمعنى توفير العدل الاجتماعى .. وبصورة أكثر حسما : لابد من التغيير الجذرى فى التركيبة الطبقية الاجتماعية .. وتحديدا : تذويب الفوارق بين الطبقات .

فما الذى نطلبه نحن فى هذه المرحلة اكثر من هذا ؟! .. ولو كنا نحن الذين فى الحكم الآن وبإمكانياتنا النظرية هذه فحسب ، هل كنا سنستطيع القيام بما يقول ويبشر به ؟!

كنت أتأمل جملته التى كان يقولها من قلبه مصادما ومنذرا الانجليز إبان المفاوضات : على الاستعمار أن يحمل عصاه ويرحل عن بلادنا !

ثم بعد أن كتب الانجليز وثيقة رحيلهم الأبدى عن مصر ، كان عبدالناصر يصيح منبها ومبشرا الشعب : ارفع رأسك يا أخى .. فقد مضى عهد الاستبعاد !

كل هذا كان عبدالناصر يقوم به ، بينما الصراع متصاعد على أشده ، ومجسدا على شكل تمردات فى أسلحة الجيش أحيانا ، ومظاهرات عمالية وشعبية حينا آخر تهتف ضد القائلين بفض الثورة وعودة الحكم البرلمانى !

ولأن الخيوط الأساسية كانت فى يده من أيام وضع النواة الأولى لتنظيم الضباط الأحرار ، فقد استطاع أن يدير

الصراع على النحو الذى انتهى بحتمية استقالة نجيب .. وتذكرت حينذاك نبوءة عاكف الرافعى فى الأيام المبكرة الأولى للثورة ، وهو يلفت نظرى إلى هذا الرجل المسمى : جمال عبدالناصر !

أقول .. بينما كان الصراع دائرا فى الخارج على هذا النحو ، كان ثمة صراع دائر بيننا داخل السجن .. صراع أحد قطبيه : حاملو وجهة النظر المتمثلة فى بيان السجن الحربى المؤكد لوطنية ثورة ٢٣ يوليو ، والمؤيدة لتيار عبدالناصر ، رفيق أيام النضال تحت الأرض !! والقطب الآخر هم هؤلاء الواقفون على يسار اليسار ، والقائلون ولايزالون بفاشية النظام وبرجوازية الحكام العسكريين الموالين لأمريكا !!

وأذكر أن هؤلاء لوّحوا لنا ، بل قل أذلونا بتقرير سرى خطير كتبه أحد أعضاء اللجنة المركزية للحزب الشيوعى الانجليزى .. اسمه « بالم دات » يؤكد فيه صفة الدكتاتورية العسكرية لحركة يوليو ، وينفى عنها تماما صفة الثورة !

وقد استفزنى ذلك التقرير ، وشرعت أتناقش حوله . وإذا بصديقى الفنان الرسام ابراهيم حسان ، يقول معلقا ساخرا منه ، يطلع مين بالم دات ده ؟! يكونش عمر بن الخطاب أو على بن ابى طالب ؟!

ياراجل ارم !

وضحكت من قلبى .. ورميت فعلا بالتقرير خلفى !!

كما تذكرت فى نفس الوقت جملة فى الصميم قالها لى ذات مرة « زكى مراد » وهو يتصدى لحملة تشويه للضباط المصريين الذين قادوا ثورة ٢٣ يوليو ..

قال لى : تذكَّر أن أحدهم ـ وكان مصريا غبيا ـ بصق فى وجه عرابى العظيم وهو يدخل أحد المساجد ليصلى متهما إياه بالعمالة والخيانة وأنه هو الذى مهد بثورته الحمقاء لدخول الانجليز !

ومع هذا ، فقد ظل الاحساس باليقين يجافينى ، حتى حدثت الواقعة التى حسمت هذا الصراع فى نفسى !

جاءت أمى مع فتحية فى الزيارة الأسبوعية المعتادة ، وإذا بها تهمس لى قائلة : معايا ورقة صغيرة عايزة أعطيها لك .

ـ ورقة ايه ؟!

ـ وصل بخمسة جنيه .. اتبرعت بهم للحكومة .. عشان السلاح اللى حيشتروه من روسيا .. الناس فى البلد قالو لى انك حتتبسط لو أنا ساهمت .

فى تلك اللحظة بالضبط .. أحسست باليقين المرتجى يملأ قلبى . ومن فرط الفرح مضيت أقبل الأسلاك الحاجزة بيننا ، بديلا عن تقبيلى لها !

ولأنى لم أكن أريد تكرار مهزلة التأديب والحبس الانفرادى بضعة أيام أخرى ، فقد طلبت منها ألا تتعجل فى إعطائى الايصال ، بل تنتظر حتى تحين اللحظة التى تخلو من عيون الرقباء : سرعان ماجاءت اللحظة بينما نحن - أنا وولداى ايهاب وصلاح - نلعب لعبة تلاقى الأصابع من خلال ثقوب السلك ، أدخلت الايصال الملفوف كسيجارة والتقطته .

أنا فى غمضة عين وأخفيته فى الحال !

إننى الآن أبتسم للذكرى ، فمن كان يظن أن ورقة صغيرة مثل هذه ، يغلب عليها السذاجة والطرافة ، ستلعب دورا كبيرا فى حسم ذلك الصراع الايديولوجى الحاد والخطير بين المنظمات الشيوعية حول وطنية ثورة يوليو من عدمها ؟! .. فقد رحت أطلع على هذا الايصال « الرمز » كل من كنت أقابله من الزملاء !!

وكنت قد دخلت - وبشكل حاسم - منعطفا جديدا فى حياتى ، وهو أن يكون قرارى وموقفى فى أى موضوع أو مشكلة نابعا من فكرى وقناعتى الذاتية الشخصية ، وليس ترديدا لرأى الآخرين . وبالتالى أتحمل كل مسئولياته ونتائجه !!

وقد تصاعد تفاؤلى إلى درجة الفرح والمرح حينما وصلتنا من قيادة التنظيم بالخارج تقارير تقول بوطنية ثورة يوليو وأنه إذا كانت هناك ثمة خلافات أو مآخذ لنا عليها فان ذلك لاينفى

عنها صفة الوطنية والثورية .. وأننا يجب ألا نكرر أخطاءنا المخجلة السابقة بأن ننقلب عليها فى كل موقف لايعجبنا منها ، ثم نعود إلى تأييدها حالما تأخذ موقفا نرضى عنه !! ذلك عبث سياسى وعدم نضج جلب علينا الكوارث .. وأن الخلاف الحقيقى والمبدئى إنما يكون على الاستراتيجية أما التكتيك فلكل لحظة مايناسبها .. ولكل شيخ طريقة ! .. إن سر مأساتنا تكمن في أننا نريد فرض منطقنا ووصايتنا على الثورة وكأننا نحن الذين قمنا بها .. أن نحاسبها كما لو كانت ثورة شيوعية بلشفية ، بينما المجد الحقيقى لها ولنا أن تكون وطنية فحسب ، وتظل محافظة ومدافعة عن هذه الهوية !

هكذا أخذت التجربة الحافلة الأليمة فى إنضاجنا .. وتمثلت أروع تباشير هذا النضج فى ذلك الاتجاه التوحيدى الذى صار ينتشر بين سائر أفراد معظم المنظمات فى الخارج بغية إنهاء مأساة الانقسامية .. وأن علينا نحن الاخوة المتقاتلين فى السجن ، أن نوقف هذه الحرب العبثية المخجلة ، ونحقق الوحدة فيما بيننا !

وقد غزت الفرحة قلبى وأنا أرى هذا الاتجاه للوحدة وقد أصبح الشعار الأساسى للمرحلة . إنه التكفير الوحيد عن جرائم وخطايا الانقسامات التاريخية التى ارتكبناها ، وشوهنا بها الفكرة العظيمة التى اعتنقناها ونذرنا أنفسنا لها !

وبدا لنا أننا فى سباق مع الزمن ومع ما يحدث فى البلد من تغيرات فها هى ذى العلاقات الدبلوماسية بين مصر والكتلة

الاشتراكية كلها تشرع فى التوثق ، معلنة بدء عصر جديد من الانفتاح على النصف الآخر من الدنيا ! يالها من ضربة .. كنا حتى ذلك الحين أسرى مغلقين على نصف العالم الغربى .. وهانحن نصبح مفتوحى الأعين والقلب على كل العالم ، لكى نصبح أكثر قدرة على رسم مسارنا ، وتوجيه قدرنا ومصيرنا !! .

كما أعلن عن سفر قريب لعبد الناصر إلى « باندونج » ليشارك فى مؤتمر لعدم الانحياز العالمي .. نجومه نهرو ، وتيتو ، وشواين لاى .. وسوكارنو !

انه الخروج التاريخى الأول لمصر المستقلة من حبستها وعزلتها !!

وإذ مضيت أتتبع بشغف أنباء سفر عبدالناصر إلى باندونج وجدت أن موعد طيرانه إلى باندونج سيتزامن مع الافراج عنى !

وتراءى لى أن وقائع الحياة هى التى اضحت تكشف عن الوجه السياسى الحقيقى لثورة يوليو وبغاية الوضوح والبساطة .. وأن علينا ، إذا كنا حقا صادقين أن نعترف بخطئنا وننقد أنفسنا نقدا ذاتيا واضحا وصارخا لا لبس فيه !

وقد اندفعنا فى السعى لتحقيق الوحدة المرتجاة ، حتى لم يعد لنا من عمل سوى التلاقى بين أفراد المنظمات وطرح قضية الوحدة للنقاش . وساعدنا على هذا تلك الحرية

الواسعة المتاحة لنا طول النهار ..

فجأة .. إذا بشيء بالغ الغرابة يحدث فانتبهنا ، حيث كنا ، ومضينا نتبادل النظرات غير فاهمين ولا مصدقين !



ويبقى الحب..
فى أنتظارنا !

لم يكن موعد دخولنا الزنازين ، المسمى « بالتمام » قد حان ، بل كان باقيا عليه أكثر من ساعة ، ومع هذا إذا بصفافير الحراس وقد انطلقت بإيقاع متتابع سريع يوحى بثمة خطر قادم فى الطريق !

ـ ما الحكاية ؟!

سألنا الشاويشية الذين راحوا يدفعون بنا بأيديهم وبالصفافير ـ نحو الزنازين .. فقالوا إنهم لايعلمون وإنما هى أوامر المأمور !!

ـ فليكن . ولكن اعطونا فرصة ندخل فيها دورة المياه ونملأ الجرادل بماء الشرب .. و ..

ـ ولادقيقة هى الأوامر هكذا !

وعادوا يدفعون بنا ويصفرون !

وحينذاك أعلنا التمرد رافضين أمر المأمور ! واذا بالمأمور يأتى بنفسه إلى العنبر .. كان ضخم الجثة ، غامق السمرة بخطواته عرج خفيف ، وأعلن تحذيره ووعيده للذين لن ينفذوا

الأمر بالدخول ..

وإذا بصوت جهورى يرد عليه متحديا فى ثقة وهدوء : احنا مش حندخل الزنازين إلا فى الميعاد القانونى !

ونظرت .. فاذا به « بكر سيف النصر » أحد المقبوض عليهم فى القضية المسماة بقضية الجبهة الوطنية ، والذين كان مصيرهم السجن الحربى لفترة ثم شاركونا سجنى مصر والقناطر !

.. وكان المثير والمميز فى بكر هذا انه كان شبيها بالملك فاروق .. وجاهة وضخامة وهيبة ، وما أكثر ما أحدث له هذا الشبه من مآزق ومشاكل وطرائف حكاها لنا . وضحكنا لها !!
كما كان أحيانا يأتينى قبل غلق الزنازين علينا مباشرة ويطلب منى صورة ايهاب ابنى الفوتوغرافية قائلا : خليها معايا الليلة ! لم يكن قد تزوج بعد .. وأدركت كم يفيض قلبه بالحنين للأبوة وللأولاد !!

كان إنسانا كبيرا ..

بكر الجميل العظيم هذا يكشف عن وجه جديد جسور لم أره فيه من قبل !

قال له المأمور وقد ضايقته الاهانة المعلنة : أدخل يابكر زنزانتك . أنا مش عايز أؤذيك ! دى أوامر من فوق !

وإذا ببكر يرد عليه بنفس الهدوء الوقور والمتحدى ،

مخاطبا إياه باسمه مجردا من لقبه ورتبته كمأمور : قلت لك مش حادخل ياس . و .. إلا فى الميعاد القانونى .. واعمل اللى تعمله .. انت واللى فوق !

فى دقائق ورأيت مجموعة من العساكر تحيط ببكر سيف النصر مستعدة لتوثيقه .. لكنه بهيكله العظيم المهيب ـ أشار لهم بكفه ، وبثمة ابتسامة انسانية محبة جمدت أذرعهم عن اية حركة .. ثم سار معهم إلى حيث يريدون بهدوء ودون أن يمسوه ! .. وما أن اختفى عن أعيننا حتى فوجئنا بشىء أقرب الى التوحش والجنون يحدث : عادت مجموعة العساكر ومعهم كلب « ولف » ضخم يتدلى لسانه ويلهث .. وشرعوا يصعدون السلالم إلى الدور الرابع ! حيث يقف المتمردون .. الرافضون دخول الزنازين !

كان المنظر مثيرا للذهول وللرعب .. وبدا لى أن هؤلاء العسكر وكلبهم المتلمظ اللاهث إنما هم من زبانية الجحيم .. وخيل لى فى لحظة أننا عدنا إلى أيام أباطرة الرومان ، حينما كانوا يدخلون الوحوش على المطلوب تأديبهم أو التخلص منه !

كذلك وجدتنى افكر تلقائيا : او ليس هذا التصرف المتسم بالتوحش يدعو الانسان مرة أخرى إلى التردد فى العودة لتأييد هذه الثورة ؟!

كانت السلالم حلزونية ، ودورا بعد دور راحوا يصعدون بالكلب نحونا .. وما أن بلغوا الدور الرابع حيث نقطن حتى

رأيتهم يتجهون بالكلب إلى احدى الزنازين ويدخلونها ، واذا بصرخات الرعب تتعالى من داخلها . صرخات إنسان أفقده الخوف عقله .. فتتابعت صرخاته وإستغاثاته . وإذا بى أتنبه الى شىء غريب ومثير . ذلك هو اختيارهم لهذه الزنزانة بالذات ليبدأوا بها لم يكن نزيلها متمردا معنا ، ولاسياسيا أصلا .. بل كان لحظتها وياللغرابة قابعا فى الزنزانة ناجيا بنفسه من أى خطر .. واذا به يرى الهول داخلا عليه فمضى كالفأر المذعور يصرخ ويتخبط وقد فقد وعيه !

وأدركت مدى الخسة والدهاء الوضيع الذى تصرفوا به . لقد بدأوا بأضعف الحلقات كى ينشروا الرعب فى القلوب !! ثم خرجوا من الزنزانة ووقفوا أمامها بالكلب اللاهث ينظرون .. وتسارعت دقات القلب : على من سيكون الهجوم القادم ؟! .. « تعال ياعبدالناصر .. تعال أيها المتحدث باسم الشعب .. ويا أيها الذاهب إلى باندونج لتبدأ عصرا جديدا .. تعال وانظر الى بعض رجال نظامك الجديد ماذا يفعلون بنا ؟!

ويبدو أن المأمور كانت له حساباته المرسومة بدقة ، فلم يعاود العساكر الكرة الجهنمية .. بل مضوا يهبطون بكلبهم السلالم فى اتجاه الخروج .. كما أن الزملاء ارتأوا عدم تصعيد الموقف باستمرار المواجهة ، وتقرر الاكتفاء من التمرد بهذا الحد .. ودخلنا جميعا الزنازين !!

وقد ظل منظر الكلب بلسانه الأحمر اللاهث المتدلى وصرخات الرجل المرتعب اليائس تصاحبنى !! وكذلك منظر

« بكر سيف النصر » وهو يتحدى المأمور غير عابىء بما سيحدث له .. ثم منظره وهو عائد من التأديب بشكله الملوكى وخطواته المهيبة ، ثم وهو يخلع قميصه ـ بالحاح منا ـ لنرى ماذا فعلوا بجسده : لقد صلبوه على العروسة .. وهووا على جسده العارى بواحدة وعشرين جلدة . وكانت آثار الجلدات الدامية على بشرة جسده الناصع البياض . ومع هذا كان يبتسم ببساطة ساخرة عظيمة .. كأنما كان فى لعبة وعاد منها !

ومن ثم قام فى النفس نوع من التوازن . بين الضعف وبين القوة .. وبين الانهيار وبين الشموخ الانسانى !

كان السؤال الذى يشغلنى بإلحاح : هذا الذى حدث .. مامعناه ؟! وماالهدف منه ؟! فى هذا الوقت بالذات ، وقد شرعنا نصحح موقفنا من الثورة ومن عبدالناصر ؟!

وإذا بالجواب يأتينى من عاكف الرافعى : بل لهذا السبب بالذات حدث ماحدث .. وسيظل يحدث كلما حدث نوع من التقارب أو حتى الشروع فى التقارب بين الشيوعيين وبين الثورة ! ذلك أمر خطير غير مطلوب . ويخيل لى أحيانا أنه غير مطلوب من عبدالناصر نفسه ! .. ذلك قدرنا أيها العزيز .. أن نكون جسر عبور للأجيال .. ونداس بالأقدام وبالعربات وبالدبابات .. وفخرنا فى قوة الاحتمال .. انما علينا ، قبل أن نصحح موقفنا من الثورة ومن عبدالناصر أن نصحح موقفنا من أنفسنا ! ان نعيد بناء تركيبتنا النفسية والفكرية من

جديد . لو حدث هذا ، سنكون حقا قد دخلنا فى دور النضوج !

ينتابنى الحنين ذات لحظة أن أرى قرص الشمس وهو يغرب خلف حقول وحدائق القناطر .. أتجه إلى النافذة الغربية الكبيرة فى صدر العنبر . أفاجأ بشخص واقف هناك يرتدى جلبابا ممسكا بقضبان الحديد يحاول أن يخلعها أو يهزها فيعجز فيضرب دماغه فى الحديد ويسيل الدم غزيرا من جبهته وهو يصرخ شاكيا باكيا : أنا باحبك ياعبدالناصر ياابن دين الـ .... يبقى ليه تسجنى .. ليه تسجننى . وتنتابه نوبة هيجان تنتهى بارتمائه على بلاط الممر .. مغمى عليه ؟!

لقد قبض عليه خطأ واشتباها وقذف به فى بحر الضياع الكبير !!

تنزف روحى من أجله فى صمت .. بينما قرص الشمس الدامى يختفى بالتدريج خلف الحقول .. يرتجف قلبى حزنا وفرحا .. فلم يبق سوى أيام قليلة وأكون خارج هذه القضبان .. طائرا مرفرفا فى أرجاء العالم الكبير !

★ ★ ★

ها قد جاء أخيرا وقت الرحيل !

يقول جبران خليل جبران : « إن المحبة منذ البدء لايعرف عمقها إلا ساعة الوداع » فأية محبة اقصدها الآن وانا أودع عامين فى عالم السجون ؟!

لكثيرا مابدا لى فى هذين العامين انى عرفت جيدا مامعنى

الجحيم ! جحيم الدنيا وليس جحيم الآخرة : جحيم فقد الانسان لحريته .. جحيم أن يكتشف المرء أنه كان دمية تحركها خيوط فى أيد غير مرئية ! جحيم أن نفجع فيمن تصورناهم القدوة والمثل العليا واندفعنا وراءهم بسحر الحلم وهما !

ومع هذا أو قل بسبب اكتشاف هذا ، فان ثمة مشاعر حميمة مبطنة بعواطف جد حارة وصادقة باتت تتملكنى حيال هذا الجحيم !

ذلك أن « الأماكن » و « الأبنية » أحيانا ماتكون هى الأخرى مظلومة بالمهمة البغيضة التى اختارها القدر لها !! فكثيرا ماكنت أحس بأن السجن كمبنى ، وككيان ، وكشخصية يشكو خجلا من كون اسمه : سجن مصر .. الأمر الذى يوحى بأن مصر كلها ، أو كل خلاصتها ورحيقها محبوسة ومختنقة بين جدرانه وقضبانه !

أجل .. فان كنت قد تألمت وعانيت داخل سجون ثلاثة ، فإننى فى ذات الوقت اكتشفت بداخلها تفاصيل وأسرار ماكان يمكننى الوصول إليها وأنا بالخارج أيام الحرية ، اتخبط فى ظلمات عالم السرية !!

لقد اكتشفت أن الانسان باسم الحرية يمكن أن يسلك الطريق المؤدى إلى خنق الحرية .. وأنه باسم النضال ، يمكن أن يصبح هو نفسه لعنة على النضال ، وجلادا ومعذبا

للمناضلين الحقيقيين !

لقد أخرجتني تجربة السجن من الظلمات إلى النور .. من كهوف السرية إلى صدمة الحقائق العارية بلا أى ستائر أو تحفظات !

أدركت مأساة « صيغة » السرية التى يضطر إليها كل راغب فى الثورة وفى التغيير ، ثم إذا بها بعد قليل هى المصدر الأول لبث روح الارهاب والتخويف وهى الطريق السهل السريع للمركزية والتسلطية ومحو إرادة الآخرين !!

إنها المعادلة المستحيلة !!

كل هذا وغيره اكتشفته بفضل وجودى داخل السجن . فكيف لاتتملكنى لحظات شجن إنسانى وأنا أفارقه .. ليس فقط السجن المبنى ، وانما السجن البشر أيضا !! فهؤلاء الرفاق الذين روعتنى انقساماتهم ومصادماتهم ، هم انفسهم الذين تحولوا إلى كيان واحد متماسك فى معركة الاضراب عن الطعام ، وفى معركة التصدى لكلب المأمور الأعرج الذى كان يتلمظ بنا جميعا ، غير مفرق بين أحدنا والآخر ، مهما كان تنظيمه !!

هاهى ذى المشاركة فى الحياة داخل السجن على مدى عامين ، من التجربة الواحدة ، والمواعيد الواحدة ، وجرادل الطعام والماء الواحدة ، ودورات المياه الواحدة ، والملل

الواحد ، والحنين الواحد .. كل هذا كان يخلّق لدينا يوما بعد يوم ، روح الأخوة والتسامح والرغبة الحقيقية فى التوحد .. كطريق للخلاص وللنجاة وللتطهر أيضا !! وهاهم يبشروننى وأنا خارج بقرب إعلان الحزب الشيوعى المصرى الموحد !!

أليس هذا كافيا لأن تغمرنى من مشاعر التفاؤل والوجد والشجن مايذكرنى لحظة الرحيل بكلمات جبران خليل جبران .. فى كتابه « النبى » الجميل : ان عمق المحبة لايعرف إلا ساعة الوداع !!

★ ★ ★

ولا أذكر بعد هذا من تفاصيل يوم الوداع الأخير غير واقعتين لاتضيع صورتهما أبدا من ذهنى !! الأولى وقد جاءنى زميل من كبار قادة « حدتو » .. جاء يتهادى بجسمه الضخم وأنفه الصقرى وشاربه المنفوش الذى يتضاءل بجواره شارب ستالين الشهير ، وسألنى بطريقته الهادئة الصارمة : أين حذاؤك الذى ستخرج به ؟!

ولما أجبت مستغربا : لماذا ؟! .. كشف لى عن هدفه التنظيمي الخطير : سوف يخفى فى باطنه تقريرا هاما مكتوبا على ورق البفرة ، ثم بعد هذا علىّ توصيله إلى لجنة القيادة المؤقتة فى الخارج !!

أبلغنى بهذا ، ثم نظر لى مسددا خرزتى عينيه السوداوين فى عينى يقول بلا كلام : أم ستجبن وتخاف ؟!

تلك لحظة أبدا لا أنساها .. وقد تراءى لى منظره العام على

شكل وحش متحجر القلب .. فماذا لو أن الأمر انكشف ووجدتنى مقبوضا علىّ فى يوم الافراج عنى ، وزوجتى حبيبتى فى انتظارى هى والولدان .. وأمى وأخى البادى وأصدقائى .. كلهم جميعا .. فى انتظارى !!

ومع هذا ، وأمام نظراته المستفزة الممتحنة ، قلت بلا أدنى تردد : ومن الذى سيقوم بعملية إخفاء التقرير فى الحذاء ؟!

قال وهو يبرم كعادته طرف شاربه المنفوش بثقة واعتزاز : دى مسئولية التنظيم يازميل ! اطمئن !

واوشكت أن أقهقه ساخرا ، بل وشاخرا (وعفوا للكلمة) .. وأقول : مثل مسئولية التنظيم الذى أوقعنى من قبل فى قضية مشينة مع لص البنك الأهلى .. وأيضا مثل ..

غير أنى لم أشأ تذكر مثل تلك الوقائع التى قد تعنى رفضى لقبول المهمة ، وأحضرت له الحذاء الذى كان ينتظر مثلى لحظة الخروج . وإذ نظر فيه رأى صلاحيته العامة للمهمة .. فقام بلفه فى جريدة وحمله تحت إبطه : نص ساعة على الأكثر وحيكون عندك !

وقد كان !!

أعاد إلىّ الحذاء . كانت دقات قلبى تسرع فى الخفاء غير أن الطمأنينة داخلتنى حين أمسكت به ونظرت فيه ثم لبسته

ومشيت به خطوات .. لاشيء أبدا غير عادى .. وأرجعت ذلك إلى دقة ورق البفرة !! سعدت من أعماقى أنى قبلت المهمة . وغمرنى ، وقد ارتديت طاقم الخروج كاملا ، احساس عميق بالثقة وبالرضا عن النفس . وجذبت نفسا طويلا وعميقا من صدرى : ها أنا لا أزال بعد عامين كاملين فى السجن ، أحمل روح الاقدام والمغامرة ..

وخرجت مفتوح الذراعين والقلب للحياة !

★ ★ ★

الواقعة الثانية التى مازلت أذكرها من يوم الوداع .. هى صورة طريفة تدعو للابتسام !! فبعد مرورى على وزارة الداخلية وأخذ بصماتى، أرسلوا بى إلى قسم الأزبكية ـ بميدان العتبة الخضراء .. لكى يتم الافراج عنى رسميا من هناك ! .. وقد حسبت أنى ربما سأقضى بقية الليل فيها ، ففرشت بطانيتى على الأرض لأنام .. وإذا رأيت قطعان البق الزاحفة صعودا وهبوطا عن الجدران ، صنعت مجرى دائريا من الماء حول البطانية كى يصد عنى أى هجوم !!

ولم أكد أدخل الدائرة واستلقى على البطانية حتى فوجئت بصوت فتحية ينادى على : عبدالله ..

انتفضت واقفا .. عابرا الحاجز المائى .. ولكن لا نافذة أنظر منها ، ولا تل هى واقفة عليه !!

إهدأ أيها القلب . تمالك نفسك .. فقد بات اللقاء قريبا .

وفى أية لحظة .. ولن يكون بينكما أسلاك ، بل ستجدها .. كلها .. فى أحضانك .. بين يديك .. وتطير بها إلى حيث تشاء !!

ولا أذكر هل حدث الافراج عنى بعد هذا بلحظات أم بدقائق أم بساعات !! المهم أنه حدث . أفرج عنى وخرجت .. وجدتنى حرا .. بلا كلبشات فى يدى .. بلا عسكرى يتبعنى .. ما اغرب هذا الشعور وأمتعه .. آه .. وهاهى ذى الحبيبة واقفة فى ردهة القسم الخارجية فى انتظارى .. نندفع الى بعضنا ..

كتب « ناظم حكمت » ذات مرة قصيدة يتخيل فيها لقاءه بحبيبته لأول مرة بعد فراق السنين ، وحينذاك تملكه الخوف من أن يسقط من على صدرها ميتا من شدة الفرح !! .. كنت بالضبط هكذا ، وأحكمت ذراعى حولها مخافة أن أسقط من الفرح ، أما هى .. فقد انفجرت باكية : حمدا لله على السلامة ياحبيبى .

ـ وعلى سلامتك انت كمان ياحبيبتى (وبقلب واجف) كل شىء كويس ؟!

ـ كله ياضنايا كويس .. والدنيا كلها فى انتظارك .. ايهاب وصلاح .. ونينا .. وأخوك البادى ، وخالك حسن .. وماما واخواتى كلهم قاعدين دلوقت منتظرينك فى البيت .. بيتنا اللى اتفتح من تانى .. وفرشتهولك .

اهتز قلبى : ماتقوليش فرشتهولك ، قولى فرشتهولنا .

تضرج خداها باسمة بورد الخجل .. والتقت العيون تقول : لحظاتنا .. ساعاتنا .. لياليا التى كانت ستعود وأجمل ..

ومر تاكسى ..

صحنا عليه في نفس واحد ..

توقف فى الحال .

- على السيدة زينب من فضلك .

وانطلق بنا فى ليل القاهرة ..

وقد تعالت في القلب زغاريد الحياة .

ولم أكن أعلم لحظتها أن الأيام تخبىء لنا طوفانا جديدا من طوفانات الحياة .. كان قادما يهدر فى الخفاء كى يوجه الى سفينة حياتنا وحبنا ضربة هائلة تهددها بالغرق وبالهلاك وسط الأمواج !!

« وإلى الجزء الأخير من » عينان على الطريق » « قصة حياة »

قائمة كتب الهلال
من عام ١٩٩١ الى عام ١٩٩٤

هذه مجموعة الكتب التى صدرت فى سلسلة كتاب الهلال من يناير عام ١٩٩١ الى ديسمبر ١٩٩٤ ، وذلك تكملة لما سبق نشره من قائمة الكتب التى صدرت فى سلسلة كتاب الهلال منذ عام ١٩٥١ حتى عام ١٩٩٠ .

عـام ١٩٩١

الكتاب	المؤلف	الشهر

خليها على الله ..... يحيى حقى .... يناير
كيف أصبح روائيا ..... ارسكين كالدويل ـ ترجمة : أحمد
عمر شاهين .... فبراير
قصة البرلمان المصرى ..... د . يونان لبيب رزق ...... مارس
مولد البطل فى السيرة الشعبية ..... د . أحمد شمس الدين
الحجاجى .... ابريل
القلق ـ قيود من الوهم ..... د . عبدالستار ابراهيم ...... مايو
عندما تكلم محمد عبدالوهاب ..... لطفى رضوان .... يونيه
عبدالناصر ..... فتحى رضوان .... يوليو
أوبرا تريستان ..... ريتشارد فاجنر ـ ترجمة بدر
توفيق .... اغسطس
رسالة فى الطريق إلى ثقافتنا ..... محمود محمد شاكر
.... سبتمبر
السينما والعصر ..... محمد فتحى .... اكتوبر
الثقافة والتنمية ..... د . انور عبدالملك .... نوفمبر
الديمقراطية وثورة ٢٣ يوليو ..... طارق البشرى ..... ديسمبر

عـام ١٩٩٢

الكتاب | المؤلف | الشهر

سيرة ذاتية ـ كناسة الدكان ..... يحيى حقى .... يناير
محاكمة جلجاميش ..... د . عبدالغفار مكاوى .... فبراير
سير عربية ..... مصطفى نبيل .... مارس
الشخصية اليهودية فى أدب احسان عبدالقدوس ..... د .
رشاد عبدالله الشافى .... ابريل
طوق الحمامة ـ للامام الفقيه ابن حزم الاندلسى ..... ضبط
نصه د . الطاهر أحمد مكى .... مايو
العبقـرى والكـون ..... تـرجـمـة : د . مصطفـى ابـراهيـم
فهمـى .... يونيه
قراءة فى طبقات وعى الناس مثل وموال ..... د . يحيى
الرخاوى .... يوليو
الحملـة الفـرنسيـة بيـن الحقيقـة والاسطـورة ..... د .
ليلـى عنـان .... اغسطس
شكسبير فى مصر ..... د . رمسيس عوض .... سبتمبر
أوراق شخصية ..... د . لطيفة الزيات .... اكتوبر
فنتازيا الغريزة ..... د . عبدالمقصود عبدالكريم ..... نوفمبر
الأدب والحيـاة المصـريـة ..... د . محمـد حسيـن هيكـل
بـاشـا .... ديسمبر

عـام ١٩٩٣

الكتاب المؤلف الشهر

مصطفى النحاس دراسة فى الزعامة المصرية ..... د . محمد
علاء الدين الحديدى .... يناير
أهرام مصر .. قلاع لا قبور ..... زهير شاكر .... فبراير
مذكرات الشيخ محمد عبده ..... محمد عبده .... مارس
جاليليو ـ الرجل الذى لعب بزجاجة التجسس ..... ميشيل
جبرائيل .... ابريل
شخصية مصر ..... د . جمال حمدان .... مايو
القاهرة ..... د . جمال حمدان .... يونيه
سيناء ..... د . جمال حمدان .... يوليو
العالم الاسلامى المعاصر ..... د . جمال حمدان أغسطس
تأملات دبلوماسى مصرى ..... محمد أحمد .... سبتمبر
ابناء رفاعة .. الحرية والثقافة ..... بهاء طاهر .... اكتوبر
الجمعيات السرية فى العالم اليهودية ـ الماسونية ـ
البهائية ..... د . عبدالوهاب المسيرى .... نوفمبر
شخصيات مصرية .... أحمد عبدالرحيم مصطفى ... ديسمبر

عام ١٩٩٤

الكتاب	المؤلف	الشهر

مصر العثمانية ..... تأليف : جرجي زيدان ـ تحقيق : محمد حرب .... يناير

محمد الثائر الأعظم ..... فتحى رضوان .... فبراير

شرق وغرب ..... د . محمد حسين هيكل .... مارس

اعترافات قناع « يوكيوميشيما » ..... ترجمة : كامل حسين .... ابريل

طه حسين ومعاصروه ..... نبيل فرج .... مايو

همومى وهموم المسرح ..... د . على الراعى .... يونيه

نحن والمستقبل ..... د . مصطفى سويف .... يوليو

الثالوث المحرم ـ اوسكار وايلد ـ رامبو ـ فيرلين ..... د . رمسيس عوض .... أغسطس

المخطوط السرى لغزو مصر .... د . أحمد يوسف ... سبتمبر

تلابيب الكتابة ..... صافيناز كاظم .... اكتوبر

الثوابت والمتغيرات فى العلاقات المصرية السودانية ..... د . يونان لبيب رزق .... نوفمبر

القرن الحادى والعشرون الوعد .. والوعيد ..... محمد الخولى .... ديسمبر

اصدارات دار الهلال

من الكتب الأدبية والثقافية والتاريخية والسياسية والطبية وكتب التراث وكتب الأطفال ومجلات ميكى وسمير تجدها فى مكتبات دار الهلال :

القاهرة : مكتبة عز العرب ـ السيدة زينب .
الاسكندرية : مكتبة النبي دنيال ـ مكتبة المعمورة .
طنطا : ميدان المحطة .
المنصورة : ميدان المحطة.

وفى المكتبات الكبرى بالقاهرة .

طلعت حرب والمهندسين :مكتبة مدبولي ـ مصر الجديدة : مكتبة بوك ـ سنتر و مكتبة اكسفورد ـ الزيتون : مكتبة كمبريدج ـ مدينة نصر: مكتبة راغب و مكتبة الدار العربية ـ العباسية : مكتبة الطالب ـ الزمالك :مكتبة علي مسعود و مكتبة الزمالك ـ باب اللوق : مكتبة الكيلاني القصر العيني : مكتبة العربي ـ السيدة زينب : مكتبة العسلي ـ المعادى: مكتبة غزال ومكتبة برج الكرنك ومكتبة عامر ومكتبة ياسين.
دار السلام : مكتبة النجاح ـ حلوان : مكتبة الوفاء الجديدة .الفجالة : مكتبة راغب .

وفى المكتبات الكبرى بالجيزة :

ميدان سفنكس : مكتبة مدبولي الصغير ـ المهندسين : مكتبة اصدقاء الكتاب ـ جامعة الدول العربية · مكتبة الكوثر ـ الهرم : مكتبة منصور.

وفى المكتبات الكبرى بالمحافظات :

السويس : مكتبة الصحافة .
دمياط : مكتبة نانسي بدمياط وفرع الجلاء .
المحلة : مكتبة الثقافة ومكتبة الشروق .
بورسعيد : مكتبة اولاد نسيم — امام حديقة فريال .
رأس البر : مكتبة حسن حسن ابوحجازى .
بنها : مكتبة فتحي حسب الله .
طنطا : مكتبة الحسن والحسين .
الغردقة : مكتبة نهى .
السويس : مكتبة قطب .
منوف : مكتبةابو شنب .
ميت غمر : مكتبة محمد الدماصي .
القناطر الخيرية : مكتبة غريب كشك .
طوخ : مكتبة طوخ .
بنها : مكتبة ابو شنب ومكتبة الامير.
المنيا : مكتبة علي مصطفى عبيد .
سوهاج : مكتبات الأمير و الفتح و الصحافة .
قنا : مكتبة الهلال .

ومكتبات الصحافة ببنى مزار و القوصية ونجع حمادى و ديروط. و مكتبة حمدى الزواوى بالماستر هاوس .

رقم الايداع : ٩٧٩٣/١٩٩٤

I . S . B . N
977 - 07 - 7516 - 4

هـذا الكتـاب

يقول الفيلسوف الألماني هيجل : "إن تاريخ الإنسان الحقيقى ، هو تاريخ وعيه بحريته !" ولقد عثرت فى هذه الجملة على سر الاضاءة التى شع بها راسى ، وأنا ممدد فى قاع الزنزانة ، أتأمل وضعى واسترجع تجربتى داخل عالم المنظمات السرية ! .. تراها كانت احتياجاً ضروريا ، مثلما كان الحب ضرورة ؟!

اغمض عينىّ واعود بالذاكرة إلى الوراء . مثلما استرجعت ليلة الامس مع الرفاق بعض أيام البداية من قصة حبى ، استرجع الآن والصبح يتنفس قصتى مع هذا العالم السرى ! .. كيف حدث ودخلت وارتبطت واصبحت ذرة دائرة فى فلك .. أنا الذى ماكنت أقيس جمال الحياة وسعادتى منها إلا بإحساسى بحريتى واستقلالى المطلق الذى لاتشوبه ابسط شائبة !

ياله من تاريخ .. هو الذى يفجّر فى راسى الآن قضية الوعى بالحرية !! .

"سنين الحب والسجن"
"قصة حياة"
"عبدالله الطوخى"



تليجرام

غواص في بحر الكتب

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى ٣٠ جنيها فى ج.م.ع تسدد مقدماً نقداً أو بحوالة بريدية غير حكومية ـ البلاد العربية ٣٥ دولاراً ـ أمريكا وأوربا وآسيا وأفريقيا ٣٠ دولاراً ـ باقى دول العالم ٤٠ دولاراً .

القيمة تسدد مقدماً بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال . ويرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد .

● وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

الكويت : السيد / عبدالعال بسيوني زغلول ، الصفاة ـ ص . ب رقم ٢١٨٣٣

للحصول على نسخ من كتاب الهلال اتصل بالتلكس : 92703 Hilal.V.N



مصر للطيران
أهلاً بكم فى عالمنا
مصر للطيران